مختصر

المفاهيم المفتاحية
لنظرية المعرفة في القرآن الكريم

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مختصر كتاب

المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم

مختصر كتاب
المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم

عبد الكريم بليل

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

مختصر كتاب المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم

تأليف: عبد الكريم بليل

موضوع الكتاب: ١- نظرية المعرفة ٢- مصادر المعرفة
٣- أدوات المعرفة ٤- مصطلحات ومفاهيم القرآن الكريم
٥- دراسات قرآنية ٦- دراسات إسلامية

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٦٤١-٤

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٦/٨/٤٠٣٣)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

النشر والتوزيع

مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: ٩٦٢٧٩٧٠٠٠٧٠٩+ - فاكس: ٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧+
Email: majed_fawzi@hotmail.com

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تصدير ٩
المقدمـة ١١

الباب الأول

الألفاظ والمفاهيم المعرفيّة في القرآن الكريم

الفصل الأول: دراسة المفاهيم من منظور معرفيّ ١٥
أولاً: الضّرورة المعرفيّة للمفاهيم ١٥
ثانياً: تحليل بنية المفاهيم ١٨
ثالثاً: المفاهيم ومشكلة المعنى ١٩
رابعاً: تغيّر المفاهيم ٢٢
خامساً: منظومة المفاهيم المفتاحيّة في القرآن الكريم ٢٣
سادساً: منهجيّة تصنيف الألفاظ المعرفيّة من القرآن الكريم ٢٤
الفصل الثاني: مفاهيم المضامين المعرفية: المعرفة والعلم والوحي ٢٧
أولاً: مفاهيم المعرفة ٢٧
ثانياً: مفاهيم العلم ٦٧
ثالثا: مفاهيم الوحي ٩٦
الفصل الثالث: مفاهيم الطرق المعرفية: العقل والحس ١٠٥
أولاً: مفاهيم العقل ١٠٥
ثانياً: مفاهيم الحس ١٢٤

الباب الثاني

المعرفة والعلم في القرآن الكريم

الفصل الأول: المعرفة في القرآن الكريم ١٤١

أولاً: تعريف المعرفة ١٤١
ثانياً: طبيعة المعرفة ١٤٣
ثالثاً: ميدان المعرفة ١٥٢
رابعاً: ضوابط المعرفة في القرآن الكريم ١٦١
الفصل الثاني: العلم في القرآن الكريم ١٧٧
أولاً: تعريف العلم وأقسامه ١٧٧
ثانياً: مراتب العلم وضوابطه ١٨٠
ثالثاً: النظرة الشاملة للعلم في القرآن ١٨٦
الفصل الثالث: المقارنة بين المعرفة والعلم ١٩١
أولاً: الفروق اللغوية والاصطلاحية ١٩١
ثانياً: المصطلحات المرادفة للعلم والمعرفة في القرآن الكريم ١٩٤

الباب الثالث

اكتساب المعرفة وطرائقها ومصادرها في القرآن الكريم

الفصل الأول: أدوات المعرفة في القرآن الكريم ١٩٩
أولاً: وظيفة الحواس وأهميتها وقدرتها المعرفيّة ١٩٩
ثانياً: السمع والبصر في القرآن الكريم ٢٠١
ثالثاً: القلب في القرآن الكريم ٢٠٧
الفصل الثاني: طرائق اكتساب المعرفة في القرآن الكريم ٢٢١
أولاً: الإحساس ٢٢١
ثانياً: الإدراك ٢٢٧
الفصل الثالث: مصادر المعرفة ٢٦١
أولاً: مفهوم المصدر المعرفيّ ٢٦١
ثانياً: الكون (المخلوقات) مصدر للمعرفة في القرآن الكريم ٢٦٧
ثالثاً: الله تعالى (الخالق) مصدر للمعرفة في القرآن الكريم ٢٧٥

تصدير

يعكف المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ مدة على اختصار بعض الكتب التي أنتجها؛ إذ لاحظ أن من أهم سمات هذا القرن، أنه عصر متسارع في الإنتاج والوقت وطريقة الحياة. وليست حركة التأليف والإنتاج والتسويق ببعيدة عن هذا التسارع المحموم؛ إذ ثمة تدفق كبير في الإنتاج المعرفي والعلمي والثقافي، وهناك مواكبة مستمرة لكل ما يتصل بالشأن العام والخاص، وثمة تنافس كبير بين دور النشر والمواقع الإلكترونية في تسويق أفكارها ومنشوراتها، بصورة تحاول تقليل الفجوة بين التسارع الكبير في الزمن، والحفاظ على جِدّة المعلومة واتساقها مع المتغيرات، وقدرة المرء على الإفادة من هذه المعلومة بأيسر صورة وأكثرها نجاعة وفائدة، لا سيما أننا نعيش مجتمع المعرفة والاقتصاد المعرفي، الذي يفرض على المجتمعات أن تلجأ إلى ما يُسمى بـ"التكييف الإبداعي"، وهي تقنية علمية وفكرية ومعرفية، تقوم على استحضار الحاجات العلمية والمعرفية للمجتمع والأمة، والتثاقف مع لبنات المجتمع الإنساني، والقدرة بعد ذلك على إنتاج ما يتسق وبنية المجتمع.

وبناء على المعطيات السابقة، فقد وعى المعهد هذه الحاجة إلى المواءمة بين الزمن والفكرة والحاجات المعرفية، لذلك لجأ إلى إنتاج بعض الكتيبات، واختصار بعض الكتب التي يشعر بأن لها موقعاً مهماً في تطوير الملكة النقدية

عند العقل المسلم، ومن ثمّ تشكيل الشخصية الإسلامية القادرة على تفعيل حركة النهوض والإسهام في بناء الإنسانية.

واتّبعت إدارة النشر منهجية علمية في اختيار هذه الكتب، وفي حجمها، وغلافها، وطريقة اختصارها؛ إذ حافظت على محتويات الكتاب الأصلي، وعلى لغة المؤلف كما هي، إلا في بعض المواقع النزيرة التي تحتاج إلى الاستعانة ببعض أدوات الربط، التي تساعد على اتساق النصوص ومقروئيتها. وسيلحظ القارئ الكريم أن نسبة الهوامش في المختصر قليلة جداً مقارنة بالكتاب الأصلي، فقد استحضرنا تلكم الهوامش التي لها ضرورة تفيد التوضيح أو تثبيت الفكرة؛ إذ إن في إبقاء هوامش الكتاب الأصلي تضخيماً للمختصر، وهذا يتناقض وغائية المختصر ومقصده؛ إذ التركيز على الفكرة، واستيعابها في مدة زمنية قصيرة. وإذا أراد بعض الباحثين الاستزادة؛ لغايات التثبّت والتوثيق العلمي، فيمكنهم الرجوع إلى الكتاب الأصلي، الذي يتضمن الهوامش كاملة.

والله ولي التوفيق

إدارة النشر في المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المقدّمة

الحمد لله الذي نـزّلَ القرآن، وجعل فيه الميزان بين الصدق والكذب والبهتان، آمراً بتدبّره، وما يعقله إلا الرّاسخون، وما يتذكّر إلا أولوا الألباب؛ وبعد، فإنّ الجانب المعرفيّ في القرآن يتناول النظر الذي هو أول واجب على الإنسان، وأول مطلوب منه باتفاق الفقهاء والنظّار والفلاسفة.

وهذا النظر الأوليّ ضروريّ ليتمكّن الإنسان من معرفة خالقه، وذاته، وما حوله. ويترتّب على حصول المعرفة بالخالق وذاته؛ استدعاء المعارف الأخرى التي تُشكِّل إجابات شافية عن أسئلة مهمّة تتناول مصادر المعرفة، ومتعلّقاتها، وميادينها، وأنواعها، ووسائلها، ومقاصدها، وطرائق توظيفها والإفادة منها، وكيفيّة تراكمها، وجمعها، وتناقلها، وتطويرها؛ كلّ ذلك لاختبارها وربطها بالحقائق والسُّنن.

وتتمّ الدراسة بجمع جملة من المفردات القرآنيّة وانتخابها لبناء معجم للمفاهيم والمصطلحات بدلالة قرآنيّة. فالوحي -قرآناً وسنّة- يمثِّل مجموعة مفاهيم، إذا حُصِّلت حصرت كلّيات الدين. ولا سبيل إلى فقه النصّ القرآنيّ بغير دراسة مصطلحاته وألفاظه؛ فهي مفتاح الوصول إلى مراد الله عزّ وجلّ.

والمصطلح القرآنيّ تتباين دَلالاته بتنوّع امتداداته داخل النسق المفهوميّ للنصّ، وتختلف معاني مبانيه باختلاف القضايا التي طُرِح فيها هذا المصطلح.

ويُراد بالدراسة المصطلحيّة لألفاظ القرآن "تلك الدراسة المنهجيّة الجامعة التي تبيّن مفاهيم المصطلحات من نصوصها، وتبيّن المقوّمات الدَّلاليّة الذاتية للمصطلح عبر ضمائمه واشتقاقاته والقضايا الموصولة به." وبذا، يُعَدّ الاصطلاح ضابطاً لحركيّة المفهوم، وإنْ كان المفهوم هو ما يُولِّد المصطلح.

وممّا لا شكّ فيه أنّ عدم ضبط مفهوم المصطلح يؤدّي إلى فوضى فكريّة، كما يتولَّد عن عدم فهمه اضطراب في التصوّر، وربّما يُفسِّر بعضهم مصطلحاً ما على غير ما تواضع عليه أهله، فإذا شاع تشعّبت معانيه، فيفتقد خصوصيّته العلميّة، وقيمته اللغويّة، وأهليّته الاصطلاحيّة.

فالتواصل الصحيح لا يمكن أن يتمّ إلا في ظلّ وضوح المفاهيم، والاستعمال الدقيق للمصطلحات. وقد نبَّه العلماء والنظّار لأهميّة تحديد المصطلحات؛ حتى لا يدور الجدال على الألفاظ بدل الحقائق، فلا يُقبَل مصطلح معيّن فيه إجمال واشتباه؛ حتى يستفسر صاحبه ويستفصل؛ ليكون الحوار بنّاءً وحقيقيّاً. فسبب اختلاف النظّار يُعزى غالباً إلى استعمالهم ألفاظاً مجملة، تتناول أنواعاً مختلفة؛ إمّا بطريق الاشتراك لاختلاف الاصطلاحات، وإمّا بطريق التواطؤ معَ اختلاف الأنواع، فإذا فسّر المراد وفصل المتشابه؛ تبيّن الحقّ من الباطل، والمراد من غير المراد.

الباب الأول

الألفاظ والمفاهيم المعرفية

في القرآن الكريم

الفصل الأول:

دراسة المفاهيم من منظور معرفيّ

يمكن النظر إلى المفاهيم من زوايا عدّة، وإخضاعها لمناهج متنوّعة، ودراستها لغويّاً، أو نفسيّاً، أو فلسفيّاً، ومن الزاوية المعرفيّة (الإبستمولوجيّة)، بتحليل بنية المفهوم معرفيّاً، وإيضاح الأسس التي تقوم عليها المنهجية؛ في تشكل العلاقات بين المفاهيم لتكوّن حقلاً معرفياً، وتشكل النسق من تكامل الحقول المعرفية.

نبحث في هذا الفصل إشكالية المعنى، ونعرض للتغيرات التي تلحق المفهوم ودلالته. وهو يتضمن: الضّرورة المعرفيّة للمفاهيم، وتحليل بنية المفاهيم، ثم المفاهيم ومشكلة المعنى. وتغيّر المفاهيم، ومنظومة المفاهيم المفتاحيّة، ومنهجية تصنيف الألفاظ المعرفية في القرآن الكريم. وستكون وفق: الدلالة المعجمية، الدلالة الاستعمالية، الدلالة التأويلية.

أولاً: الضرورة المعرفيّة للمفاهيم

يتكون أيّ نسق معرفيّ حضاريّ من مجموعة حقول معرفيّة متكاملة، تتجلّى في صورة متناسقة، فهناك المعرفة الدينيّة، والميتافيزيقيّة، والرياضيّة، والمنطقيّة، واللسانيّة، والاجتماعيّة، وغيرها. وتمثل الحقول بدورها مجموعة من المفاهيم، وكلّ حقل يتركّب من مفاهيم تربطها ببعضها علاقات معيّنة.

١ – قيمة المفهوم:

لكلّ حقل خصائص ومفاهيم تميّزه عن غيره، وتتركّب الحقول بعضها مع بعض؛ لتُنشئ نسقاً معرفيّاً متكاملاً. ويعتمد تحليل أيّ بنية معرفيّة على أسس ثلاثة، هي: المفاهيم، والعلاقات التي تؤلِّف من المفاهيم حقلاً، والعلاقات التي تشمل من الحقول نسقاً، فالمفاهيم هي حجر الأساس؛ وعدمها عدم للحقل، ووجودها لا يلزم منه وجوده، فهي التي تبرز خصائص الحقل، ويعد الخلط بين المعاني عند كثير من الكتّاب من العلل الفكريّة الناشئة عن غموض الأفكار والمفاهيم، أو تحريفها؛ من هنا فقد كان الأولى على أهل الفكر توضيح المفاهيم العامّة لأيّ حقل أو نسق؛ لأنّ إصلاح النسق ككلّ يتطلّب البدء بأساسه؛ كيما يحدث التغيّر الفكريّ، والتحوّل الحضاريّ.

٢ – المفهوم بمعناه المنطقيّ:

المفهوم هو مجموعة الصّفات والخصائص؛ المحدّدة للموضوعات لتمييزها عن الموضوعات الأخرى، ولكنّنا سننظر إلى المفهوم نظرة تفسح المجال أمام القول بأنّ الغالبية العظمى من المفاهيم تتّسم بمرونة مطلقة، لا تحدُّها حدود ولا تقيّدها قيود، فتتّسع دَلالتها أحياناً وتضيق أخرى، معَ حفاظها على حقل دلاليّ خاصّ بها، وتُعَدّ المفاهيم "المعاني العقليّة الكلّيّة، أو الأفكار العامّة المجرّدة"، وأبرز أمثلتها: الحريّة والتسلّط، والعدالة والظلم، والحقّ والباطل، والخير والشرّ، والجمال والقبح.

٣- تشكيل المفاهيم:

لا شك في أن المفاهيم محدّدة الدَّلالة، تمثل معنًى محدّداً، أو مجموعة معانٍ، نُعبِّر عنها إمّا برمز لغويّ واحد يُسمّى لفظاً أو مصطلحاً، مثل "العلم"، وإمّا بتعبير، مثل "العلم الإلهيّ".

وفي حال المفاهيم المحدّدة، يوضَع اللفظ إزاء المعنى، فيُنتِج ذلك مصطلحاً يتّفق عليه أهل علم معيّن، وقد يظلّ المصطلح مقصوراً على أصحابه الذين تواضعوا عليه، ولكنّ المشكلة تنشأ عند وضع لفظ واحد إزاء معانٍ كثيرة، معَ غياب القرائن اللغويّة التي تميّز هذه المعاني، وهذا الموقف يختلف عن "المشترك اللفظيّ" بين معنيين متغايرين أو أكثر؛ لأنّنا قد نتوصل في المشترك اللفظيّ إلى تحديد المعنى المراد عن طريق القرائن أو السياق اللغويّ، وهذا الإشكال غير قائم معَ المفاهيم ذات المعاني المحدّدة؛ لغويّة كانت أو اصطلاحيّة، ومثال ذلك مفهوم "الديمقراطيّة"، الذي اتُّفِق على أصله اللغويّ (حكم الشعب)، واختلف في دلالته الاستعماليّة.

وعند انقلاب المفاهيم تتحول الروابط بين أفراد الأمة، فيجعل الرابط العقديّ فرعاً لا أصلاً، وهذا وليد النقل من الفلسفات الإلحاديّة والوجوديّة التي تجعل الفرد محوراً، وفوق كلّ شيء، حتى توصله إلى مقام التشريع، وتقرير ما هو خير وما هو شرّ، وما هو حقّ وما هو باطل.

ثانياً: تحليل بنية المفاهيم

يتطلّب ضبط أيّ مفهوم تفكيك عناصره؛ لمعرفة بنيته المركّبة، وترتيبها من حيثُ الأهميّةُ في تشكيله.

١ – تحديد بنية المفهوم:

تتألّف بنية أيّ مفهوم من عناصر عدّة، منها أساسيّة، وأخرىٰ مكمِّلة لها، وللعناصر الأساسيّة أسبقيّة منطقيّة في البنية؛ إذ إنّها لا تُشتَقّ من غيرها، بينما غيرها يُشتَقّ منها، وهي تشبه البدهيّات في الأنساق الرّياضيّة والمنطقيّة؛ لأنها تتمتع بدرجة أكبر من التجريد، مقارنة بغيرها. وقد ميّز علماء الدَّلالة بين أنواع من المعاني في مقدّمتها المعنىٰ الأساس والإضافيّ. فالمعنىٰ الأساس هو المعبِّر الحقيقيّ عن أهمّ وظائف اللغة، وهي التواصل ونقل الأفكار، ولهذا فإنّ فهم بنية أيّ مفهوم فهماً دقيقاً يتطلّب تحليل هذه البنية، وتحديد عناصرها الفرعيّة.

٢ – أهميّة تحليل بنية المفهوم:

يمكن بيان مدىٰ أهميّة العمليّة التحليليّة في الإدراك الدقيق والصحيح للمفاهيم، واجتناب اللبس؛ بتأمُّل مفهوم "العقل". فالمفاهيم تنقسم إلىٰ ثلاث أنماط، هي: المفاهيم المعرفيّة: مثل: العلم، والفهم، والتفكّر، والإدراك، ومفاهيم الإرادة: مثل: العزم، والاختيار، والقصد، والإرادة، ومفاهيم الإحساس: مثل: الغضب، والخوف، واللذة، والألم. وإنّ تحليل بنية مفهوم (العقل) علىٰ هذا النحو سيُؤثِّر في الحوار الذي يدور عليه، من

حيثُ: طبيعتُهُ، وطريقتُهُ، والنتائجُ التي ينتهي إليها، وقد أدرك العلماء وجود علاقة بين بنية اللغة، وبنية العقل، وبنية الواقع. وإنّ تحليل بنية المفهوم تكشف لنا عن وجود مجموعة من المفاهيم، تتطوّر معَ الأيّام، ويزيد مضمونها، ومساحة تطبيقها، مما يحتّم ضرورة التنبّه لبعض الدَّلالات التي تكتسبها المفاهيم في مراحلَ تاريخيّة معيّنة، فإنه لكي تفهم المعنى المحدّد للكلمة؛ يجب أن تفهم مجموعة الكلمات المتّصلة بها دَلاليّاً، أو دراسة العلاقات بين المفردات، داخل الحقل، أو الموضوع الفرعيّ؛ لأنّ معنى كلمة ما؛ هو محصّلة علاقاتها بالكلمات الأخرى، وهدف التحليل للحقول الدَّلاليّة؛ هو جمع كلّ الكلمات التي تخصّ حقلاً بعينه، والكشف عن صلات الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام.

ثالثاً: المفاهيم ومشكلة المعنى

كيف يمكن الحكم على المفاهيم بأنّها واضحة، أو غامضة، أو خالية من المعنى؟ تتنوع مجالات الكلام بين: عقديّة، وإنسانيّة، وأدبيّة، وطبيعيّة، ورياضيّة. لذا، عُدَّ مفهوم المعنى الواضح إشكالاً في حدّ ذاته، في كلّ مجال على حِدة، ومن هنا كان الاهتمام بقضيّة المعنى في التراث العربيّ، في علوم اللغة، وفقة اللغة، تفادياً لما يُسمّى "بالأمراض الدَّلاليّة" التي تصيب المفاهيم في حقول معرفيّة متنوّعة، ونجد هذا الاهتمام بارزاً في الفلسفة، وعلوم اللغة، وعلم الأصول.

١ – قضيّة المعنى عند اللغويين:

يقول ابن جني في كتابه الخصائص: "ذلك أنّ العرب؛ كما تُعْنَى بألفاظها، فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشِّعر تارةً، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها، وتتكلّف استمرارها، فالمعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها، فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لمّا كانت عنوان معانيها، وطريقاً على إظهار أغراضها ومراميها."

اهتمّ اللغويون بالدَّلالة اهتماماً تجلّى في جمع معاني القرآن الكريم؛ كعلم المفردات، والنظائر، والمجاز؛ ويمثل ضبط المصحف عملاً دلاليّاً؛ ذلك أن من أهم الأسباب التي دفعت إلى وضع علم النحو، لحن أحد القرّاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]؛ بجرّ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بدلاً من ضمّها.

٢ – قضيّة المعنى عند البلاغيين:

اهتم أهل البلاغة كثيراً بالجوانب الدَّلاليّة، كالحقيقة والمجاز، وتراكيب الجمل، ودراسة الأساليب؛ كالأمر والنهي والاستفهام والتعجب، وغيرها، ومن ذلك: فكرة "النظم" عند الجرجانيّ، التي ارتقت على يديه، وصارت نظريّة لها أصولها التي تميّزها من غيرها. قال: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك؛ الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها."

٣- قضيّة المعنى عند الفلاسفة:

حظيت قضيّة اللفظ والمعنى بعناية بعض فلاسفة المسلمين، مثل الكِندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وابن حزم، والغزالي؛ وقد تضمّنت معظم بحوثهم المنطقيّة واللغويّة هذه القضيّة، حيث قرّر أغلبهم أنّ الألفاظ تدلّ على المعنى من ثلاثة أوجه متباينة، هي: دَلالة المطابقة، ودَلالة التضمين، ودَلالة الالتزام، ويُقصَد بها دَلالة اللفظ على خارج عن مسمّاه. يقول الغزالي: "اعلم أنّ الألفاظ من المعاني على أربعة منازل: المشتركة والمتواطئة والمترادفة والمتزايلة. أمّا المشتركة؛ فهي اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة، بالحدّ والحقيقة، وأمّا المتواطئة؛ فهي التي تدلّ على أعيان متعدّدة؛ بمعنىً واحد مشترك بينها، وأمّا المترادفة؛ فهي الأسماء المختلفة الدّالة على معنىً يندرج تحت حدّ واحد، وأمّا المتزايلة؛ فهي الأسماء المتباينة التي ليس بينها شيء من هذه النسب."

٤- قضيّة المعنى عند الأصوليين:

اهتمّ أهل الأصول باللغة والمعنى، وذلك لوجود صلة وثيقة بين فهم اللغة وفهم الشرع المنزّل بلسان عربيّ مبين. فعلم الأصول علمُ استنباطِ الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيليّة، وقد بُني موضوعه على محورين، هما: الأدلّة، والأحكام. وإنّ عمليّة استنباط الأحكام الشرعيّة من الأدلّة توجِب إدراك معاني الألفاظ؛ بغية تعرُّف المقصود من النصوص الشرعيّة. فالأصوليون يقسمون الألفاظ إلى مترادفة ومشتركة ومطلقة ومقيّدة، ولهم اهتمام واضح بصيغ الأمر والنهي لكونها محور التكليف، ويهتمون كذلك

بنظرية السياق، لأنّها تحدِّد دَلالات الصيغ، والتي منها: الإباحة، والوجوب، والتعجيز، والإرشاد، وهذا مبنيّ على مراعاة القرآن الكريم للمعنى والمبنى.

رابعاً: تغيّر المفاهيم

تخضع المفاهيم لأطر بيئيّة وثقافيّة، ويثير الاستخدام العامّ للمصطلحات -الفلسفيّة، والعلميّة، والأدبيّة، والمفردات اللغويّة- يثير اللبس، وذلك لأنّ الأفكار تستخدم نفس المصطلحات والمفردات المتداولة؛ للتعبير عن نفس الدلالات التي ترتبط بالمضمون المعرفيّ للفلسفة، والفكر الذي أنتجها؛ أي أنّ دَلالة الألفاظ والمفردات ترتبط بتصوّر ذهنيّ معيّن، وليست مجرّد علامة عليه وإشارة، مع مراعاة مسألة التمييز بين ظاهرة "تغيير المعنى"، وظاهرة "تحريف المعنى".

١- أسباب تغيّر المعنى:

هناك عدة أسباب تساعد في تغيّر المعنى في الثقافات البشريّة، منها: ظهور الحاجات الجديدة، الذي يؤدي إلى إحداث تغيير في المعنى، ثم العوامل النفسيّة والاجتماعيّة، كالحَظر أو التحريم؛ الذي يُفضي إلى تغيّر المفاهيم؛ لأنّ المفاهيم التي نُعبِّر عنها بمصطلحات هي معانٍ مجرّدة.

٢- تحريف المعنى:

تُعَدّ عمليّة تغيير المعنى حالة طبيعيّة، ويدور الإشكال على ظاهرة "تحريف المعنى"، فتغيير المعنى يمرّ بمراحل تطوّر طبيعيّة، ويحظى بالقبول لدى أهل اللغة، والمجامع والهيئات العلميّة، أما التحريف فيحصل لغايات

مبيته، وتتمثل طريقة البحث في العقل في إظهار كيفيّة انبثاق العقل من المادة، وتبعاً لذلك لا يزيد العقل عن كونه عضواً ماديّاً، فالعقل عرض روحاني خلقه الله تعالىٰ متعلقاً ببدن الإنسان، فالاتجاهات الماديّة في العلم والفلسفة حرّفت مفهوم "العقل" من المنظور الوظيفيّ، الذي يُعَدّ ملكة لدىٰ الإنسان المحدود الإدراك. وتكمن المغالطة في سحب الجزء علىٰ الكلّ، ولكنّ تصوّر الإسلام للمعرفة يرىٰ أنّ العقل لا يزيد علىٰ أن يكون وسيلة من وسائل الإدراك، وأنّ كلّ وسائل الإدراك لدىٰ الإنسان تقع في باب الوجود.

٣- قواعد التعامل معَ المفاهيم:

هناك قواعد دلاليّة تحكم التعامل الدقيق معَ المفاهيم، تنطلق من الاعتراف بالخصوصيّة الحضاريّة والسّمات اللغويّة والمنطقيّة للُّغة التي تُصاغ بها، ومعرفة المعنىٰ اللغويّ والاصطلاحيّ للألفاظ التي تُعبِّر عن المفاهيم، ومعرفة السيرورة الدلاليّة للمفهوم، والتمييز بين الدَّلالات الأصليّة التي تجلّت عند وضعه أولَ مرّة؛ والدَّلالات التاريخيّة التي اكتسبها في أثناء تطوّره، ثم تحليل البنية الدَّلاليّة، وتمييز العناصر الأساسيّة من الفرعيّة، مما يساعد علىٰ إدراك الفرق بين التطوّر الدلاليّ الطبيعيّ وتحريف دَلالة المفهوم؛ سواء عن طريق التضييق، أو التوسيع، أو أيّ صورة أخرىٰ.

خامساً: منظومة المفاهيم المفتاحيّة في القرآن الكريم

بما أنّ القرآن الكريم هو مصدر المعرفة الرئيس، فلا بد من حصر ألفاظه التي تصف الفعل المعرفيّ، أو الأساليب، أو الأدوات، أو تضفي قيمة

معرفيّة، ثمّ تحويلها إلى مفاهيمَ، من أجل رؤية موضوعات الحقل المعرفيّ.

بعض الألفاظ ذات دَلالة واضحة؛ وبعضها تابع لألفاظ أخرى في المفهوم، وبعضها ورد ذكره في القرآن أكثر من غيره، ومنها ما ندر ذكره؛ لذا، قمنا بتأطيرها في مجموعات، ندرج تحت العقل كلّ الألفاظ ذات الصّلة بالعمليّات العقلية؛ كالتفكّر، والتدبّر، والنظر، والسمع، والبصر، وندرج معَ الوحي كلّ متعلقاته من النبوّة والكتاب والرّسالة.

سادساً: منهجيّة تصنيف الألفاظ المعرفيّة من القرآن الكريم

هناك مجموعة من الألفاظ ترتبط دَلالتها بمفهوم العلم والمعرفة في النصّ القرآنيّ، تمّ استنباطها باستقراء كتب التفسير؛ وتتم دراسة هذه الألفاظ عن طريق التقسيم الدَّلاليّ، في ثلاثة مباحث: الدَّلالة المعجميّة، والاستعماليّة، والتأويليّة.

١ – الدَّلالة المعجميّة:

يُقصَد بالدَّلالة المعجمية؛ تلك الدلالة الوضعيّة التي تُمثِّل الحقيقة اللغويّة عند الأصوليين، ذلك أن الأصل اللغويّ لا يُعدل عنه إلا بدليل، فالأصل هو الحقيقة اللغويّة، أمّا مسوّغ الدَّلالة المعجميّة، فهو وضع الألفاظ في مجال دَلاليّ واحد؛ تتّضح داخله علاقات الألفاظ ببعضها؛ لوجود المشترك والمترادف والمتضادّ؛ وعدم المساواة بين الألفاظ، ذلك أنّ المعنى المعجميّ يُمثِّل التصوّر الذي يستدعيه اللفظ المتجرّد من العرف الاجتماعيّ والمعتقد الدينيّ عند الإطلاق، وهو معنىً يتّصف بالتعدُّديّة والاحتماليّة.

فالكلمة في المعجم لا تفهم إلا منعزلة عن السياق، وهذا هو المقصود بوصف الكلمات في المعجم بأنها مفردات، على حين لا توصف بهذا وهي في النصّ، ولا يمكن تصوّر المعنى بوصفه خاطراً في الضمير؛ ما يعني أنّ البحث فيه يكون وَفق هيئته التي يُمثِّلها في التركيب، فمعنى اللفظ يتحدّد بالسّياق المتواضَع عليه حال التركيب معَ غيره، والسّياق واللحاق هما أهمّ عوامل ضبط المعنى، وتحديد الحقل الدَّلاليّ لكلّ لفظ.

٢- الدَّلالة الاستعماليّة:

يقصد بها دَلالة اللفظ على معناه الحقيقيّ، أو معانيه المجازيّة بقرينة ما، لأنّ الألفاظ المفردة لا تستعمل لإفادتها مدلولاتها إلا عند التركيب، ولهذا فإن فهم القرآن الكريم يتطلّب النظر في المادّة اللُّغويّة للفظ المراد تفسيره؛ بالوقوف على دَلالة اللفظ في عصر النزول. وهناك ألفاظ لها دَلالات خاصّة من معانيها العامّة، صار لبعضها دَلالة جديدة غير معهودة، تطلّبها السّياق القرآنيّ، أو الجوّ الدينيّ العامّ. وهناك ألفاظ استُعمِلت على نحوٍ دقيق، وصارت المفردة القرآنيّة تتمتّع بميزات لم تعرف من قبل، بما يبرهن على إعجازها، واتّساقها الكامل معَ المعنى، واتّساع دَلالتها.

٣- الدَّلالة التأويليّة:

التأويل وسيلة من وسائل الكشف عن مراد المتكلم، ومعرفة ما تعنيه ألفاظه، ولا يتحقّق هذا إلّا بمراعاة أصول اللغة، فلا يكون إلّا بدليل أو قرينة توجِب صرف المعنى الظاهر الأصليّ إلى غيره وإلّا بطلت الثقة باللغة

ومَهَمَّتِها، فالدَّلالة التأويليّة هي إخراج دَلالة اللفظ من الدَّلالة الحقيقيّة إلى الدَّلالة المجازيّة. وقد عُدَّ المجاز المعتمّد على القرينة وضعاً تأويليّاً. والتأويل قد يكون هو التفسير لما تؤول إليه الكلمة معَ السّياق واللحاق، وهذا أقرب إلى الحقّ، فالجانب اللغويّ على قدر كبير من الأهميّة في العمل التأويلي، وقد أشار الشاطبي إلى ما تجب مراعاته في المؤوَّل إليه ليصحّ حكمه، وذلك بأن يكون راجعاً إلى معنىً صحيح في الاعتبار، متّفق عليه في الجملة، وأن يكون موضع اللفظ قابلاً للمعنى المؤوَّل إليه من الناحية اللغويّة، بوجه من وجوه الدَّلالة؛ حقيقيّة، أو مجازيّة، أو كناية، جرياً على سُنن العربيّة، وما تدلّ عليه أسباب نزول الآية.

الفصل الثاني:

مفاهيم المضامين المعرفية: المعرفة والعلم والوحي في القرآن الكريم

تتشكَّل المفاهيم عن طريق البحث في المعنى اللغويّ المعجميّ، وقد ابتدأنا باعتماد مقاييس اللغة دائماً؛ لبيان الأصل ومشتقّاته، ثمّ القاموس لبيان الدَّلالات الاستعماليّة، وعمدنا إلى استقراء المعاني الاستعماليّة والتأويليّة من: المفردات للأصفهاني، والتعريفات للجرجانيّ، والكلّيّات للكفويّ، وكشّاف اصطلاحات الفنون للتهانويّ، وإصلاح الوجوه للدامغانيّ، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزيّ، والوجوه والنظائر لسليمان القرعاويّ. ثمّ ما يُستخلَص من المعاني المعرفيّة التي تميّز المفهوم قرآنيّاً. وتنقسم المفاهيم إلى مفاهيم: المعرفة، والعلم، والوحي.

أولاً: مفاهيم المعرفة:

١ - مفهوم المعرفة:

(ع ر ف): أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، والآخرُ على السكون والطمأنينة، عَرَفَه يعْرِفُه معْرِفة وعِرْفاناً بمعنى علمه، فهو عَارِف، والتَعْرِيف: الإعلام، وضدّه التنكير. والمعرفة هي إدراك الشيء على ما هو عليه، معَ كونها مسبوقة بجهل أو نسيان حاصل بعد الإدراك الأول، وعرفها البعض بأنها إدراك الشيء بتفكّرٍ وتدبّرٍ لأثره،

والعارف بالشيء هو الذي كان له به إدراكٌ ظاهر، ثمّ أنكره لاشتباهه عليه، فمعنى المعرفة لتعلقها بالحسّ وعيان القلب، وإفادتها تمييز المعروف من غيره، أخصّ وأتمّ من العلم المأخوذ من عالم الفكر من هذه الجهة. ولم يُجِز العلماء وصف المعرفة في حقّ الله تعالى؛ لما في معناها من شرط النكرة، وما يسبقها من جهل؛ ولأنّ دَلالتها تتوقّف على العلم القاصر المتوصَّل إليه بالتفكّر والتدبّر.

ورد لفظ "المعرفة" في القرآن الكريم على نحوٍ محدود مقارنة بلفظ العلم ومشتقّاته؛ وقد جاء على هيئة الفعل بصيغه المتعدّدة في أربعة وعشرين موضعاً، ترجع كلها إلى الأصل الأول معَ فروق في المعاني الاستعماليّة. وهي ثمانية أقسام: الأول: المعرفة الحسيّة، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وضدّه الإنكار، ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، والثاني: التعريف: كتعريف الضالّة وضدّه التنكير، قال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمّد: ٦] والثالث: التعارف، ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ والرابع: الاعتراف: بمعنى الإقرار بالشيء: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، والخامس: المعروف: وهو كلّ ما تعارف الناس عليه بأنّه خير وصلاح: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والسادس: العُرْف: وهو ما تَبْذُلُه وتُعطيه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. والسابع: عرفات: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٩٨]. والثامن: الأعراف: كلّ مرتفع من الأرض: ﴿وَنَادَىٰٓ

أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف: ٤٨].

ويكون التعارف على ما ظهر، أمّا الباطن فيوكل إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمّد: ٣٠]؛ فالتعارف مبنيّ على الظواهر؛ أمّا الاعتراف فيكون عن معرفة يقينيّة مكتسبة، لا عن علم ضروريّ؛ فهو إقرار، فالخطأ لا يكون إلا عن جهل، وهو ضدّ المعرفة، وضدّ الحِلم، فناسب اللفظُ سياقه. والعرف في الشريعة هو كلّ ما تصالح الناس عليه من أفعال وأقوال؛ أي عادات وسوالف، فالم يأتِ في الشّرع ما يحرِّمها فهي على أصلها مُباحة، وهذا يدخل في باب الحفاظ على ثقافة الشعوب والقبائل، واستمرار هُوِيَّتِها الاجتماعيّة معَ هيمنة الشريعة الإسلاميّة.

خلاصة استعمالات لفظ "معرفة" في القرآن الكريم: من تتبّع استعمالات لفظ "معرفة" في القرآن الكريم نجد أنها وردت بوصفها إدراكاً مكتسباً، وقد ذُكِرت في مواضعَ عدّة مقرونة بالعلامة الظاهرة؛ إمّا في الوجه فكانت أداة المعرفة "العين"، وإمّا ممّا صدر من قول فكانت أداة المعرفة "الأذن". وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وقد تصل المعرفة إلى درجات اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ويقتران ذكر "المعرفة" في القرآن غالباً بما يضادها، قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ويقابل المعرفة أيضاً الكفر

كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] فمعَ أنّ الإنكار جاء بمعنىٰ الجحود في الآية (٨٣) من سورة النحل، فإنّه جاء بمعنىٰ الجهل في الآية (٦٨) من سورة يوسف؛ أي إنّهم لم يتعرّفوا إلىٰ يوسف عليه السلام ولم يعرفوه، فهو مجهول عندهم. أمّا في حال النبيّ ﷺ فقد كان إنكار المشركين كذباً وتكذيباً له عليه السّلام. وترد المعرفة في القرآن الكريم علىٰ نوعين عند الموحّدين والمشركين: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس؛ البرّ والفاجر، والمطيع والعاصي، ومعرفة توجب الحياء من الله تعالىٰ، والمحبّة له وتعلّق القلب به والشوق إلىٰ لقائه.

وتكون أدلّة المعرفة من الوحي ومن الكون، وكلّها تؤدّي إلىٰ اليقين. أمّا الوحي، ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وفي الأدلّة العقليّة قوله تعالىٰ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]؛ فالمعرفة لها بابان؛ لأنّ آياتِ الله نوعان؛ الأول: التفكّر والتأمّل في آيات القرآن الكريم، والثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأمّل حكمته فيها وقدرته ولطفه. وفي الأدلّة الحسيّة ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمّد: ٣٠].

٢- مفهوم النكرة:

مادة (ن ك ر) أصلٌ صحيح يدلّ علىٰ خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب، وقد (نَكِرَهُ نُكْراً، ونُكُوراً، وأَنْكَرَه واسْتَنْكَره: لم يقبله قلبه، ولم يعترف به لسانه، والمُنْكَرُ ضدّ المعروف.

ورد لفظ "نكر" بمشتقاته في القرآن الكريم في ستة وثلاثين موضعاً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهو كلّ ما استوحشت منه النفوس السليمة، ونفر منه العقلاء؛ وكلّ ما ورد الشرع بتحريمه فهو منكر. وجاء في مقابل المعرفة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ أي: مجهولون، وقوله: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]. فمُنْكرون هنا خلاف المعرفة؛ أي أنهم متجاهلون، ويتعاملون معَ نعم الله كأنهم يجهلون مصدرها، وهذا نتيجة الجحود الذي هو من معاني الكفر لا من معاني الإنكار. وعلى معناه قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، وهو باقٍ على معناهُ اللغويّ؛ أي كلّ ما خالف المعرفة التي تسكن إليها القلب، شرعية كانت أم عقليّة أو عرفيّة.

٣- مفهوم الكفر:

(ك ف ر) أصل صحيح يدلّ على معنىً واحد، هو الستر والتغطية، والمُكَفّر: الرّجل المتغطي بسلاحه، والكُفْرُ ضدّ الإيمان، وكَفَر نعمة الله، جحدها وسترها. والكَافِرُ: الليل المظلم؛ وكلُّ شيء غطى شيئاً فقد كَفَره. وقد ورد لفظ "كفر" معَ مشتقاته في القرآن الكريم في (٥٠٣) موضعاً، على أربعة أوجه، هي: الجحود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، والإنكار: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. والبراءة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، والإعراض: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ

أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٦]. وكلّ هذه المعاني جارية على أصل المادّة وهو التغطية؛ في حقّ الكفار؛ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ أي مغلّفة مغلقة.

٤ - مفهوم الإدراك:

(د ر ك) أصل واحد، وهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، يقال: أَدْرَكْتُ الشيء أُدْرِكُه إدْراكاً، وتداركوا: لحق آخرهم أوّلهم، واسْتَدْرَك الشيء بالشيء، حاول إدراكه به، وأدرك بعقله: فهم، وقد ورد لفظ الدرك في القرآن الكريم في عشرة مواضع على أربعة أوجه، هي: الإلجام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. واللحوق: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. والاجتماع: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٣٦] والرؤية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فدَلالة اللفظ في القرآن كانت على أصله اللغويّ وهو اللحاق والتتابع، أمّا الدَّلالة المعرفيّة فهي: حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثّل حقيقة الشيء وحده، من غير الحكم عليه بنفي أو إثبات، ويسمّى تصوّراً، ومع الحكم بأحدهما يسمّى تصديقاً، فهو يطلق على كلّ فعلٍ للعقل بسيط ومباشر يدرك به الشيء الحسيّ أو الصورة المحفوظة في النفس أو المتخيّلة، ويقسم إلى: إدراك باطنيّ، وإدراك خارجيّ. فالإدراك هو تمثيل حقيقة الشيء عند المدرِك؛ أي يشاهد بها ما يُدْرِك. وهو مطلق التصوّر، وأول مراتبه وصول العلم إلى النفس الشعور، ثمّ الإدراك، ثمّ الحفظ، وهو كمال يحصل به مزيد كشف على ما يحصل في النفس من الشيء المعلوم من جهة البرهان أو الخبر والنقل.

٥- مفهوم الدراية:

قولهم دَرَيْتُه: علمته. وأدْرِي درْياً، ودَرْيَة، ودِرْياناً، ودِرايَة، علمته، وجاء لفظ "الدراية" بصغية الفعل مسبوقاً بالنفي أو بصيغة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في مواضع ثلاثة، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ في ثلاثة عشر موضعاً، منها قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وتأتي درىٰ بمعنىٰ عَلِمَ وعَرَفَ بعد أن كان غير عالم. والدراية مراتب متفاوتة، قد تكون تامّة وقد تكون ناقصة، واللادراية مذهب من يرىٰ أنّ حقيقة الأشياء ليست في متناول العقل البشريّ، وهو غير مذهب الشكّ الذي ينكر أصحابه العلم بثبوت شيء أو لا ثبوته.

٦- مفهوم الصدق:

(ص د ق) أصل يدلُّ علىٰ قوّة في الشيء، والصَّدْقُ: خلاف الكذب، سمّي لقوّته في نفسه؛ لأن الكذب لا قوّة له، وصداق المرأة، لأنه حقّ يُلزِمُ، والصِّدِّيق الدائم التصديق، والصِّدْقُ: مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم، ومِصْدَاق القول حقيقته. وقد ورد الصدق في القرآن الكريم بمشتقاته في (١٢٧) منها: الصِّدْق: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وصدَّق بصيغة الفعل ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]. وصَادِق: بصيغة فاعل ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. وصَدَق: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، وأصدَقَ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، والصِدِّيق: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]. والصَدِيق: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١] والصَّدَقات: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

[البقرة: ١٩٦]، والصَّدَقة والصَّدَقات، بصيغ: صدقاتكم، صدقاتهن، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] وغيرها.

٧- مفهوم الحقّ:

(ح ق) أصل واحد. يدل على إحكام الشيء وصحته. فالحقّ نقيض الباطل، وحقَّ الشيء: وجب، وحَقِيقٌ به أي جدير، وحَقَّ الأمر حَقاً وحِقَّةً وحُقُوقاً: صحّ وثبت وصدق. وقد ورد لفظ الحقّ في القرآن الكريم في (٢٦٧) موضعاً، منها: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وهو القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [القصص: ٤٨]. وهو الإسلام: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. والعدل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]. والتوحيد: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]. والصدق: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]. والوجوب: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] وضدّ الباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. وهو المال: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. والأَوْلى: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وهو الحظ والنصيب: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤]. والحاجة: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩]. والبيان: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]. وهي لا إله إلا الله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]. والمنجز: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، والجرم: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]. وكلها متقاربة مع معانيها اللغويّة، فأصله المطابقة والموافقة، لهذا كانت أوجهه تدور على المعنى

الأصليّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]؛ أي صاحب الحكم والأحكام، الذي لا يزال ولا يزول، ويقال في الاعتقاد المطابق لِما هو عليه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. ويقال للفعل والقول الموافق لِمَا يجب أن يكون عليه. ﴿وَلَٰكِنَّ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]؛ وقوله تعالىٰ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] فإحقاق الحقّ علىٰ ضربين: إظهار الأدلّة والآيات، وإكمال الشريعة.

٨- مفهوم اليقين:

(ي ق ن) زوال الشكّ، يقال: يَقِنْت واستَيْقَنْت وأيْقَنتُ: علمتُ وتحقّقتُ. وربما عبّروا عن الظنّ باليقين، وعن اليقين بالظنّ. وقد ورد لفظ اليقين في (٢٨) موضعاً علىٰ أربعة وجوه، هي: الصّدق ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ومثلها ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. والموت: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] والعيان: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]. والعلم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

فاليقين في القرآن هو ما أَلِفت العربيّة أنْ تعبّر به عن التحقّق وإزالة الشكّ، والإدراك الواثق الذي لا يلتبس بِوَهْمٍ أو ظنٍّ أو تخمينٍ أو ارتياب. ولا يوصف الله تعالىٰ بأنه يتيقن، لأنّ اليقين هو العلم بالشيء بعد الشك فيه؛ وذلك بعد أن تكثر الدلائل، وتتوافق فتصير سبباً لحصول اليقين، علىٰ سبيل الثقة. واليقين فوق المعرفة والدراية، يقال: "علم اليقين" ولا يقال: "معرفة اليقين" ويقال: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين، وبينها فروق.

والتصديق والصّدق إنّما يقع للشخص المتيقّن، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وهنا قدم الهدهد لكلامه بعلامات الصّدق وتمام المعرفة، مصدراً ونقلاً؛ فصدَّر كلامه بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، فالخبر الذي أحضره الهدهد كان شاملاً لجوانبه كلّها؛ حتى وصف نقله بـ"الإحاطة". ثمّ وصف علمه بـ"النبأ" وهو الخبر خطير الشأن؛ أي إعلام بخبر مهم، كالإنذار وهو إعلام بِشَرٍ وخطر محدق. فالنبأ هو الخبر المتنقّل من مكان إلى آخر. ثمّ وَصَف النبأ بـ"اليقين" أي الصادق، وذاك كله ليثبت صدقه ويقدّم عذر غيابه.

وفي قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، إنّما حكموا تخميناً ووهماً، فاليقين هو العلم الذي لا شكّ فيه، أو اعتقاد الشيء أنه كذا مع اعتقاد عدم خلاف ذلك، أو هو مطابقة الواقع وغير ممكن للزوال. واليقين بمعنى المعاينة والمباشرة، كما في ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ إلى ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧].

٩- مفهوم الكذب:

(ك ذ ب) أصل صحيح يدلُّ على خلاف الصّدق، وكَذَّبه نسبه إلى الكَذِب، وله مشتقات، يقال: كَذَبَت العين: خانها حِسُها وكَذَب الرأي: توهم الأمر بخلاف ما هو به. وكَذَبَتْهُ نَفْسُه: مَنَّتْه بغير الحقّ. ويأتي بمعنى الخطأ لأنه يشبهه في عدم الصواب. وإن افترقا من حيث النيّة والقصد.

ورد لفظ الكذب في القرآن الكريم في (٢٥١) موضعاً، على ستة أوجه، هي: النفاق: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، والقذف:

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[النور: ٧]. والرد: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]؛ والجحود: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]. والتكذيب: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾[ق: ٥]. والافتراء: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[الزمر: ٦٠].

فالكذب هو إخبار بما لا يطابق الواقع، ويكون متعلقاً بالقول، وجاء في القرآن الكريم وصف النفاق بالكذب، فكان معنىٰ الكذب واقعاً علىٰ الحال؛ فحالهم من أقوالهم وأفعالهم يخبر بخلاف ما في ضمائرهم، وعكس ما يَقِرّ في قلوبهم، فالنفاق إظهار الخير وإبطان الشر، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨]، ثمّ وصفهم تعالىٰ بالخداع، وبأنهم مرضىٰ القلوب، ثمّ ختم ذلك بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[البقرة: ١٠]، فادعاؤهم الإيمان حالاً ومقالاً كان كذباً وخلافاً لواقعهم. وجاء في آية أخرىٰ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة: ١٤]، فالكاذب علىٰ الله يقول عنه بغير علم، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

١٠ - مفهوم الإفك:

(أ ف ك) أصل واحد، يدلّ علىٰ قلب الشيء، وصَرْفِهِ عن جهته. أَفِكَ الرجل إذا كذب، والإفْك الكذب، والمُؤتفكات: مدائن قُلِبت علىٰ قوم لوط، والمأفُوك: الضعيف العقل والرأي. وقد ورد لفظ الإفك باشتقاقه في ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، علىٰ سبعة وجوه، هي: الكذب: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. والعبادة الباطلة: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وادعاء الولد لله -تعالىٰ عمّا يقولون-: ﴿أَلَآ

إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١- ١٥٢]. وقذف المحصنات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، ووصف الإفك بالبهتان ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. والصَّرْف: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]. والتقليب: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]. والسحر: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

وقد وصف الله تعالى ادعاء الشركاء له بأنه إفك وادعاء الولد، والإفك هنا قلب الحقائق الواضحة البينة، وهو أشدّ من الكذب، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فمعنى الإفك القلب والصرف عن الجهة الحقيقيّة للكلام. فوصف ذلك القلب بأنّه كذب. والبهتان هو أن يتهم الآخر بما لم يفعل في غيبته مع علمه بأنه كاذب في ما قاله، وهو من أنواع الكذب، والإفك أشدّ من الكذب، والبهتان أشدّ منه، فكلّ إفك كذب، وليس كلّ كذب إفكاً. فالإفك هو الكذب للإضرار بالغير؛ لأن الكذب قد يكون لدفع ضرر أو جلب منفعة لكنّ الإفك للإضرار بالغير؛ لذا اتهم الله تعالى في الآيات عصبةَ الإفك بسوء القصد؛ إذ إنهم يبغون إشاعة الفاحشة في المؤمنين. وقد وصف السحر بأنه إفك: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

١١- مفهوم الافتراء:

الفاء والراء والحرف المعتل، تقول: أفريتُه إذا أنت قَطَعْتَه للإفساد، وفلان يَفْرِي الفريَّ، إذا كان يأتي بالعجب، كأنه يَقْطع الشيء قطعاً عجيباً، وفرَّاه، أفراه، وفرى الكذب: اختلقه؛ والفِرْيَة: الكذب، وأَفْرَى الأديم قطعه

على جهة الإفساد؛ وفَرَاه قطعة على جهة الإصلاح.

وقد ورد لفظ الافتراء في القرآن الكريم في (٦٠) موضعاً، ومن صيغه: افتراء للكذب: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، فالافتراء غالباً لا يكون إلا للكذب، بمعنى اختلاقه مع احتمال اللفظ للكذب، لكنّ شرط العلم ناقص؛ لذا أضيف الكذب، فقد يكون بعضه ليس كذباً؛ أي عن جهل. ومنه افتراء الإثم: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. وافتراء القرآن: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧]، والأمر العظيم العجب: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. وافتراء السحر: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]. وافتراء الإفك: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]. وافتراء البهتان: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

١٢ - مفهوم البهتان:

(ب هـ ت) أصل واحد، فالبهتان: الكذب المفترى، بمعنى قال عليه ما لم يفعل، والبَهتُ: الأخذ بغتة، والانقطاع، وبَهِتَ: دهش وتحير. وأفصح منها بُهِت بالضم، وهو بمعنى أُخِذَ بالحجة، فشَحَب لونه، يقولون: ثوب باهت، ولون باهت؛ أي شاحب. وقد ورد لفظ البهتان مع اشتقاقاته في ستة مواضع، على أربعة أوجه، هي: الزنا: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾ [الممتحنة: ١٢]؛ والكذب: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦]، والمال الحرام: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٢٠]. والدهشة والخسران: ﴿فَبُهِتَ

ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالبهتان يشمل معاني الباطل والكذب والدهشة والحيرة. وكلّ بهتان افتراء، وليس كلّ افتراء بهتاناً. وعرفه البعض بأنه الكذب المفترىٰ. ووصف بأنه عظيم؛ أمّا الإفك فكان تِبْيَانه بطلب الشهادة من أربعة شهداء. كما وصف أخذ مالٍ بغير حقّ بالبهتان والإثم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٢٠]. والمباهتة إثارة الدهشة والحيرة بفعل هذا الباطل. أما قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، فقد كان سياق الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فانتقال إبراهيم عليه السلام من الحجة الأولىٰ إلىٰ الثانية وترك نُصرة الأولىٰ كان لإدراكه ضعف فهم المخاصم؛ لذا كانت الحجة الثانية محيّرة ولم يجد مجادله جواباً للرد.

١٣ - مفهوم السحر:

(س ح ر) أصول ثلاثة متباينة: الأول السَّحْر: وهو ما لَصِق بالحُلقوم والمريء من أعلىٰ البطن، والثاني السِّحْر، وهو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال هو الخديعة. والثالث السَّحَر، وهو وقت ما قبل الصبح، فالسِّحْر: كلّ ما لَطُفَ مأخذُه ودَقَّ، "إن من البيان لسِحراً، والسَاحِر العالم. وقد سَحَرَه: خدعة، وقد ورد لفظ السحر في (٦٢) موضعاً، علىٰ خمسة أوجه هي: العلم:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الزخرف: ٤٩]. والكذب: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ ﴾ [القمر: ٢]. وأخذ العين: ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦ ﴾ [الأعراف: ١١٦]. والمجنون: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ﴾ [الفرقان: ٨]. والصرف عن الحقّ: ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩ ﴾ [المؤمنون: ٨٩]. فالسحر مزاولة النفوس الخبيثة لأفعال وأحوال يترتّب عليها أمور خارقة للعادة يتعذّر معارضتها.

١٤ - مفهوم القراءة:

الأصل: "قَرَىٰ" و"قَرَأ" القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلّ على جمع واجتماع. وإذا هُمِز كان هو والأول سواء. ومنه القرآن، سمّي بذلك لجمعه الأحكام والقصص وغير ذلك، ومنه أَقْرَأَتِ المرأة، كأنها قد جمعت دمها في جوفها فلم تُرْخِه، والقِرْءِ من الأضداد فيعني الطهر والحيض. ومن الباب: قَرَأَه، قَرْءاً وقِراءَةً وقُرْءاناً، فهو قَارِئ من قَرَأَةٍ وقُرَّاء وقارِئِين، وصحيفة مَقْرُوءة ومَقْرُوَّة ومَقْرِيَّة. وقارَأَه مُقارَأة وقِراءً: دراسه، وتَقَرَّأ: تَفَقَّه، وأَقْرَأَه إياه: أبلغه، والقَرْءُ: الوقت، والحُمَّىٰ، والغائب، والبعيد، والحيض، والطهر، وقوافي الشِعر.

وقد ورد لفظ قرأ بصيغه في القرآن الكريم في حوالي (١٧) موضعاً من غير كلمة "القرآن، والقِرْءِ، والقرية"، وجاء لفظ القرآن في (٧٠) موضعاً. وجاء إطلاق لفظ "القرآن" على كلام الله تعالىٰ المخصوص المنزّل على محمّد ﷺ في (٦٨) موضعاً، وجاء في موضعين بدلالته اللغويّة بمعنىٰ القراءة في

القيامة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]. والإقراء تعليم ونَقْشٌ للمقروء في قلب نبيّه ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلىٰ: ٦]. وتقع المعرفة لمن يقرأ اطلاعاً أو حفظاً أو تذكراً، وتعتمدُ مرتبتها في العلم علىٰ إحاطة الشخص بما هو مكتوب، قراءة عامة أو بإمعان. وبنو إسرائيل هم قرأة الكتاب، وقد علِموا من قراءتهم عِلماً راسِخاً بصحة ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

والقراءة ضَمُّ الحروف والكلمات بعضها إلىٰ بعض في الترتيل. قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وقال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]. وقد حدّدت الآيات أنّ القراءة تكون للكتابة أو للمحفوظ.

١٥ - مفهوم الدراسة:

(د ر س) أصل واحد يدلّ علىٰ خفاء، فالدَّرْس الطريق الخفيّ، ودَرَسَتُ الحنطة وغيرها في سُنبلها إذا دستها، كالطريق الذي يُدْرس ويمشىٰ فيه، ومنه دَرَسْتُ القرآن وغيره، وذلك أنّ الدّارس يتتبع ما كان قرأ، كالسالك للطريق يتتبعه، والكتاب يَدْرُسُهُ دَرْساً ودِرَاسَة: قرأه. وقد ورد لفظ "درس" في القرآن الكريم ست مرات بصيغة الماضي والمضارع، وكذلك المصدر. درسْتُ العلم؛ أي: تناولت أثرَه بالحفظ، وذلك بمُداومة القراءة، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [القلم: ٣٧]؛ أي تقرءون، وكانت حجة

الدراسة أقوىٰ من حجة القراءة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦]؛ أي: عن قراءتهم، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] وقيل: اسم "إدريس" مشتق من درس، لكثرة دراسته لكتاب الله تعالىٰ.

١٦ - مفهوم التحصيل:

(ح ص ل) أصل واحد، وهو جمع الشيء، وسمّيت حوصلَة الطائر، لأنه يجمع فيها. يقال: حَصَّلت الشيء تَحْصِيلاً، وقيل: أصل التحصيل استخراج الذهب أو الفضة من الحجر أو من تراب المعدن، والحاصل من كلّ شيء: ما بقي وثبت وذهب ما سواه، وتحَصَّلَ: تجمّع وثَبَتَ، وتحصيلُ الكلام ردّه إلىٰ محصوله؛ أي إلىٰ بقيته. وقد ورد التحصيل في القرآن الكريم مرة واحدة، بصيغة المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠]؛ أي مُيِّز، إيذاناً بكشف المستور وإظهار المطويّ المضمر؛ وقد انتقلت دَلالته من مجرّد الجمع إلىٰ حِفظ العلوم وتلقيها حتىٰ استعمل تخصيصاً من غير قرينة لفظيّة.

١٧ - مفهوم الإحصاء:

الحاء والصاد والحرف المعتل، ثلاثة أصول: الأول الحصو؛ وهو المنع، والثاني العَدُّ والإحاطة، من أحصيت الشيء، إذا عَدَدْته وأطقْته، والثالث شيء من أجزاء الأرض، وهو الحصىٰ المعروف، يقال: أرض مَحْصَاة، إذا كانت ذات حصىٰ، وأحصَاه: عَدَّه أو حفظه، أو عقله.

ورد لفظ الإحصاء باشتقاقاته في أحد عشر موضعاً، على أربعة وجوه، هي: القدرة والطاقة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والعدد: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]. والكتاب: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، ومنه الحفظ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. فمعنى الإحصاء العدُّ والحصر والضبط والإحاطة والحفظ والكتابة، وكلّها تحتفظ بالدَّلالة اللغويّة التي نلحظ فيها معنى الاستقصاء والاشتمال للأشياء التي نحن بصددها. يقال: أحصيتُ كذا، وذلك من لفظ الحصا، من حيث إنهم كانوا يعتمدونه بالعَدّ، قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجنّ: ٢٨].

١٨ - مفهوم التقدير:

(ق د ر) أصل واحد يدلّ على مبلغ الشيء وكُنهه ونهايته، وقَدَرتُ الشيء أَقْدِرُه وأَقْدُرُه من التقدير، وَالقَدَر هو قضاء الله تعالى، وقُدْرَة الله تعالى على خليقته: إيتاؤهم بالمبلغ الذي يشاؤه ويريده، والتقدير تدبير الأمر وقياس الشيء بالشيء، والتفكيرُ في تسوية أمر، والتهيئة والتوقيت.

وقد ورد اللفظ بصيغ عدّة في (١٤٦) موضعاً، على ستة أوجه، منها: العظمة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] والقتر: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، والقوّة: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ [البلد: ٥]، والتصوير: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣] يعني في الأرحام. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢١، ٢٢]. وجَعَل: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ

لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]؛ وعلم: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ والتقدير: التدبير المحكم؛ قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]؛ والتقدير في حقنا يرجع إلى الظنّ والحسبان، وفي حقه سبحانه هو العلم به والإخبار عنه؛ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]. فالقَدْرُ والتقدير تبْيِينُ كَمِّية الشيء، يقال: قَدَرْتُه وقَدَّرْتُه وقَدّره بالتشديد، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

١٩- مفهوم البحث:

(ب ح ث) أصل واحد، يدلّ على إثارة الشيء. والبَحْثُ طلبك شيئاً في التُراب، والبحث أن تسأل عن شيء، تقول: استَبْحِث عن هذا الأمر، وبَحَثْتُ عن فلان بَحْثاً. والبَحْثُ لا يكون إلا باليد، وبالرِّجل: الفحص، يقال: بَحَث عن الخبر؛ أي طلب عِلْمَه، وتَبَحَّثَ: أي فَتَشَ. والبَحثُ: بذل الجهد في موضوع ما، ثمّ خصّصت دَلالة البحث بالكشف والتقصّي في العلوم؛ لأنّ البحث يظهر الخفيّ ويبدّد المستتر، وللبحث أجزاء ثلاثة مرتبة بعضها على بعض، هي: المبادئ، والأواسط، والمقاطع، وهي المقدمات التي تنتهي الأدلّة إليها من الضرورات والمسلمات، مثل الدّور والتسلل. وسورة براءة تسمّى "البُحُوث"؛ لأنها بحثت عن المنافقين وأسرارهم.

٢٠- مفهوم الكشف:

(ك ش ف) أصل صحيح يدلّ على سَرْوِ الشيء عن الشيء، كالثوب يُسْرى عن البدن. والكَشَف: دائرة في قُصَاص النّاصية، كأنّ بعض ذلك

الشَّعْرِ ينكشف عن مَنْبِته. يقال: تكشَّفَ البرق إذا ظهر وملأ السماء، والكاشِفَة: الإظهار. وقد ورد لفظ الكشف في القرآن الكريم في عشرين موضعاً، قال تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]. فالكشف: رفع الشيء عمّا يُواريه ويغطيه، ومنه الكاشفة، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٨]. بمعنىٰ الانكشاف، وتنكشف بإقامة الله تعالىٰ إياها، ويقال عن زوال الغم انكشافه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

٢١- مفهوم النقيب:

(ن ق ب) أصل صحيح يدلُّ علىٰ فتحٍ في شيء، ونَقَب الحائط ينقُبُه نَقْباً. ونَقَبُوا في البلاد: ساروا في النُّقُوب؛ أي الطريق، طلباً للنجاة. والنقيب: المزمار، والنّقيبة: النفس، والعقل، والمشورة، ونفاذ الرأي، والطبيعة، والعظيمة الضرع من النوق. ونَقَّب عن الأخبار: بحث عنها، أو أخبر بها.

ورد لفظ نقب بصيغه في ثلاثة مواضع علىٰ ثلاثة أوجه، هي: الأمين والكفيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]. والطواف: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: ٣٦]. والخرق: ﴿وَمَا ٱسْطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧]. فالنقيب هو الذي ينقّب عن أحوال القوم، وجاء من مادته الفعل "نَقَّبُوا" في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: ٣٦]؛ أي بحثوا وطافوا بالبلاد، ورأوا فيها من الآثار. فأصل اللفظ من الحفر، ثمّ نقلت الدَّلالة إلىٰ البحث، فسمّي العالم بالنقاب، وكلّ رجل فطن ذكيّ الفهم

هو نقاب، والنقيب دون العريف الذي يعرف دخيلة القوم ومناقبهم، ولأن النقب يكون للوصول إلى الجوف سمّيت النفس النقيبة والعقل والمشورة؛ لأنها كلها تبحث في قلب الشيء ولبّه.

٢٢- مفهوم البعثرة:

العين زائدة وإنما هو في الباء والثاء والراء، وهي بمعنى نظر وفتش. وبعثر الشيء: فرَّقَه وبَدَّده، وقلب بعضه على بعض، واستخرجه فكشفه وأثار ما فيه، والبَعْثَرة غثيان النفس، وهي لم ترد في القرآن إلا في موضعين: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار: ٤] وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات: ٩]، فالبعثرة هنا ليست مجرد أصل لغويّ للإثارة والإخراج، ولكن فيه دَلالة على معنى الانتقال السريع من بعثرة ما في القبور إلى الحساب العسير المحصّل لِما في الصدور وتعلم به كلّ نفس وجاء الفعل في الآيتين مبنيّاً للمجهول صرفاً للذهن إلى الحدث نفسه. وهنا نكتة حيث ورد في الآية لفظ "ما" ولم يقل "مَنْ" في القبور، وذلك أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب، أو يُقال: إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل بعد البَعْث يصيرون كذلك، وهو الأصل اللغويّ للبعثرة.

٢٣- مفهوم الكتابة:

(ك ت ب) أصل صحيح واحد يدلّ على جمع شيء إلى شيء، يقال: كَتَبْتُ الكِتَابَ أَكْتُبُه كَتْباً. والكِتَابُ هو الفرض، وكَتَبَه كَتْباً وكِتاباً: وهو ما يكتب فيه. وقد ورد في القرآن الكريم (٣١٩) موضعاً، على خمسة وجوه،

هي: الفرض: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والقضاء: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، والجعل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. والأمر: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]. والكتابة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩].

والكتابة في المعرفة هي ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخط، والأصل فيها النَّظْمُ بالخط، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ الله تعالى كتاباً، وإن لم يُكتب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ويُعَبَّرُ عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة.

ووجه ذلك أنّ الشيء يُرادُ، ثمّ يقال، ثمّ يُكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى. قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ أي: جمع في قلوبهم حتى آمنوا بما يجب عليهم، ومنه أطلق على اسم الكلام المجموع في صك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وأطلق عرفاً على كتاب الله تعالى المُنزّل على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والقرآن، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]. وللكتاب وجوه أخرى تتجاوز الدلالة اللغويّة، منها الحساب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]، ومثله ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. ففيه إشارة إلى أنّ أعمالهم أُثبتت في كتاب، وضمّ بعضها إلى بعض ليُحاسب الإنسان على كلّ ما كسب.

وسمّي القرآن الكريم بالكتاب ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصّلت: ٣]. وكذا سمّي التوراة والإنجيل كتاباً ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]؛ وسمّي الأجل كتاباً؛ لأنه مكتوب محدد ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر: ٤]، وعدّة المرأة ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. والفرض المكتوب على الناس ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. فالكتاب عَلَم لطائفة من الألفاظ دالّة على مسائل مخصوصة من جنسها، تحتها في الغالب إمّا أبواب دالّة على أنواع منها، أو فصول دالّة على الأصناف، وإمّا غيرها، وقد يستعمل كلّ من الأبواب والفصول مكان الآخر، والكلّ عَلَم جنس، ولو كان المراد بيان الأنواع يُختار الكتاب على الباب. وقد يطلق الكتاب على الإملاء. وعلى الإنشاء، وشاع استعمال الكتاب في الحروف والكلمات المجموعة إمّا في اللفظ، وإمّا في الخط بجعل المصدر بمعنى المفعول، وشاع استعمال الكتابة بمعنى تصوير اللفظ بحروف هجائية؛ لأن فيها جمع الحروف وأشكالها.

٢٤- مفهوم الزُبُر:

(ز ب ر) أصلان: أحدهما يدلُّ على إحكام الشيء وتوثيقه، يقال: زَبَرْت البِئر، إذا طويتها بالحجارة، ومنه زُبْرَة الحديد، والجمع زُبَر. والبئر المَزْبُورَة، ومنه الزّبير وهي الداهية، وما لفلان زَبْرٌ: أي ما له عقل ولا تماسك. والأصل الآخر: على القراءة والكتابة، زَبَرْتُ الكتاب، إذا كتبته، ومنه الزَّبور. وفي القاموس: الزَّبْرُ: القويّ الشديد، والمِزْبَرُ القلم، والزَّبُور

الكتاب بمعنىٰ المَزْبُور؛ أي المكتوب.

ورد لفظ الزبر باشتقاقاته في تسعة مواضع علىٰ خمسة أوجه، هي: الكتب: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]، والكتاب المنزّل علىٰ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]. واللوح المحفوظ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]. والقِطَع: الزُّبَر في قوله تعالىٰ: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]. وحديث الأولين: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٤]. فالزَّبْرُ الكتابة الغليظة، والزَّبُور الكتاب المسطور، وقيل: الزبور كتاب الله الذي يخلو من الأحكام الشرعيّة، ويقتصر علىٰ الحكمة العقليّة، قال تعالىٰ: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]، واجتماع لفظ الزبر مع الكتاب المنير دلّ علىٰ تفاوت بينهما، وقيل: الزَّبور بمعنىٰ المزبور؛ أي المكتوب، والزُّبْرَة: القطعة العظيمة من الحديد، واستعير للمجزأ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣]؛ أي صاروا أحزاباً.

٢٥- مفهوم السِفْر:

(س ف ر) أصل واحد، يدلّ علىٰ الانكشاف والجلاء، وسمي السَّفَر بذلك لأنّ الناس ينكشفون عن أماكنهم. والسَّفْرُ: الكتابة، لأنها تُسْفِر عمّا يُحتاج إليه من الشيء المكتوب، والسِّفْرُ الكتاب الكبير، أو جزء من أجزاء التوراة، جمعه أسفار، والسَّفَرَة: الكَتَبة، ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [عبس: ١٥].

ورد لفظ سفر باشتقاقاتها في القرآن في اثني عشر موضعاً علىٰ خمسة أوجه، هي: القرىٰ والمنازل: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]. والكتب:

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، والإشراق: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [عبس: ٣٨]. والانكشاف: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٤]. والانتقال من مكان إلى آخر: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ما يهمنا هنا هو ما يدلّ على "الكتب" وهو السِّفر، كما ورد بصيغة السَّفَرَة: الكتبة مفردها، وهم الملائكة الذين يَسْفِرُون بين الله ورسله بالوحي، السفراء بين الله وبين عباده، وسفير القوم هو الذي يسعى بينهم بالصلح، وهذه الوجوه لا اختلاف فيها، وهذه المادة لا تخرج عن أصلها اللغويّ فيما ذكرنا؛ لأن دَلالة السَّفْر والإسفار على الكشف والإبانة عن الشيء وإظهاره ملحوظة في الآيات التي مَرَّت.

٢٦- مفهوم العهد:

(ع هـ د) أصل هذا الباب عندنا دال على معنى واحد. عهد الرجل يعهد عهداً، وهو من الوصيّة، لأنّ العهد مما ينبغي الاحتفاظ به، وجمعه عهود، والعهد هو المنزل الذي لا يزال القوم يرجعون إليه. والمعهد مثل ذلك، وجمعه معاهد. ومن ذلك المعاهدة والتعاهد والتعهد وهو ما يحتفظ به لهم. والعهدة: الكتاب الذي يستوثق به في البيعات، ومن معاني العهد: رعاية الحرمة، الأمان، الذمة، الالتقاء، والمعرفة. والعهدة: الضعف في الخط وفي العقل. ويقال: عهدته على فلان؛ أي ما أدرك فيه من درك فإصلاحه عليه، والمعهود هو الذي عهد به وعرف.

ورد لفظ العهد بصيغة واشتقاقاته في ستة وأربعين موضعاً على ثمانية أوجه، هي: الاستحفاظ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾

[يس: ٦٠] والنبوّة: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ أي بما أعلمك من النبوة، والوصيّة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]. واليمين: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨]، [المعارج: ٣٢]. ورعاية الحرمة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١]. والميثاق: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] والضمان: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠]، والنذرة والإلزام: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]. فالعهد ورد في القرآن بمعنى الأمان واليمين والموثق والذمّة والحفاظ والوصيّة، والمعرفة فيه تقع على سبيل الوصية، فالعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال.

٢٧- مفهوم الكلام:

(ك ل م) أصلان: أحدهما يدل على نطق مُفهم، والآخر على جراح. فالأول: الكَلام. تقول: كَلَّمْتُه، أكَلِّمُه تَكْلِيماً، ثمّ يتوسعون ويجعلون اللفظة الواحدة المفهمة كَلِمَة. والقصّة والقصيدة بطولها كلمة، ويجمعونها كلمات وكَلِيماً. والآخر: الكَلْم، وهو الجُرْح، والكِلام: الجراحات، جمعه كُلُوم. والكُلام: الأرض الغليظة، والكَلام: هو القول أو ما كان مكتفياً بنفسه.

ورد لفظ كلم بصيغه (٧٥) مرّة في القرآن الكريم بصيغة الفعل بتصاريفه، وبصيغة اسم المصدر، الكَلْمُ التأثير المُدْرَك بإحدى الحاستين، الكلام مُدْرك بحاسة السَّمع، والكَلْمُ مدرك بحاسة البصر، وقد ورد في

القرآن الكريم على خمسة أوجه، هي: كلام الله العام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ [البقرة: ٧٥]. ومنها القرآن الكريم: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] وكلام الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩]. وكلام المخلوقين: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: ٢٩]. وكلام الموتى مما لا يسمعه بنو آدم: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].فالكلام يقع على الألفاظ المنظومة، كما في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥]، وفي ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]، قيل: هي ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ وفي قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قيل: الأشياء التي امتحن الله إبراهيم بها من ذبح ولده والختان وغيرها.

وعيسى هو كلمة الله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، لكونه موجوداً "بكُنْ"، وقيل: سُمِّيَ به لما خَصَّه الله تعالى به في صغره؛ حيث قال وهو في مهده ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: ٣٠].

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] جمع الكلمة، وقيل: إنهم كانوا يبدّلون الألفاظ ويغيِّرونها، وقيل: إنه كان من جهة المعنى؛ وهو جمل على غير ما قصد به واقتضاه، وهذا أمثل القولين، فإنّ اللفظ إذا تداولته الألسنة واشتهر يصعب تبديله. ولفظ "كلمة" لا يوجد في لغة

العرب إلا اسماً لجملة تامّة، اسميّة أم فعليّة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥]، ومثل هذا كثير في كلام العرب، أمّا تسمية الاسم وحده "كلمة"، والفعل وحده كلمة، والحرف كلمة، فهذا اصطلاح محض لبعض النحاة وليس هذا من لغة العرب أصلاً، وإنما تسمّي العرب هذه المفردات "حروفاً" والكلم عُرفاً هو ما خرج من الفم، إن لم يشمل على حرف فهو صوت، وإن اشتمل ولم يفد معنى فهو لفظ، وإن أفاد معنى فقول، فإن كان مفرداً فكلمة، أو مركباً من اثنين ولم يُفد نسبة مقصودة فجملة، أو أفاد ذلك فكلام، أو من ثلاثة فكَلِم. والكلام كلّ كلام مستقل إنْ زدت عليه شيئاً غير معقود بغيره ولا مقتضى لسواه، وكلام النفس ما يحصل في النفس من حيث يدلّ عليه بعبارة أو إشارة أو كتابة، سواء كان: علماً، أو إرادة، أو إذعاناً، أو خبراً، أو استخباراً، أو غير ذلك.

٢٨- مفهوم القول:

(ق و ل) أصل واحد صحيح، يقالُ كلَّمه، وهو القول، من النُّطق، قال يقول قولاً، وهو الكلام أو كل لفظ مَذَلَ به اللسان تامّاً أو ناقصاً. وجمعه أقوال، وجمع الجمع أقاويل. والقول في الخير والشرّ، والقيل والقال والقالة في الشرّ. فهو قَائِل وقَالٌ وقَوُول. ويأتي بمعنى: تَكَلَّم، وضرب، وغَلَبَ، ومات، ومال، واستراح، وأقبل. ويُعَبَّرُ بها عن التهيؤ للأفعال والاستعداد لها. يقال: قال فأكل، وقال فتكلم، ونحوه. والقال: الابتداء، والقيل: الجواب. وتَقَوَّل عليه: كذب عليه، وقَاوَلَه في أمره وتَقَاوَلاَ: تفاوضا. وقد ورد لفظ قول باشتقاقاته وصيغه في (١٧٢٢) موضعاً في القرآن الكريم، لم

نجد لها وجوهاً في مظانها. والقول يستعمل على أوجه أظهرها: أن يكون للمركب من الحروف المُبْرَز بالنُّطق مفرداً كان أو جملة، وهذا في القرآن كثير. ويقال للمُتَصوَّر في النفس: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٨]. والكذب: وهو التقوّل والأقاويل ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤﴾ [الحاقّة: ٤٤]. والقول قد يخالف الاعتقاد والفعل، ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

٢٩- مفهوم النطق:

(ن ط ق) أصلان صحيحان: أحدهما كلام أو ما أشبهه، والآخر جنس من اللباس، الأول: المنطق، نَطَق ينَطِق نُطْقا، والآخر: النّطاق: إزار فيه تِكَّة. ونطق نُطُوقاً: تكلم بصوت وحروف تُعرف بها المعاني. وقد ورد لفظ النطق اثنتي عشرة مرّة، على وجهين: الأصوات الصادرة عن اللسان: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصافات: ٩٢]. والمكتوب: ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۖ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: ٦٢]. فالنطق هو تعرّف الأصوات المقطّعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان، ولا يكاد يقال إلا للإنسان، فيُراد بالناطق ما له صوت، وبالصامت ما ليس له صوت، ولا يقال للحيوان ناطقاً إلا مقيداً، وعلى طريق التشبيه، أمّا في الآية ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: ١٦]، سمّى الله تعالى أصوات الطير نطقاً اعتباراً بسليمان؛ حيث كان يفقه ما تقول كما كان مع الهدهد، وهذا له وحده. فمن فهم من شيء معنى فذلك الشيء بالإضافة إليه ناطق، وإن كان صامتاً، وبالإضافة إلى من لا يفهم عنه صامت، وإن كان ناطقاً، وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ فإنّ الكتاب ناطق، لكن نطقه

تدركه العين، كما أنّ الكلام كتاب، لكن يدركه السمع، فالكتاب يشهد على الناس، فيتذكروا ما عملوا. فالمكتوب شهادة له أو عليه، ناطقة بما وقع سلفاً. فالنطق كلّ لفظ يعبّر به عمّا في الضمير مفرداً كان أم مركّباً، وقد يطلق لكلّ ما يصوت به على التشبيه أو التتبع.

٣٠- مفهوم اللسان:

(ل س ن) أصل صحيح واحد، يدلّ على طول لطيفٍ غير بائن في عضو أو غيره. من ذلك اللسان معروف، والجمع أَلْسُنْ، فإذا كثر فهي الألسنة. وقد ورد لفظ اللسان أربعاً وعشرين مرّة في القرآن الكريم على أربعة أوجه، هي: اللغة: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. والدعاء: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. والجارحة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] والثناء: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤]. وأصل اللسان الجارحة وقوتها ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ [طه: ٢٧] فالعقدة لم تكن في الجارحة، وإنما كانت في قوَّته التي هي النطق به، ولكلّ قوم لسان؛ أي لغة، ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، إشارة إلى اختلاف اللغات والنغمات، فلكلّ إنسان نغمة ونبرة خاصّة به يميّزها من يسمعه، والمراد هنا القوّة النطقيّة القائمة بالجارحة لا الجارحة نفسها. وقد وصف اللسان في القرآن بصفات، منها: الصدق ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [مريم: ٥٠]، والبيان ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، والفصاحة ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى

لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، والحدّة ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، والكذب ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦]، واللَّي ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

٣١- مفهوم البكم:

(ب ك م) أصل واحد وهو الخرس. قال الخليل: الأَبْكَمُ الأخرس الذي لا يتكّلم، وإذا امتنع من الكلام جهلاً أو تعمّداً يقال: بَكُمَ عن الكلام. ويقال للذي لا يُفصح، والأبكم في التفسير الذي ولد أخرس. والبَكَمُ قد يكون مع عِيٍّ وبَلَه، أو أن يولد لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر.

ورد لفظ البكم في القرآن الكريم ست مرات، جُمع فيها مع الصمم، كقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨] و﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١] والبكم هنا ليس تعطّل عن الكلام أصلاً، إنما هو تعطّل عن الكلام الحقّ، وهذا التعطيل ليس للعلّة، إنّما للغاية من خلق القدرة على الكلام، أمّا الجمع بين الصم والبكم فهو للدلالة على تعطل العقل عن دوره في إدراك الحقّ أو تبليغه، فكلّ ما في القرآن من ذكر البكم المراد الخرس عن الكلام بالإيمان إلا ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٦].

٣٢- مفهوم الحديث:

(ح د ث) أصل واحد، وهو حدوث الشيء وكونه بعد أن لم يكن، ومنه الكلام يحدث منه الشيء بعد الشيء. ورجل حدِث حسن الحديث، والحديث: الجديد، والحديث: يأتي على القليل والكثير. والحديث هو ما ورد عن النبي الكريم ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

ورد لفظ حدث باشتقاقاته في (٣٦) موضعاً على خمسة أوجه، هي: الخبر: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٧٦]، والقول: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، والقرآن: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [الطور: ٣٤]، والقصص: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ [الزمر: ٢٣]. والعبرة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]. فالحديث هو الخبر والقول، وكلّ ما يَبْلُغ الإنسان من جهة السَّمْع والوحي في يقظته أو منامه، وأُطلق على القرآن والقصة والعِبْرة وتعبير الرؤيا. والتحديث إخبارٌ عمّا يُعْرَف سواء كانت المعرفة حسيّة أم معنويّة، ولا يكون الحديث إلا عن سابق علم أو معرفة. ومنه: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ [التحريم: ٣]، ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ وسمّي القرآن حديثاً ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩﴾ [النجم: ٥٩]، وقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]. أمّا قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]؛ أي أخباراً يُتَحَدَّثُ بها ويتمثل بهم ليعتبر السامع.

٣٣- مفهوم الخبر:

(خ ب ر) أصلان: الأول العلم بالشيء، تقول: لي بفلان خِبْرَة وخُبْرٌ، والله تعالى الخبير؛ أي العالم بكلّ شيء. والثاني: يدلّ على لين ورخاوة وغُزْر.

والخَبْراء، هي الأرض الليّنة. والخبير: الأكار، لأنه يصْلِح الأرض ويُدَمِّثُها ويليّنها، وعلى هذا يجري هذا البابُ كلُّه، ويقال رجل خَابِرٌ وخَبِير وخَبِرٌ: عالم به. والخِبْرُ والخِبْرَة والمَخْبَرَةُ والمَخْبُرَةُ العلم بالشيء، والاستِخْبَار السؤال عن الخبر وكذا التَخَبُّر.

وقد ورد لفظ الخبر بصيغه في القرآن الكريم (٥٢) موضعاً، على صيغة المفرد والجمع، وكلّها تدلّ على العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، فجاء مفرداً في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧] وقوله: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]. وجاء بالجمع في ثلاثة مواضع: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمّد: ٤٧]، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: ٤]، كما ورد بصيغة خُبْر -بالضمّ- وهو العلم بالشيء مع بيانه، وقيل معرفة بواطن الأمور، وجاء اللفظ في الكهف في موضعين ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨]. ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف: ٩١].

وجاء بصيغة الخبير في القرآن الكريم في (٤٥) موضعاً، وهو من أسماء الله تعالى، العالم بما كان، وبما يكون، العالم ببواطن الأمور، ولم يأت لفظه في القرآن إلا مسنداً إلى الله تعالى، أو اسماً من أسمائه الحسنى، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقرن اللفظ بالحكمة ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، وباللطيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]، وبالعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، والبصير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٣١]. والخبر أعمّ من النبأ، وخبرت الأمر: عرفت حقيقته.

والتخبر والاستخبار، ويتّضح معنىٰ الخبير من قولهم "علىٰ الخبير سقطت"، وأبلغ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]. حيث حصر معرفِة النبأ بالخبير به، ذلك أنّ الخبرة معرفة يُتوصّل إليها بطريق التجربة، فكأن غزارة المعرفة مأخوذة من ناقة خَبِرة: إذا كانت غزيرة اللبن.

٣٤- مفهوم البلاغ:

(ب ل غ) أصل واحد وهو الوصول إلىٰ الشيء، والبلاغ: الكفاية، والإبلاغ والتبليغ هما: الايصال. والبلاغات: الوثنيات، والتبليغ مثل الإبلاغ، غير أنه يلاحظ فيه الكثرة في المبلَّغ.

ورد لفظ بلغ باشتقاقاته في سبعة وسبعين موضعاً، في خمسة وعشرين موضعاً منها، أفادت إيصال المعرفة بصيغ، منها: بَلَّغْتَ، وأبلغكم، يبلغون، بلاغ. فالبلاغ وصول الأمر زماناً كان أم مكاناً، حسيّاً أم معنويّاً. ويقال: بَلَّغْتُه الخبر تبليغاً، وأبلغته، بمعنىٰ أوصلته إليه، وكلّ ما جاء في القرآن مُعَدَّىٰ بالهمزِ والتضعيف فهو بهذا المعنىٰ. وهو علىٰ وجوه، ورد منها عشر مرات في تبليغ الرسالة الإلهيّة، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومنه الكفاية: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، وإيصال الشخص إلىٰ مكان: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، والتبليغ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وغالب ما ورد مع البلاغ هو وصفه بالمبين؛ لأن الإبانة والتبيين حجةٌ علىٰ المُبَلَّغ. وقد انصرف مدلول البلاغ إلىٰ معنىٰ الكفاية في غير تلك المواضع، وهو لا يخالف أصله الدالّ علىٰ الانتهاء إلىٰ أقصىٰ المقصد، والمنتهىٰ مكاناً كان أم زماناً، فمن الانتهاء ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ

حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]. والبلاغ بمعنى التبليغ في نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. والبلاغ بمعنى الكفاية نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، ويقال: بلغته الخبر، وأبلغتُهُ مثله، وبلّغتُه أكثر.

٣٥- مفهوم البُشرى:

من بَشَر، (ب ش ر) أصل واحد: ظهور الشيء مع حُسنٍ وجمالٍ، يقال: بَشَّرْتُ فلاناً أُبَشِّرُه تبشيراً، وذلك يكون بالخير. وربما حُمِل عليه غيرُه من الشر، وأظنّ ذلك جنساً من التَّبكيت. وإذا أُطلِق فالبشارة بالخير، والنذارة بغيره، والتبَاشير والبُشْرى، أوائل كلّ شيء، والبواكر من النخل. وما يَسُرُّ. وقد ورد لفظ بشر باشتقاقاته في مائة وثلاثة وعشرين موضعاً، على خمسة أوجه: الخبر السار: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: ٥٤]، ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥]، والجماع: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] والغيث: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]؛ والمُبلغ بالخير: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]. والناس: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وقد عُبِّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور الشَعَر على جلده، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر. واستوى في لفظ البَشَر الواحد والجمع، والمباشرة الإفضاء بالبشرتين، وكني بها عن الجماع، وأَبْشَرت الرجل وبَشَّرْتُه أخبرتُه بسارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وجهه، ذلك أنّ النفس إذا سُرَّت

انتشَرَ الدَّم فيها انتشار الماء في الشجر. ويُقال للخبر السَّار البِشَارَة والبُشْرىٰ. أمّا قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١]، فاستعارة ذلك تنبيه للكافرين والمنافقين علىٰ أنَّ أَسرَّ ما يسمعونه الخبر بما ينالهم من العذاب و﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٥٩].

٣٦- مفهوم النصح:

(ن ص ح) أصلٌ يدلّ علىٰ ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما. أصل ذلك النَّاصِح: الخياط، والنَّصَاح: الخيط يُخاط به، ومنه النُّصْحُ والنَّصِيحَة: خلاف الغِش ونَصَحْتُه أَنْصَحُه. والتوبة النَّصوح كأنها صحيحة ليس فيها خَرْق ولا تُلْمَّة، ويقال أَنْصَحْتُ الإبل، إذا أرويتها فَنَصَحَت؛ أي رويت، ويقال: نَصَحَه، نُصْحاً، نَصاحَةً، وهو ناصِح، نَصِيح من نُصَّح، نُصَّاح، والاسم: النَّصيحة، ونصح تأتي بمعنىٰ: خَلُصَ، وخاط، ورَوِيَ، ولم يَغُش. والنَّصِيحُ هو النَّاصِح، والقوم نُصحاء، ورجل ناصح الجيب؛ أي نقي القلب، فالنُّصح هو الخُلوص والصدق والإتقان والنسج والنَّاصِح الواعظ والخياط.

ورد لفظ نصح باشتقاقاته وصيغه في (١٣) موضعاً في القرآن الكريم ولم تخرج عن دلالتها اللغوية، وهي علىٰ وجهين: الواعظ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩]. الخلوص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]؛ أي خالصة صادقة. فلم ترد بمعناها الأصليّ، بل جاءت الأوجه بالحقيقة المتعارف عليها، وهي النصيحة بمعنىٰ التنبيه والتذكير برفق، فهي كالإنذار، ويكون النصح بالإرشاد، ولا يكون إلا في الخير المراد للمنصوح،

بأن يُنبَّه إليه من غير إحراج ولا تشهير مع ذكر الحجج والبراهين على صدق الناصح وخير النصيحة. فالنصيحة كلمة جامعة لحيازة الحظ المنصوح له. ببذل المودة في المشورة.

٣٧- مفهوم القصص:

من قَصَّ، (ق ص) أصلٌ صحيح يدلّ على تتبّع الشيء من ذلك قولهم اقتصَصْت الأثر إذا تتبَّعتُه، ومن ذلك اشتقاق القِصَاص في الجراح وذلك أنه يُفعَل به مثل فعله بالأول، فكأنه اقتصَّ أثره، ومن الباب القِصَّة والقصص كلّ ذلك يُتَتَّبع، وقص الخبر: أعلمه، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ورد لفظ قصّ بصيغه في ثلاثين موضعاً، على سبعة أوجه، هي: التسمية: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. والقراءة: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]. والبيان: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]. والطلب: تتبع الأثر ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: ٦٤]. والخبر: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥]. والوحي: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩]. وحدّ القتل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فالقصص هي الأخبار المتتابعة؛ وقد بيّن الله تعالى شروطها كي تكون مصدراً للمعرفة، كأن تكون عن علم، وأن تكون بالحقّ والحسنى، وتكون الغاية منها العبرة وتثبيت الفؤاد، فقال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٧]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣٨- مفهوم الجلو:

الجيم واللام والحرف المعتل أصل واحد، وقياس مطرد، وهو انكشاف الشيء وبروزه، يقال: جَلَوْت العروس جَلْوَةً وجَلاء. وقال الكسائيّ: السماء جَلْوَاء؛ أي صحوة. ومن الباب: جَلا القوم عن منازلهم جَلاء وأجْلَيْتُهُم إِجْلاء، ويقال: جلا السيف: صقله، والهمّ عنه: أذهبه، والأمر: كشفه.

ورد لفظ الجلاء باشتقاقاته في خمسة مواضع على وجهين: الظهور والانكشاف: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ [الشمس: ٣]، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ومغادرة الديار: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [الحشر: ٣]. فالجلاء هو الوضوح والشهرة، وأمرٌ جليٌّ أمر بيِّن، وخبر يقين. وجاء من مادّته في القرآن الكريم ما يُناسب المدلول المعجميّ تماماً في إشراق النهار وتجلّي النور الإلهيّ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٣٩- مفهوم الإنذار:

(ن ذ ر) من نذر، كلمة تدلّ على تخويف أو تخوُّف، والإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلا في التخويف، أَنْذَرَه بالأمر إنْذَاراً ونَذْراً ونذِيراً: أعلمه وحذره وخوّفه، والنَّذير: الإنذار.

ورد لفظ "نذر" باشتقاقاته في مائة وثلاثين موضعاً، على خمسة أوجه، هي: التحذير: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ

وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصّلت: ١٣]. والخبر: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]. والرسل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ [القمر: ٢٣]. والشيب: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]. والنَّذْرُ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. فالرسل منذرين ومحذّرين، بإخبار قومهم بوعد الله تعالىٰ لهم ووعيده، ولا يكون المعلِّم منذراً حتىٰ يحذِّر بإعلامه، فكلّ منذر معلمٌ، وليس كلّ معلم منذر. والإنذار يستلزم إظهاراً لِما يُنْذَرُ به ليكون الإبلاغ حُجَّة مُقنِعَة، وهو الإعلام بالشيء قبل وَقْتِه، والتخويف منه، كما أنّ التبشير إخبارٌ فيه سرور.

٤٠ - مفهوم التحذير:

(ح ذ ر) من حذر، أصلٌ واحد. وهو التحرُّز والتيقُّظ، يقال: حَذِر يَحْذَر حِذْراً، ورجلٌ حَذِرٌ، وحَذُور، وحِذْريان: متيقظ متحرِّز، وحَذِرُون وحَذَارىٰ؛ أي متيقظ شديد الحذر. وقد ورد لفظ حذر باشتقاقاته في واحد وعشرين موضعاً، علىٰ ثلاثة أوجه، هي: الخوف: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. والامتناع: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١]. والكتمان: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]. فالحذر احتراز عن مخيف، كقوله تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩]، و﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]؛ أي: ما فيه الحَذَر من السلاح وغيره، فالحذر اجتناب الشيء خوفاً منه. وقيل الحِذِر: المتيقظ والحاذر: المستعد.

٤١ - مفهوم البلاء:

(ب ل و ي) أصلان: أحدهما إخلاق الشيء، والثاني نوع من الاختبار، ويحصل عليه الإخبار أيضاً. فأمّا الأول: بَلِي يَبْلَى، فهو بالٍ والبِلى مصدره، وإذا فتح فهو البلاء، أمّا الثاني: فقولهم بُلِيَ الإنسان وابتلي، من الاختبار. ويكون البلاء في الخير والشر، لأنّ به يختبر في صبره وشكره. والبلاء الغمّ، يبلي الجسم والتكليف بلاء؛ وهو منحة ومحنة.

ورد لفظ بلاء باشتقاقاته في سبعة وثلاثين موضعاً على ستة أوجه، وهي: الاختبار: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والتكليف: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمّد: ٣١]. والمحاسبة: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]. والتعرف: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]. والمحنة: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١]. والمنحة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وذلك بقوله تعالى له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فالبلاء جاء بمعنى اختبر وجرّب وامتحن، ويكون في الخير والشر، والنعمة والنقمة، فالنعمة مقتضية للشكر، والمحنة تقتضي الصبر، وكلاهما شاقّ على الإنسان، فصار كلّ منهما بلاء، وإذا قيل: ابتلاه الله بكذا، فالمراد ظهور جودته أو رداءته من غير تعرّف حاله أو الوقوف على ما يجهل منه؛ إذ إنّ الله تعالى علام الغيوب.

ثانياً: مفاهيم العلم:

١ – مفهوم العلم:

(ع ل م) أصلٌ صحيح واحد، يدلّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّز به عن غيره. ومنه العَلامَة: وهي معروفة والعَلَم: الراية. والعِلْم: نقيض الجهل وقياسه قياس العَلَم والعَلامَة، يقال رجلٌ عَالِمٌ وعَلِيمٌ، وعلماء وعُلاَّم، وعَلَّمَه العِلم تَعْلِيماً وعِلاماً. وعَلِم به: شعر به، وبالأمر: أتقنه وعرفه. وعَلَمَه: وسمه، واستعلمه الخبر فأعلمه إياه، وتَعَالَمَه الجميع؛ أي عَلِمُوه. والعلامة، وهي الدَّلالة والإشارة. والعلم من المصادر التي تجمع، والمَعْلَم الأثر يُستدلُّ به على الطريق.

ورد لفظ العلم باشتقاقاته في ثمانمئة وستة وخمسين موضعاً على ثلاثة أوجه، هي: الرؤية، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمّد: ٣١]، وهو العلم الشهادة، الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه. والثاني: الظهور على الأمر: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ١٩] فهذا العلم بعينه. والثالث: الإذن: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]. أمّا العالمين فقد جاء على خمسة أوجه، هي: الإنس، والجن، وكلّ ولد آدم، والخلقُ من بعد نوح، وأهل الكتاب، ومُجمل المخلوقات. ومدلول لفظ "العلم" في القرآن الكريم شاملٌ عام في الأغلب؛ لأنه يخصّ إدراكاً لجملة المعارف بالتأمل والنظر في الوجود والخلق، وتدبر لآيات الله في الأرض والسماء، والعليم: صفة مشتقة من العلم، والعلم إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان: أحدهما: المتعدّي إلى مفعول واحد، ومنه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]؛ أي: أدركتم ما حصل لأسلافكم من النقم التي حلّت بهم،

والثاني: المتعدّي إلى مفعولين، كقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]. والفرق بينهما أنّ المعرفة تنصرف إلى ذات المسمّى، والعلم ينصرف إلى أحواله، ولذلك جاء به الأمر في القرآن: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: ١٩].

وقد جاء الأمر بالعلم إحدى وثلاثين مرّة، وجاء من مادّة العلم الرباعيّ "علَّم" الماضي والمضارع والأمر إحدى وأربعين مرة، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]. ومصدره التعليم، والفعل "تَعَلَمَ" مصدره "التَّعَلُّم"، في قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. والتعليم يكون بمعنى التفهيم، وبمعنى إلقاء أسباب العلم، نقول: علّمته فتعلّم، وعلّمته فما تعلّم، وذلك لاختلاف المفهومين من تعلّم. والمعلِّم هو الذي يوصل المعاني إلى فهم المتعلم، ولم يرد في القرآن، بل جاء اسم المفعول "المُعلَّم" مرّة واحدة: ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: ١٤]. وجاء اسم الفاعل "عالم" موصوفاً به الله تعالى، مقترناً بلفظ الغيب في (١٣) موضعاً، نحو قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢].

٢- مفهوم الحِبَر:

(ح ب ر) أصل واحد منقاس مطرد وهو الأثر في حُسْنٍ وبهاء. يقال للذي يُكتَب به الحِبر وللذي يَكتُب حَبْرٌ، وجمعه أحبار، ويقال حَبْر وحَبْرَة وحُبْرَة وحِبر وحِبرَة وتحبير الخط والشِّعْر وغيرهما: تحسينه وسورة الأحبار هي سورة المائدة، وقيل: الحَبْر والحِبْر بالفتح والكسر العالم من أهل الكتاب، وواحد أحبار اليهود، والرجل الصالح.

جاء لفظ الأحبار في القرآن للدلالة على جمع العلماء، في أربعة مواضع، وفي موضعين في غير ذلك. وسُمّي العلماء بذلك لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس وآثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها، قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٣]؛ ومفرد الأحبار حبر، واختلف علماء اللغة في فتح الحاء وكسرها، فإذا أرجع أصله إلى المداد فهو بالكسر وهو الأفصح كما قال الجوهري. وإلى التحبير، بمعنى تحسين الكلام والعلم فهو بالفتح.

٣- مفهوم الربانيّ:

(ر بّ) يدل على أصول، فالأول إصلاح الشيء والقيام عليه. فالرّبُّ: المالك والخالق والصاحب والمصلح. يقال: رَبَّ فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها، ورَبَبْتُ الصبي أرُبُّه ورَبَّبْتُه أربِّه. والثاني: لزوم الشيء والإقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول. يقال: أرض مَرَبٌّ لا يزال بها مطر ولذلك سمي السحاب رَباباً. والثالث: ضمّ الشيء وهو مناسب لما قبله، والرَّبَّاني العارف بالله عز وجل، وقيل الربانيّ لفظة معربة عن السريانيّة أو العبرانيّة بمعنى المتأله. وربْتُ القوم سُسْتُهم؛ أي كنت فوقهم.

ورد لفظ الرباني في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]؛ أي وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين؛ أي العلماء العاملين

المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين. والأحبار؛ أي: العلماء الكبار الذين يقتدىٰ بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان صدق بين أممهم. فالربانيون هم كاملو العلم، وفُسِّر بالعلماء الصابرين العاملين البُصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم، أو المتذاكرين للعلم المدارسين له، وهم فوق الأحبار، وقيل: هم العلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا اليهود، والملاحظ أنه اقترن في آيتي المائدة بلفظ الأحبار وجاء بمفرده في ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٤ - مفهوم الكرسيّ:

(ك ر س) أصل صحيح يدلّ علىٰ تلبد شيء فوق شيء وتجمعه. ومنه اشتقت الكرّاسة، لأنها ورق بعضه فوق بعض، والجمع الكراريس، والكُرْسِيُّ: العلم، والسرير. وجمعه كراسي، والانكراس: الانكباب علىٰ الشيء، والكِرْس: ما تَلبَّد من الدِّمَن في الديار، والكركسة: ترديد الشيء.

ورد لفظ كرسيّ في موضعين علىٰ وجهين: العلم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وموضع الجلوس: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٤]. فالكرسيّ لغة هو الذي يجلس عليه، وهو الشيء الذي ثبت ولزم بعضه بعضاً. والعرب تسمّي أصل كلّ شيء الكِرس، وقيل معنىٰ الكرسيّ العلم أو العرش أو موضع القدمين، وقيل: هو العلم، وقيل: ملك الله، وقيل: اسم الفلك المحيط بالأفلاك.

٥- مفهوم الأثارة:

من أثر (أ ث ر) له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي، أمّا الأثارة فهي البقية من الشيء والجمع أثارات. والأُثْرَة: المكرُمة المتوارثة كالمَأْثَرة والمَأْثُرة والبقية من العلم تُؤْثَر، فالأثر ما بقي من الشيء، والأُثْر ما بقي من الجرح بعد البرء، والإِثْر خلاصة السمن.

ورد لفظ الأثر باشتقاقاته في واحد وثلاثين موضعاً على أربعة أوجه، هي: البقايا: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]، والطريق: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٧٠] والتفضل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]. والاستفراد: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]. فالأثر هو حصول ما يدلّ على وجود الشيء، وأثَرْت العلم روَيته، وأصله تتبعته، وأثارةٌ من علم، وقُرئ "أثرة"، وهو مكان يُروى أو يكتب فيبقى له أثر، والمآثر ما يروى من مكارم الإنسان، فالمعنى اللغويّ للأثر هو البقيّة، ومنه المأثور الباقي، فكلّ عالم باق مؤثر يسمّى أثارة من علم، أو مأثورة عن الأولين كما في قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]. قال الواحدي: كلام أهل اللغة في تفسير هذا يدور على ثلاثة أقوال: الأول: البقيّة واشتقاقاته من أثرت الشيء أُثيرُه كأنها بقيّة تستخرج فتؤثر، ومنه ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩]، والثاني: من الأثر الذي هو الرواية والأثرة المرّة من مصدر أثر الحديث إذا رواه. والآثار: الأخبار فيما مضى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. والثالث: الأثر بمعنى العلامة والأثر سمة في باطن خُفّ البعير يقتفي بها أثرُه؛ أي يترك من علامة باقية، والأثيرة الدابة العظيمة الأثر في الأرض بحافرها.

٦- مفهوم القبس:

(ق ب س) أصل صحيح يدلّ على صفة من صفات النار، ثمّ يستعار، أَقْبَسْتُ الرجل علماً واقتبسها: أخذها، وجاء لفظ القبس في: [طه: ١٠] و[النمل: ٨] و[الحديد: ١٣]، ولم يأتِ في غيرها، وفيها كان مقترناً بالإيناس والهدى والنور، قال تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]؛ أي هادٍ يهديني إلى الطريق ويدلّني على المسير، و﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فالقبس للنار، ثمّ استعير لطلب العلم والهداية، وهذا ما في القرآن.

٧- مفهوم الرسوخ:

من رسخ، (ر س خ) أصل واحد يدل على الثبات، ورسخ الغدير: نَشَّ ماؤه ونَضَب، وكلّ ثابت راسخ، ومنه الراسخون في العلم، والرسوخ أن يُعْلَم الشيء بدلائل كثيرة، أو بضرورة لا يمكن إزالتها، وأصله الثبات على أصل يتعلّق به. ورد في موضعين: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٦٢]. فالراسخون في العلم هم الذين رسخ عِلمُهم وإيمانهم، وثبت، كما يرسخ الشيء في منابته. وقال المبرد: المتذاكرون بالعلم. وقال: لا يذاكر بالعلم إلا حافظ، وفي آل عمران فسّر ابن عباس الراسخين بـ: البالغون في علم التوراة، وقال البعض: هم المتحقّقون بالعلم لا يعرض لهم شبهة فيه.

٨- مفهوم السيّد:

(س ي د) كلمة واحدة، سمّي سيّداً لأنه يسود سواد الناس؛ أي معظمهم، وهو الذي فاق غيره، وبهذا السيّد هو العاقل المدرك وذو المال

والنفع. وقد ورد لفظ السيد في ثلاثة مواضع، دلّت على أنه هو الحليم والعليم على ثلاثة أوجه، هي: الزوج: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، والقائد: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، والشريف في العلم: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهذا الوجه الأخير هو الدالّ على العلم؛ حيث السيّد هنا هو الشريف في العلم والفقه والعبادة.

٩- مفهوم الحجة:

الحجة من حجَّ الحاء والجيم أصول أربعة: الأول: القصد، ومنه المحَجَّة، وهي جادة الطريق، والحُجَّة مشتقة من هذا لأنها تقصد، يقال: حاججت فلاناً فحججْته. والثاني: الحِجَّة وهي السّنة، وقد يُجمع إلى الأصل الأول؛ لأنّ الحج في السنة لا يكون إلا مرّة واحدة. والثالث: الحجاج، وهو العظم المستدير حول العين. والرابع: الحَجْحَجة: النكوص، والمحجاج: الغلبة بالحجة، وكثرة الاختلاف، والتردّد.

ورد لفظ الحجة باشتقاقاته في عشرين موضعاً على وجهين: الخصومة: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]؛ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]. والدَّلالة المبيّنة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]. وما يحتج به الذين ظلموا مستثنى من الحجة، تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]؛ فسمَّى الداحضة حُجَّة، والمُحَاجَّة أن يطلب كلّ واحد ردّ الآخر عن حجَّته ومحَجَّته، وكلّ ما استدلّ به على صحّة الدعوى فهو

حجّة، والمجادلة بالباطل قد تسمّى حجة، كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]. إمّا على حسبانهم وظنّهم، أو على أسلوب قولهم هي حجّة بينهم. والحجّة أنواع: حجّة إقناعيّة: التي تفيد القانعين القاصرين عن تحصيل المطالب بالبراهين القطعيّة العقليّة، وربما تقضي إلى اليقين بالاستكثار. وحجّة برهانيّة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهي حجة برهانيّة تحقيقيّة؛ إذ لا تكاد النفس تخطر للمتأصل نقيض الإله، بعدما تحقّق عنده استحالة الخلاف في خبره تعالى واستمرار العادة بين ذي قدرتين على تطلب الانفراد والقهر في كلّ جليل وحقير، فكيف بمن اتصف بأقصى غايات التكبر؟ فضلاً عن أخطار فرض النقيضين مع الجزم بأنّ الواقع هو الطرف الآخر.

١٠ - مفهوم البرهان:

من بَرْهَن؛ أي أقام البرهان وهو الحجّة والدَّلالة، وأبره أتى بالبرهان، وقد ورد لفظ البرهان في القرآن في ثمانية مواضع على أربعة أوجه، هي: الكتب المنزّلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]؛ وعهد الله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] والحجة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، والمعجزة: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]. والبرهان فُعلان مثل الرجحان، مَصْدَرُه بَرَه يَبرَه إذا ابْيَضَّ، ورجل أبره وامرأة برهاء، والبرهة مدّة من الزمان، فالبرهان أوكد الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة؛ وهو عند الأصوليين ما فصل الحقّ عن الباطل،

والصحيح من الفاسد. فالأدلّة خمسة أضرب: دَلالة تقتضي الصدق أبداً، أو تقتضي الكذب أبداً، أو إلى الصدق أقرب، أو إلى الكذب أقرب، أو إليهما سواء، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

١١ - مفهوم السلطان:

(س ط ن) أصل واحد، وهو القوّة والقهر. ولذلك سُمّي السلطان سلطاناً وهو الحجّة، كذلك السلطان: قدرة الملك والوالي، وسلطان أيّ شيء شدته، لأنه مأخوذ من السَّلْطُ؛ أي الشديد، والسلطان هو البرهان والحجة، ولا يجمع لأنّ مجراه مجرى المصدر. وقد ورد لفظ سلطان في خمسة وثلاثين موضعاً، على وجهين: الملك والقهر: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، والحجة: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨]. وقد ورد بهذا الوجه في (٢٨) موضعاً، سمّيت الحجة سلطاناً لما يلحق من الهجوم على القلوب، لكنّ أكثر تَسَلُّطِه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين، أما الملك فسمّي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه، واشتق من السليط، وهو ما يضاء به.

١٢ - مفهوم الآية:

من أيي، (أ ي ي) أصل واحد، وهو النظر، وأصل آخر: وهو التعمُّد، يقال: تآيَيْتُ على؛ تفاعلت، وأصله تعمَّدت آيَتَه وشخصه. والآية العلامة، وهذه آية مَآيَاة. قال الأصمعيّ: آية الرجل شخصه. وقال الخليل: خرج القوم بآيتهم؛ أي بجماعتهم، ومنه آية القرآن؛ مجموعة حروف والجمع آي، والآية: العبرة، والأمارة، ومن المعاني الوقت.

ورد لفظ آية بصيغه في ثلاثمائة واثنين وثمانين موضعاً على ستة أوجه، هي: العلامة: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٨]. والقرآن: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]. والمعجزات: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [القصص: ٣٦]. والعبرة: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]. والكتاب: ﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [الجاثية: ٨]. والأمر والنهي: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ أي أحكامه من أمرٍ ونهي، فالآية هي العلامة الظاهرة، وحقيقة كلّ شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر إلا بظهوره. ويقال لكلّ جملة من القرآن دالة على حكم "آية" سورة كانت، أو فصولاً، أو فصلاً من سورة. وقد يقال لكلّ كلام منه منفصل بفصل لفظيّ آية. وعلى هذا اعتبار آيات السورة التي تعدّ بها السورة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فهي من الآيات المعقولة التي تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس في العلم، ودرجة التفكير والتأمل.

١٣ - مفهوم الجدال:

(ج د ل) أصل واحد، من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه امتداد الخصومة ومراجعة الكلام. يقال: جَدَل الحَب في سنبله، قوي. والأَجْدَل هو الصقر، وجَدَلَهُ يَجْدُلُه ويَجْدِلُه: أحكم فتله، والجَدَلُ اللَّدد في الخصومة، والقدرة عليها. و جَدَّلَهُ فانجَدَل وتجَدَّل: صرعه على الجدالة. وقد ورد لفظ الجدال بصيغه في تسعة وعشرين موضعاً على ثلاثة أوجه، هي: الخصومة: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٣] والمراء: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ

وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والمناظرة والمحاورة: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. فالجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جَدَلْتُ الحبل؛ أي أحكمت فتله ومنه الجديل. كأن المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة، وقيل: الجدال عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجّة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة الغير. والمجادلة منازعة في مسألة علميّة لإلزام الخصم سواء كان كلامه في نفسه فاسداً أم لا، وإذا علم بفساد كلامه وصحّة كلام خصمه فنازعه مكابرة. ومع عدم العلم بكلامه وكلام صاحبه فنازعه معاندة، فالأصل في الجدال الخصام؛ لذا كان الأمر بأن يكون بالتي هي أحسن؛ لأنّ غالب ما يرد فيه الجدال يكون مذموماً ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]. ويقسم الحوار إلى ثلاثة أقسام، هي: المناظرة، والجدال، والمكابرة وقد تشتمل المناقشة الواحدة على كلّ هذه الأنواع الثلاثة.

١٤- مفهوم السؤال:

من سأل، السين واللام كلمة واحدة، سأل يسأل سؤالاً ومسألة، ورجل سُؤَلة كثير السؤال، ويقال: سَلْ واسأل، وقد ورد لفظ السؤال باشتقاقاته في مائة وثمانية وعشرين موضعاً على سبعة أوجه، هي: الاستفتاء: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، "يسألونك" [البقرة: ٢١٥]، و[٢١٧]، و[٢١٩]، و[٢٢٠]. والمتسوّل: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ١٠]؛ والدعاء: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ١].

والاعتراض والمراجعة: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]. والطلب: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، والحساب: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، والتخاصم: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبأ: ١].

فالسؤال استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إليها، واستدعاء مال أو ما يؤدي إليه. والسؤال من الله تعالىٰ لتنبيه المخاطب أو لتبكيته وتعريفه، أو لإقراره وإلزامه، ولا يصح في حقه سبحانه طلب المعرفة، فإذا كان التعريف تعدّىٰ إلىٰ المفعول الثاني بنفسه، وتارة بالجار، نحو سألته كذا وبكذا، وعن كذا، وبِمَن أكثر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. أما إذا كان السؤال لاستدعاء مالٍ فإنه يتعدّىٰ بنفسه وبـ "مَنْ"، نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، والسائل الذي يسأل لفَقْره وسوء حاله، قال تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٩]. فالسؤال الذي يهمّنا هو ما تتحقّق به المعرفة، بل هو أهم وسائلها، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧] وسؤال الله لعباده ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. قيل: إنّ ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيتهم، لا لتعرّف الله تعالىٰ فإنه علام الغيوب، فالسؤال للمعرفة يكون للاستعلام وأخرىٰ للتبكيت والتعجيز وأخرىٰ للإقرار.

كما أنّ السؤال يقارب الأمنية، غير أنّ الأمنية تقال فيما قدر، والسؤال فيما طلب، وسؤال الجدل حقّه أن يطابق جوابه بلا زيادة ولا نقص، أمّا السؤال للتعلُّم والاسترشاد فحقّ المعلم أن يكون فيه كطبيب يتحرّىٰ شفاء

سقيم، فيبيّن على ما يقتضيه المرض لا على ما يحكيه المريض. وقد يعدل في الجواب عمّا يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان من السؤال أن يكون كذلك ويسميه البعض بالأسلوب الحكيم. فيأتي الجواب أعمّ من السؤال، كقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، جوابه ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ ولكنه أضاف ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، [طه: ١٦، ١٧]، وقد تكون للإغاظة كما في ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: ٧١]، في جواب ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾. وقد يكون الجواب زيادة للتحريض ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٤]، وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك. وقد يعدل عن الجواب أصلاً، إذا كان قصد السائل التعنت، والسؤال في القرآن إذا كان واقعاً يقال في الجواب "قل".

١٥ - مفهوم الجواب:

من جوب، (ج و ب) أصل واحد، هو خَرْقُ الشيء. يقال: جُبْت الأرض جَوْباً، فأنا جائب وجَوّابٌ. وأصل آخر، وهو مراجعة الكلام: يقال: كلمه فأَجَابَه جَواباً وقد تَجَاوبا مُجَاوبَة، والجوائب الأخبار الطارئة، وهل من جائبة خبراً؛ أي طريفة خارقة. يقال: اسْتَجْوَبَهُ، واسْتَجَابَهُ واسْتَجَابَ لَهُ، وتَجَاوَبُوا، والتَجَاوُب هو التحاور.

ورد لفظ الجواب باشتقاقاته في ثلاثة وأربعين موضعاً على خمسة أوجه، هي: القطع والخرق: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر: ٩]؛ والتلبية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ والاتباع: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. والطاعة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ

وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]. والردّ على السؤال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٢]، ويكون الجواب في مقابلة السؤال، والسؤال على ضربين: طلب المقال وجوابه المقال؛ وطلب النَّوَال وجوابه النَّوَال. فعلى الأول ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ وعلى الثاني ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]؛ أي أُعْطِيتُما ما سَأَلْتُما، وقيل: الاستجابة هي الإجابة، وحقيقتها التحرّي للجواب والتهيؤ له، لكنّ عُبِّرَ عن الإجابة لقلة انفكاكها منها. وقيل: الأصل في الجواب أن يعاد فيه السؤال نفسه ليكون وِفْقَهُ، نحو ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، وكذا ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِي﴾ [آل عمران: ٨١] هذا أصله، ثمّ إنهم أَتوا عوض ذلك بحرف الجواب اختصاراً، وتركاً للتكرار. ومن عادة القرآن أن السؤال إذا كان واقعاً يقال في الجواب "قل" بلا فاء، مثل ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، ونظائرها في [الأعراف: ١٨٧]، و[البقرة: ١٣٣]. فصيغة المضارع للاستحضار؛ لأنه في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، فإنّ الصيغة فيها للاستقبال لأنه سؤال عَلِمَ الله تعالى وقوعه وأخبره عنه قبله وذلك أتى بالفاء فقال: ﴿فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ [طه: ١٠٥]؛ أي إذا سألوك فقل.

١٦ - مفهوم الفتوى:

من الفَتي، الفاء والتاء والحرف المعتل أصلان: أحدهما يدلّ على طراوة وجدّة، كقولهم الفتيُّ، وهو الطري من الإبل، والفتى من الناس واحد الفتيان. والآخر على تبيين حكم، الفُتيا يقال: أفتى الفقيه في المسألة إذا بيَّن

حكمها، وقد ورد لفظ فتىٰ باشتقاقاته في واحد وعشرين موضعاً علىٰ وجهين: الواحد من الناس: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وبيان الحكم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]. والذي يهمنا في مجال المعرفة هنا "الفتوىٰ". وقد جاء اللفظ بصيغة الفعل من غير الاسم في أحد عشر موضعاً، بمعنىٰ طلب معرفة الشيء بالمسألة والاستفهام، وهو أخص من الاستفهام. فالفتوىٰ لا تقع إلىٰ علىٰ أمرٍ بعينه، وبهذا التقييد من المعنىٰ ورد في القرآن الكريم بدليل خطاب الملك في الآية للأشراف من قومه، وليس عامة القوم كما في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ﴾ [يوسف: ٤٣]، والفتوىٰ الجواب عمّا يشكل من الأحكام، والإفتاء هو تبيين المبهم.

١٧ - مفهوم البيان:

من البَيْنِ، (ب ي ن) أصل واحد، وهو بُعْدُ الشيء وانكشافه، فالبيان في الأصل مصدر (بان الشيء) بمعنىٰ اتّضح وانكشف وأَبَنْتُه واسْتَبَنْتُهُ: أوضحته، وجاء ببيان ذلك وبَيِّنَتِه؛ أي بحُجَّتِه. وقد ورد لفظ البيان مع اشتقاقاته مائتين وثمانية وخمسين موضعاً، علىٰ ستة أوجه، هي: التأمل والتريث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦]. والحجج والدلائل: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والعلم: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] والظهور: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والوضوح: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ والإفصاح: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٤]؛ أي التبيين عمّا في ضميره. فالبيان يأتي بمعنىٰ الإيضاح والإظهار، والتعريف والإعلام

بأدلة ظاهرة محسوسة، ويأتي بمعنىٰ الكلام والإفصاح عمّا بداخل الإنسان، والأغلب أن يَرِدَ الرباعي منه مهموزاً أو مضعَفاً، ولم يجىء الثلاثيّ في القرآن الكريم للدَلالة علىٰ مَعْنَىٰ الإظهار، وإنّما جاء من الرباعيّ والخماسيّ أبان وبَيَّن وتبيَّن بصيغ واشتقاقات مختلفة للدَلالة علىٰ الماضي والمضارع واسم الفاعل المبيّن في عشرات الآيات، ولم ترِد صيغة الأمر منه سوىٰ ثلاث مرات، وبلفظ واحد "تبيَّنوا"، وفيه معنىٰ التأمل والتريث، والتبيان بمعنىٰ البيان، لأنّ المصادر إنما تجيء علىٰ التَفْعال، ولم يجىء بالكسر إلا التِّبْيان والتِّلْقاء ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والمبين اسم فاعل من أبان يُبيّن فهو مبين، إذا أظهر وبيَّنَ، إمّا قولاً وإمّا فعلاً ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف: ١]، كما جاء من اللفظ الخماسيّ " تبيّن" بمعنىٰ العلم بالشيء بعد ظهوره (١٨) مرة في صيغ الماضي، المضارع والأمر، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: ١٤]؛ أي لّما علمت الجن وظهر لها العجز وعلموا جهلهم. والبينات في القرآن بمعنىٰ الدلائل والحجج الواضحة واليقين الراسخ، ومفردها بيِّنة، ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: ٥٧].

والبيان هو الكشف عن الشيء، وهو أعمّ من النطق، وهو مختص بالإنسان دون غيره من المخلوقات في عالم الشهادة. وهو علىٰ ضربين: أحدهما بالإنجاز، والثاني بالإخبار، وسمّي الكلام بياناً لكشفه عن المعنىٰ المقصود وإظهاره نحو ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وسمّي ما يشرح به المجمل والمبهم من الكلام بياناً نحو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٩].

والبيان يكون بالفعل، وبالقول، وهو على خمسة أوجه، هي: بيان التقرير ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فهو تقرير لموجب الكلام وحقيقته قطعاً؛ لاحتمال المجاز؛ إذ يقال المرء يطير بهمته. وبيان التفسير: لما فيه خفاء من المشترك أو المجمل أو الخفيّ. وبيان التغيير: وهو تغيير موجب الكلام نحو التعليق والاستثناء والتخصيص. وبيان التبديل: وهو النسخ، وبيان الضرورة: هو نوع بيان يقع بغير ما يوضع له لضرورة ما؛ إذ الموضوع له النطق وهذا يقع بالسكوت. وهو على أربعة أوجه، هي: الأول: ما يعلم بمعونة المنطوق لا بمجرد السكوت، كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: ١١]. والثاني: ما يثبت بدلالة حال المتكلم. والمراد بالمتكلم القادر على التكلم لا الناطق، واحترز به عمن لا يقدر على التكلم كالأخرس. والثالث: ما يثبت ضرورة دفع الضرر عن المشتري. والرابع: ما يثبت بدلالة الكلام، كما قال: له عليَّ مئة وثلاثة دراهم أو ثلاثة أثواب أو أفراس، فالمعطوف بيان للمعطوف عليه، والبيان ما يتعلّق باللفظ، والتبيان ما يتعلّق بالمعنى.

١٨ - مفهوم الشرح:

(ش ر ح) أُصَيل يدلُّ على الفتح والبيان، من ذلك شرحت الكلام وغيرَه شَرْحاً، إذا بيَّنتَه، واشتقاقه من تشريح اللحم، ويكون بمعنى: كشف، ووسَّع، والشَّرح مصدر شرحت الأمر، أشرحه شرحاً: إذا اكتشفت عنه وأوضحته. وقد ورد لفظ شرح خمس مرّات، بمعنى البسط والتوسعة، مثل بسط اللحم ونحوه، وشرح الصدر: بسطُه وفتحه لقبول الشيء، وشرحه

بالهداية بمعرفة الحقّ وطاعة الله وجعل الصدر وعاء للحكمة ورباطة الجأش والجرأة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وما يماثله في [الأنعام: ١٢٥]، و[طه: ٢٥] و[الانشراح: ١]، وفي قوله تعالىٰ عن دعاء موسىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: ٢٥]؛ لم يقرن الشرح بالقلب؛ لأن محلّ الوسوسة هو الصدر، ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ [الناس: ٥]، فهي بحاجة إلىٰ القوّة والتوسعة لتكون حصناً للقلب من أهواء الشياطين. والشرح ليس مختص بالجانب الحقّ؛ لأنه وارد في الإسلام كما هو في الكفر ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل: ١٠٦] فالشرح هو حقيقة في الأعيان واستعارة في المعاني.

١٩ - مفهوم التفسير:

من فسّر، (ف س ر) كلمة واحدة تدلّ علىٰ بيان شيء وإيضاحه من ذلك الفَسْرُ، وهو كشف المغطىٰ، وقيل: التفسير والتأويل واحد، كما هو كشف المراد عن المشكل، والتأويل ردّ أحد الاحتمالَيْن إلىٰ ما يطابق الظاهر، والفسر نظر الطبيب إلىٰ الماء وحكمه فيه، والتَّفسَرة، فيعرف الداء. وقد ورد لفظ التفسير مرّة واحدة في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: ٣٣] وهو بمعنىٰ الكشف والبيان، فكلّ شيء يعرف به تفسير الشيء أو ما ينبيء عنه يسمّىٰ التفسرة، والفرق بين التعريف والتفسير أنّ الأخير تعريف لفظيّ، يشرح اللفظ بلفظ أظهر منه، والتعريف يشمل الحدّ والرسم، فالتفسير إظهار المعنىٰ المعقول، وهو أعمّ من التأويل، لأنه يجري علىٰ الألفاظ. والتأويل في المعاني؛ ويكون التأويل في الكلام لبس

وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسره.

٢٠- مفهوم الحكمة:

من حكم، (ح ك م) أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحُكم؛ وهو المنع من الظلم. والحِكمة هذا قياسها لأنها تمنع من الجهل، والحاكم منفذ الحكم؛ أي القضاء، والحكمة العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل، و أَحْكَمَهُ أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد.

ورد لفظ الحكمة باشقاقاته في (١١) موضعاً، على خمسة أوجه، هي: الموعظة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]. والفهم والعلم: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢]. والنبوة: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]. وتفسير القرآن: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. والقضاء: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [المائدة: ٤٢]. فالحكمة تعني العدل، والعلم، وصواب الرأي، وسدادة العقل، وفهم المعاني، والإتقان في الصناعة، والفقه. وقد ورد في القرآن بعدّة أوجه، ترجع إلى أصل الحكمة وهو الإحكام؛ أي الإتقان. والحكمة من الله تعالى إيجاد الأشياء، على وجه الإتقان، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات.. كما ورد في القرآن لفظ الحكيم ويحتمل أمرين: أنه معنى العالم، وقيل: لا يسمّى حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. والحكيم بمعنى المحكم لأفعاله فكلها حكمة وصواب، وهو بمعنى المبين كذلك. فالحكمة والحكيم، من حكم دلالته المنع، ثمّ تطورت إلى ضبط العلم والعمل بما يحقق الصواب من خلال نظرة عميقة مباشرة إلى معاني الأشياء، ودقة

الملاحظة التي يستمدّها من تجارب الحياة. فكان العرب يسمّون أشرافهم بـ"الحكماء". والحكيم من أسماء الله تعالى الذي لا يغرب عنه شيء يضبطه ويحكمه بقدرته وعلمه فسبحانه، وهو بمعنى الحاكم، وهو القاضي الذي يمنع الظلم، ويجوز أن يكون معنى الحكيم ذو الحكمة، وتنسب إلى أشراف العزم، وأئمتهم للدَلالة على صواب الرأي، والسداد، وضدّ السفاهة، والفساد، والحكم أعمّ من الحكمة، ومحكم الكلام هو ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، وقيل: الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة، إفراطها: الجَرْبَزَة، وتفريطها: الغباوة، وأكثر أهل العلم على أنّ الحكمة ليست للعلم المجرد، بل للعلم مع زيادة مبالغة فيه أو للعلم مع العمل، وأمر التقديم والتأخير بينهما إنما بحسب اقتضاء المقام.

هذه خلاصة الألفاظ التي حاولنا البحث فيها في مجال العلم وما قارب مفهومه، غير أنّ ألفاظاً أخرى يمكن إضافتها، لكن لطول البحث آثرنا التنبيه عليها من غير الخوض في دلالتها بأكثر ما هي عليه ومنها: الحلم والرشد واللطف والإحسان والإيناس، والخوف والخشية والإنابة، والفصاحة واللحن، والعلن والاستخراج والحصحص، كلّها صفات للكلام والمعلومة المعروضة على السامع أو القارئ.

٢١- مفهوم الهدى:

الهاء والدال والحرف المعتل، أصلان، أحدهما التقدم للإرشاد، هديته الطريق هداية؛ أي تقدمته لأرشده، وكلّ متقدم لذلك هاد. ويتشعب، فيقال: الهدى خلاف الضلالة، وهاديها أوّل رعيل منها، و والآخر بعثة

لطف، منه الهدية، ما أهْديت من لطف على ذي مودة، والهادي من أسماء الله تعالى، وهو الذي بَصَّرَ عباده، وعَرَّفهم طريق معرفة حتى أقَرُّوا بألوهيته وربوبيته. وهديتُه إلى الطريق؛ أي عرّفته.

ورد لفظ الهدى بدلالاته العامة والخاصة في (٣١٦) موضعاً من القرآن الكريم، في ستة عشر وجهاً، لكن يمكن ضمّ بعضها إلى غيرها، هي: البيان: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، ودين الإسلام: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، والداعي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، والمعرفة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النمل: ١-٢]، والكتب: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. والرشد: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٢٠]، ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣] فالهدى هو الدَّلالة مع كونها موصلة إلى المطلوب، بدليل وقوعها مقابل الضلالة، وفيها الرشاد والبيان لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]. وكلها تدور حول معاني الدَّلالة والإرشاد والإلهام والتوفيق والمجازاة، ولها دلالات خاصّة بالسياق. غير أنّ معنى البيان هو الأقدر على استيعاب معظم الوجوه. وقد ورد من لفظ الهدى الصيغ الفعليّة ثلاثة أوجه، هي: مُعَدّى بإلى: يتضمّن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦] ومعدى باللام: لتخصيص اللفظ بالشيء المطلوب، ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] ومعدّى بنفسه: ويتضمّن المعنى الجامع لذلك كله والتعريف والبيان والإلهام ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]،

فالهداية في القرآن لها مفهوم خاصّ، كإعطاء العقل والتوفيق، والحيد عن طريق الضلال إلى طريق الإيمان، الذي يرشد إلى الجنة والخير. والهداية من البشر دعاء وتعريف للطريق الصحيح، الذي من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل، غير أنَّ بعضهم اشترط الإيصال لأن الضلالة تقابلها.

والهداية من الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: الأول: الهداية التي تعمّ كلّ مكلف من العقل والفطنة والمعارف التي عمَّ بها كلّ شيء، وقدر منه حسب احتماله. والثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه تعالى إياهم إلى سنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك. والثالث: التوفيق الذي يختصّ به من اهتدى. والرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة. أشار إلى الأول بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]. وعلى سائر الهدايات: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. وكلّ هداية نفاها الله تعالى عن الظالمين فهي هداية التوفيق. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠] للحيوانات كلّها، أما قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠] للعقلاء، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢٢- مفهوم الاتباع:

من تبع، (ت ب ع) أصل واحد، التُّلُوُّ والقَفْو، يقال: تَبِعْت فلاناً إذا تلوته واتْبَعْتُه وأَتْبَعْتُه إذا لحقته، وقد ورد لفظ تبع بصيغه في (١٧٥) موضعاً على سبعة أوجه، هي: الصحبة: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ

رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦] الاقتداء: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢١]. والاستقامة: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، والاختبار: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]. وعمل: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. والصلاة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]. والطاعة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

فالاتباع يكون بقفو الأثر، بالاتسام أو بالائتمار، ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢]. فالاتباع قد يكون بالمشي خلف المتبع، أو باقتفاء منهجه العلميّ والفكريّ، أو بطاعته والائتمار لأوامره، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام ١٥٣]. ويكون في الحقّ وفي الباطل ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، فالاتباع في القرآن دائماً كان لِما هو بيِّن الصحّة وقويُّ البرهان ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة: ١٦]، وهو دليل صحّة أنه وحي معصوم، قامت الأدلّة على إثبات عصمته، أمّا المردود فقد وصف بالأهواء والباطل والظنّ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

٢٣- مفهوم الشورى:

من شَوْر، (ش و ر) أصلان مُطّردان: الأول: إبداء شيء وإظهاره، والآخر أخذ شيء. ومنه: شُرْتُ الدابة شَوْراً، إذا عرضْتَها، والمكان الذي يُعْرض فيه الدواب هو المِشْوَار. والآخر: قولهم شُرْت العسل أَشُوره، ومنه:

شاوَرْت فلاناً في أمري، فكأن المستشير يأخذ الرأي من غيره. ومنه: المستشير، وهو البعير الذي يعرف الحائل من غيرها الحامل، واستشاره طلب منه الشورىٰ. وأشار إليه باليد، أومأ، وأشار عليه بالرأي، والشورىٰ الأمر الذي يتشاور فيه؛ أي كلّ يشير برأيه.

ورد لفظ الشورىٰ بصيغه في أربعة مواضع علىٰ وجهين: الإيماء باليد: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]. والتحاور: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهو من الله لنبيه الكريم بمشاورة أصحابه، و﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨]. فالمشاورة استخراج الرأي بمراجعة البعض للبعض.

٢٤- مفهوم الفطرة:

(ف ط ر) أصل صحيح يدل علىٰ فتح شيء وإبرازه، ومن ذلك الفِطْر من الصوم. ومنه الفَطْر بفتح الفاء، فَطَرْت الشاة فَطْراً إذا حليتها، والفِطْرَة: الخلقة التي خُلق عليها المولود في رحم أمه، والدين. وفَطَر الله تعالىٰ الخلق: خلقهم وبرأهم، وفطر الأمر: ابتدأه وأنشأه، والفطير ضدّ الخمير، وهو العجين الذي لم يختمر. وكلّ شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير، يقال: إياك والرأي الفطير.

ورد لفظ فطر باشتقاقاته في عشرين موضعاً علىٰ أربعة أوجه، هي: الإبداع: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١]، والاختلال: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: ٣]. ومنها الخلق: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. والانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]. فأصل الفَطْر الشقّ طولاً. يقال: فَطَر فلان كذا فَطْراً وأَفْطَر وهو فُطُوراً وانفطر انفطاراً. قال تعالىٰ:

﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: ٣]؛ أي اختلال، وقد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح. وفطر الله الخلق؛ أي إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة من الأفعال، فقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وفطرة الله هي ما ركز فيها من قوّته على معرفة الإيمان، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فالفطر يشبه أن يكون معناه الإحداث دفعة كالإبداع.

٢٥- مفهوم الحيّ:

من حيي، الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضدّ الوقاحة. فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والمَوَتان. ويسمّى المطر حَيّاً، لأن به حياة الأرض. وطريق حَيٌّ: بَيِّنٌ، وحَيِيَ: استبان، والحيوان: جنس الحيّ، أصله حَيَيان. وقد ورد لفظ الحي والأحياء خمساً وثلاثين مرّة، ومن الإحياء الموتى بصيغه المختلفة خمسين مرّة، وبمعنى الاستحياء في أربعة مواضع، وبمعنى المعيشة مرّة واحدة ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]. وجاء من المادّة ما دلّ على التحيّة أربعاً وأربعين مرة في صيغة، وبدَلالة سبي والخراب أربعة مواضع. وبمعنى القوّة العاقلة العالمة في موضعين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس: ٧٠]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢٦- مفهوم الظن:

(ظ ن) أصل صحيح يدلّ على معنيين مختلفين: يقين، وشكّ. فأمّا اليقين فقول القائل: ظننت ظنّاً؛ أي أيقنت، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، والعرب تقول ذلك وتعرفه، وهذا في القرآن كثير. والثاني: الشكّ، يقال: ظننت الشيء إذا لم تتيقنه، ومن ذلك الظنَّة، التهمة، والظَّن التردّد الراجح بين طرفيّ الاعتقاد غير الجازم، وقد يوضع موضع العلم، فهو من ألفاظ الأضداد، وهو تغليب القَلْب على أحد أمرين بوجود الدلائل والأمارات في الشيء المظنون، فكلَّما قوِيتْ لحقَ بالعلم، وإن ضَعُفَت لحقَ بالظنّ. والظن قوّة المعنى في النفس من غير بلوغ حال الثقة الثابتة. وقد ورد لفظ الظن في تسعة وستين موضعاً على أربعة أوجه، هي: العلم والإتقاء: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، يعني إن اتقيا، وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، يعني وعلم داود أنما ابتليناه. والشك: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]. والحسبان: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٤]. والتهمة: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤] يعني المتهم. والظنّ والشكّ والتجوز نظائر، إلا أنّ الظنّ فيه قوّة أحد الأمرين من غير الآخر. وَحَدُّه: ما قَوِي عند الظانَّ على ظَنِّه مع تجويزه أن يكون على خلافه، فبالتجويز يفصل عن العلم، وبالقوّة ينفصل عن الشكّ.

٢٧- مفهوم الحسب:

(ح س ب) أصول أربعة: الأول: العدّ، حَسَبْت الشيء أحْسُبه حَسْباً وحُسْباناً. وهو الظنّ، وقولهم: احْتَسَب فلان ابنه إذا مات كبيراً، وذلك أن يعدّه في الأشياء المذخورة له عند الله تعالى. والأصل الثاني: الكفاية، والثالث: الحسبان، وهي جمع حُسْبانة وهي الوسادة الصغيرة، والرابع: الأحسب الذي ابيضت جلدته من داء ففسدت شعرته. فتحسب يأتي

بمعنىٰ: توسد وتعرف وتوخّىٰ واستخبر.

ورد لفظ حسب باشتقاقاته في (١١٠) مواضع، علىٰ خمسة أوجه، هي: العدّ: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. والمناقشة والمجازاة: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق٧]، والكفاية: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، والرقيب: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦]، والظن: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢]. والحسبان الذي يكون بمعنىٰ الظنّ، يأتي بمعنىٰ اليقين، والحسيب؛ بمعنىٰ المحاسب وبمعنىٰ الكافي والمعطي، والحسبان أحد مراتب الظنّ، أتىٰ بصيغ عدّة غالبها في سياق الاستفهام ﴿أَفَحَسِبَ﴾ و﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ﴾، ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فكان في أغلبها صيغ للفظ "حسب". وجاء بمعنىٰ المحاسب وبمعنىٰ الرقيب، كما أنّ للحساب أوجهاً قد تشمل كلّ ما ورد سلفاً، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢] فيه أوجه، هي: يعطيه أكثر ممّا يستحقه. ويعطيه ولا يأخذه منه. ويعطيه عطاء لا يمكن للبشر إحصاؤه. ولها أصلان: الأول: إذا كان فعلها الماضي مفتوح العين، مضمومها في المضارع فهو بمعنىٰ العد. الثاني: إذا كان فعلها الماضي مكسور العين أو مفتوحها، مكسورها في المضارع فهو بالمعنىٰ المقارب للظنّ.

٢٨- مفهوم الجهل:

(ج ه ل) أصلان: أحدهما خلاف العلم والآخر خلاف الطمأنينة. الأول: الجهل نقيض العلم ويقال للمفازة التي لا علم بها، مَجْهَل. والثاني: قولهم للخشبة التي يحرك بها الجمر مِجْهَل، ويقال استجهلت الريح الغصن

إذا حركته فاضطرب. والمجهلة: الأمر الذي يحملك على الجهل، ويقال جَهِلَ جَهْلا وجَهَالَة، وتَجَاهَلَ فهو جاهِل وجَهول وجُهَّال وجُهلاء، وناقة مجهولة: لا سمة عليها واستجهله: استخفه، وتجاهل: أرى من نفسه ذلك وليس به. وقد ورد لفظ الجهل باشتقاقاته في أربعة وعشرين موضعاً، على أربعة أوجه، هي: ضدّ العلم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وضدّ الحلم: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]. وكلّ زمان خلا من الرسالة الربانيّة: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] والكفر: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]. والجهل على ثلاثة أضرب: الأول: خلو النفس من العلم، والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]، والجاهل تارة يذكر على سبيل الذم وهو الغالب، وتارة لا. كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ فالجهل هنا ليس صفة، بل انتفاء معرفته لهم فحسب.

٢٩- مفهوم الباطل:

من بَطَلَ، (ب ط ل) أصل واحد، وهو ذهاب الشيء وقِلَّة مُكثه ولُبْثه. يقال: بَطَل الشيء يَبطُل بُطْلا وبُطُولاً، والباطل ضدّ الحقّ، جمعه أباطيل، وقد ورد لفظ الباطل باشتقاقاته في قرابة ستة وثلاثين موضعاً على خمسة أوجه، هي: التكذيب: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [السجدة: ٤٢] والإحباط: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] والشرك: ﴿وَقُلْ

جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. والظلم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وضدّ الحقّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]. فالباطل نقيض الحق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. ويقال ذلك في المقال والفعال، ويقال في المُسْتَقِل عمّا يعود بنفع دنيويّ أو أخرويّ.

٣٠- مفهوم الهوىٰ:

(ه و ي) أصل صحيح يدلّ على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء؛ سمّي لخلوه، يقال: هوىٰ يهوي: سقط. وهاوية جهنم؛ لأنّ الكافر يهوي فيها. وهوىٰ النفس من المعنيين جميعاً؛ لأنه خال من كل خير، ويقال: هَوِيتُ أَهوىٰ هَوىٰ. والهوىٰ: العشق يكون في الخير والشر وإرادة النفس، وذهبت بهَواه؛ أي بعقله.

ورد لفظ الهوىٰ باشتقاقاته في ثمانية وثلاثين موضعاً على خمسة أوجه، هي: نزل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم: ١]؛ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. والشهوة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وهلك: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١]. والجوّ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣]. والذهاب: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]. والهوي سقوط من علوّ إلى سفل. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: ٩]؛ واسمها الهاوية؛ لأنها تهوي بصاحبها في قعر جهنم وهي إحدىٰ دركات النار. وفي الآية ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣]؛ أي

خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهشة، ومثلها في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]؛ لشدة خوفها علىٰ وليدها. والغالب علىٰ استعمال الهوىٰ في القرآن هو في مقام الذم، والأهواء ما اشتهته الأنفس من أمور قلبيّة معنويّة أو جسديّة أو ماديّة، ونهايته سيئة، فالهوىٰ رغبات تتأثر بجنوح النفس نحو الدنيء من الأمور من غير تروٍ ولا تفكير ولا تعقّل، كما أنها أمور تخالف الحقّ. والهوىٰ خلاف العلم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]، وخلاف الحقّ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثالثاً: مفاهيم الوحي:

١ – مفهوم الوحي:

الواو والحاء والحرف المعتلّ أصل يدلّ علىٰ إلقاء علم في إخفاء. فالوحي: الإشارة والكتاب والرسالة والسريع، والوَحَىٰ: الصوت والإلهام والكلام الخفي. وتَوَحَّىٰ: أسرع، وشيء وَحْيٌّ: عَجِلٌ مسرع، واسْتَوْحاه: حَرَّكَهُ ودعاه ليرسله واستفهمه، ووَحَّاه تَوْحِيَةً: عجله.

ورد لفظ الوحي بصيغه تسعاً وسبعين مرّة علىٰ خمسة أوجه، هي: الإشارة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١]، والوسوسة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، والإلهام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. والتسخير: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. والكلمة الإلهيّة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

ويقال للكلمة الإلهية التي تلقىٰ إلىٰ أنبيائه وحي، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورىٰ: ٥١]. فالوحي يكون بمشاهدة الرسول وسماع كلامه، كتبليغ جبريل عليه السلام. وبسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسىٰ كلام الله. وبإلقاء في الروع. أمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]؛ وحي إلىٰ الأمم بوساطة الأنبياء المرسلين إليهم، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]؛ وحي بوساطة عيسىٰ عليه السلام. وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فالوحي المنسوب إلىٰ الشيطان وغيره هو بمعنىٰ الإلقاء، فكلّ ما يُلقىٰ إلىٰ الغير هو وحي. وكما هو وارد في حقّ الأنبياء ورد في حقّ الأولياء وسائر الناس بمعنىٰ الإلهام وفي البهائم بمعنىٰ التسخير.

٢- مفهوم الإلهام:

من لهم، (ل هـ م) أصل صحيح يدلّ علىٰ ابتلاع شيء، : اِلتَهَمَ الشيء: اِلتقمه. وألهمه الله تعالىٰ خيراً لقنه إياه. والإلهام ما يلقىٰ بطريق الكسب أو بطريق التنبيه في الروع. وهو ما يبدو في القلب من المعارف بطريق الخير ليُفعَلَ، وبطريق الشر ليُترَكَ. وقد ورد الإلهام مرّة واحدة في القرآن بلفظه في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨]؛ أي بيَّن لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر من خير أو شر أو طاعة أو معصية. والإلهام عامّ للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكلّ مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له

به الإيمان. فهو تَلقّي الخبر من الله بالقذف في القلب من غير نظر ولا استدلال، وهو ما يخلّفه في قلب المؤمن العاقل من العلم الضروريّ الداعي للعمل المرغوب فيه لتحقيق الخير والهداية.

ويعبر عنه لغير الرسل، ولَمَّة المَلَك، والنفث في الروع. فهو اسم لما يهجس في القلب من الخواطر، فيتنبه ويفهم المعنى بأسرع ما يمكن؛ ولذا يقال فلان ملهم إذا كان يعرف بمزيد فطنته وذكائه ما لا يشاهده. والوحي من خواص النبوة، أمّا الإلهام فأعم. ويحصل الوحي بوساطة ملك أو كلام مباشر أو نفث في الروح، أمّا الإلهام فهو الإيقاع في القلب؛ حيث يدرك الحقّ من غير استدلال تامّ ولا نظر مجهد في حجة. والإعلام أعمّ من الإلهام لأنه قد يكون بتنبيه وبيان.

٣- مفهوم اللطف:

(ل ط ف) أصل صحيح يدلّ على رفق ويدلّ على صغر في الشيء. فاللطف الرفق في العمل، واللطيف من أسماء الله تعالى، وهو بمعنى البرّ بعباده المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف، أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها. واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي، وتلطفتُ بفلان: احتلّت له حتى اطلعت على أسراره.

ورد لفظ اللطف في ثمانية مواضع، واللطيف هو العالم بما لطف ودق، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ فاللطيف من كان فعله في الدقة والخفاء حيث لا يهتدي إليه غيره، كما في قوله تعالى:

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ١٩]. واللطف يعبّر عنه بالخفة، واللطائف ما لا تدركه الحواس. وجاء اسم اللطيف مقترناً بالخبير. فاللطيف العالم بخفايا الأمور ودقائقها، أمّا الخبير فهو العالم بظواهر الأمور ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٤ - مفهوم الرسالة:

(ر س ل) أصل واحد مطرد مُنْقاس، يدلّ على الانبعاث والامتداد. فالرَّسل: السَّيْر السَّهل، أو ما أُرْسِل من الغنم إلى الرعي. وجاء القوم أرسالا: يتبع بعضهم بعضاً. والرَّسول معروف، والمرسلات: الرياح. والترسيل في القراءة: الترتيل. وتَرَسَّلَ في قراءته.

ورد لفظ الرسالة باشتقاقاته قرابة (٥١٣) مرّة على سبعة أوجه، هي: سلَّطنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]. والبعث: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. والفتح: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]. والإخراج: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧]. والتوجيه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء: ٥٣]. والإطلاق والإفراج: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧]؛ والإنزال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١١]. فأصل الرسل الانبعاث على تؤدة، يقال: إبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول؛ أي المنبعث. ويقال للواحد والجمع: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفي الجمع: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦]. وجمع الرسول رسل، ورسل الله يراد بها الملائكة، أو الأنبياء. فمن الملائكة في: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. ومن

الأنبياء: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٥- مفهوم النبأ:

(ن ب أ) قياسه الإتيان من مكان إلى مكان، يقال للذي يَنْبأ من أرض إلى أرض نَابِئ، والنَّبَأ: الخبر؛ والمُنبِئ المخبر. والنَّبيء: المخبر عن الله تعالى. والجمع أَنْبِياء، والاسم النبوءة وتنبأ ادّعاها، ونبأ ونُبُوءاً: ارتفع. والنَبأة الصوت الخفي. والنبأ: الخبر الخفيّ، الذي يكون ذو فائدة عظيمة يحصل به علم وغلبة ظنّ، ولا يُقالُ للخبر نبأ حتى يتضمّن هذه الأشياء، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نبأ أنْ يتعرّى عن الكذب.

ورد لفظ النبأ باشتقاقاته في مائة وستين موضعاً، وقد جاء بصيغة الماضي والمضارع، والجمع والمفرد والفعل والاسم: ولم تخرج كلّها عن دلالتها المعجميّة وهي إفادة الخبر العاري عن الكذب. منه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ [التحريم: ٣]، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥].

٦- مفهوم النبوة:

سبق دراسته مع مفهوم النبأ. والنبوّة سفارة بين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم. والنبيّ لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكيّة. وهو أقل درجة من الرسول، والنبوّة اصطفاء من الله تعالى وليست كسباً، وعلومها إلهيّة لا دخل للعلوم البشرية بها.

٧- مفهوم الإيمان:

من أمن، (أ م ن) أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سكون القلب. والآخر: التصديق. يقال: أمِنتُ الرجل أَمِناً وأَمَنَةً وأَمَاناً، وآمَنَنِي يُؤمِنني إيماناً، والمُؤمِن هو المُؤَمِن لأوليائه من العذاب، والإيمان: الثقة وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة. وقد ورد لفظ الأمن باشتقاقاته في (٨٧٥) موضعاً على أربعة أوجه، هي: الإقرار باللسان في العلانية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ [المنافقين: ٣]؛ يعني أقروا علانية ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ سراً. ومنها التصديق في السرّ والعلانية، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧] والتوحيد: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]. والإيمان مع الشرك: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

فالإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمّد ﷺ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، ويوصف به كلّ من دخل في شريعته مقراً بالله وبنبوته وعلى هذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، ويستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحقّ على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق القلب، وإقرار اللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكلّ واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح إيمان. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي صلاتكم. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف: ١٧]، بمصدق لنا. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] مذكور

على سبيل الذم لهم، وأنه قد حصل لهم الأمن بما لا يقع به الأمن؛ وكقوله: ﴿مَن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦]. فالإيمان المعدّىٰ إلىٰ الله تعالىٰ معناه التصديق الذي هو نقيض الكفر، ويعدّىٰ بالباء لأن من دأبهم حمل النقيض علىٰ النقيض، وفي مؤمن مع التصديق إعطاء الأمن في المصدق، واللام مع الإيمان في القرآن -لغير الله- لتضمين معنىٰ الاتباع والتسليم. وهو عرفاً: الاعتقاد الزائد علىٰ العلم، كما في التقوىٰ، فهو تصديق وانقياد، وهو إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان. فهو معرفة وعلم وعمل ويقين، كلما زادت درجة العلم زاد العمل، وكلما زاد العمل زاد اليقين. وهو يزداد بطاعة الرحمن وينقص باتباع خطوات الشيطان، ولا يتمّ الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوّة وتجريد الإرادة عن شوائب الهوىٰ وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبساً من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة.

٨- مفهوم الغيب:

(غ ي ب) أصل صحيح يدل علىٰ تستر الشيء عن العيون، ومنه الغيب، يقال غابت الشمس تغيب غَيبَة، والغيب: الشكّ، وكلّ ما اطمأنّ من الأرض وانخفض، وغيابة كلّ شيء ما تترك منه.

ورد لفظ الغيب باشتقاقاته ستين مرّة علىٰ (١١) وجهاً هي: الله ويوم القيامة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] والظلمة: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]. وموت سليمان: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]. والموت: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ

مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وخزائن المطر: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. واللوح المحفوظ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٨]. والنفس والمال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤] ونزول العذاب: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجنّ: ٢٦]. والظنّ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سبأ: ٥٣]. والغيبة: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٣]. والوحي: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤].

فالغيب كلّ ما استترت عن العين، واستعمل في كلّ غائب عن الحاسة وعمّا يغيب عن علن الإنسان بمعنىٰ الغائب. وقوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد: ٩]؛ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه. والغيب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء، وقيل: يؤمنون إذا غابوا عنكم وليسوا كالمنافقين، وعلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة ٩٤]، ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة: ٦]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجنّ: ٢٦]. وقوله في صفة النساء الصالحات: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي لا يفعلن في غيبة الزوج ما يكرهه. والغيب علىٰ قسمين: قسم نُصب عليه دليل، فيمكن معرفته كذات الله وأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلية وأحوال الآخرة، وقسم لا دليل عليه، فلا يمكن للبشر معرفته، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٩- مفهوم القضاء:

من قضىٰ، القاف والضاد والحرف المعتلّ أصل صحيح، يدلّ علىٰ إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته. والقضاء الحكم؛ وسمّي القاضي بذلك، لأنه يحكم الأحكام وينفذها. والقضية هي الصنع والحَتْم، والبيان، والقاضية: الموت، وقد ورد لفظ قضاء باشتقاقاته ثلاثاً وستين مرة علىٰ عشرة أوجه، هي: وصّىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، والخبر: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]. والفراغ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، والفعل: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. والموت: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. والوجوب: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٤١]. وكُتِبَ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١]، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]. وأتمّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]؛ والفصل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، و[الزمر: ٧٥]، و[النمل: ٧٨]. والخلق: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصّلت: ١٢]. فأصل القضاء الحسم والوجوب، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]؛ أي أعلمناهم، والحتم وثيق الصلة بالأمر المقطوع به، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]؛ أي أخبرناه. والقضاء من الله تعالىٰ أخصّ من القدر، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

الفصل الثالث:

مفاهيم الطرق المعرفية: العقل والحس

أولاً: مفاهيم العقل:

١ - مفهوم العقل:

(ع ق ل) أصل واحد، يدلُّ على حُبسة في الشيء، قال الخليل: العقل نقيض الجهل يقال: عَقَل بعقل عقلاً، وجمعه عُقول. ورجل عاقل وقوم عقلاء وعاقلون، ورجل عَقُول إذا كان حسن الفهم وافر العقل، وما له معقول؛ أي عقل. والعاقلة القوم تقسم عليهم الدية في أموالهم حين قتل الخطأ، وهم بنو عم القاتل، والمَعْقل: الحصن، والصدقة يقال لها عِقال. قال الأصمعيّ: عَقَل الظبي يَعْقِل عُقولاً، إذا امتنع في الجبل، وعَقَل الطعام بطنه إذا أمسكه. واعْتُقِل لسان فلان إذا احتبس عن الكلام. والعقل له معانٍ كثيرة، هي: العِلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشرّ الشرين، والمعقول ما تعقله في فؤادك، وسمّي العقل بذلك لأنه يعقل صاحبه عن اتباع شهواته، وقد ورد لفظ العقل بصيغه تسعاً وأربعين مرّة، واسم العقل لم يرد قط في القرآن الكريم وإنما يوجد ما تصرّف منه نحو: "عقلوه" ورد مرّة واحدة، و"تعقلون" و"يعقلون" ستاً وأربعين مرة، "نعقل" و"يعقلها" مرّة واحدة لكلّ لفظ، فكلّ الصيغ فعليّة.

وورد بصيغة "أفلا تعقلون" في ثلاثة عشر موضعاً، ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ

﴿٦٧﴾ [النحل: ٦٧]؛ والعقل صفة أكثر منه مصدراً في القرآن، والدليل هو نفيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨]؛ أي لا يمنعهم عقلهم من القبائح، ولا يردعهم عن الفواحش، وقيل: لا يعقلون مالهم من ثواب لو استجابوا لله ورسوله. فالنفي لا يعني انتفاء العقل، بل النفي يقع على درجة الاستجابة والامتثال، فهم يفهمون عن الله ورسوله، لكن لا يستجيبون إمّا كبراً أو لعدم اقتناعهم، والحجة قائمة عليهم بالفهم لا بالاقتناع. وسمّي العقل عقلاً لأنه يزم اللسان ويخطمه عن أن يمضي فرطاً في الجهل والخطأ والمضرّة كما يعقل البعير. والعقل عند أهل النظر جوهر مجرد عن المادّة في ذاته مقارن لها في فعله، وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كلّ واحد بقوله أنا، وقيل: هو نور في القلب يعرف الحقّ والباطل. وهو على أربعة معانٍ: الأول: الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم، والثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. والثالث: علوم تستفاد من التجارب تسمّى عقلاً، والرابع: أنّ منتهى قوّته الغريزيّة إلى أن نقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، والناس يتفاوتون في هذه الأحوال. فالعقل هو القوّة المتهيئة لقبول وتمييز المعلوم، ويقال للعلم كذلك عقلاً.

٢- مفهوم الحجر:

(ح ج ر) أصل واحد مطرد، وهو المنع والإحاطة على الشيء. فالحَجْر حَجْر الإنسان وقد تكسر حاؤه، ويقال: حَجَر الحاكم على السفيه حَجْراً، منعه من التصرف في ماله. والعقل يسمّى حِجْراً لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي، وسمّي عقلاً تشبيهاً بالعقال. وقد ورد في القرآن الحجر بمعنى العقل مرّة

واحدة في قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥]، لذي عقل. وذاك أنّ الأصل في الحجر المنع كما الأصل في العقل، فاجتمعا في معنىٰ الإمساك.

٣- مفهوم النُهىٰ:

(ن ه ي) أصل صحيح يدلّ علىٰ غاية وبلوغ، والنُّهية العقل لأنه ينهىٰ عن قبيح الفعال، والجمع نُهىً، وقيل سمّي العقل بذلك لأنه ينتهي إلىٰ ما أمر به، ونُهْية كلّ شيء غايته والنهاية كالغاية والإنهاء: الإبلاغ. ورجلٌ مَنْهاة: عاقل حسن الرأي فهو نهيّ ونَهٍ من قوم نَهين.

ورد اللفظ مجموعاً في موضعين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: ٥٤] أي لذوي العقول. وخصّ أولي النهىٰ بذلك لأنهم المنتفعون بها. فحقيقة المنتفعين بآيات الله هذه هم المنتهون، لإدراكهم الأدلّة العقليّة التي أوردها الله تعالىٰ حجة عليهم بيقين بعثهم بعد الموت، كما بعث النبات بعد موت الأرض وكما أنشأهم من العدم. فالنهىٰ هي العقول الناهية عن القبائح المنتهية إلىٰ غاية الأوامر الإلهيّة.

٤- مفهوم القلب:

(ق ل ب) أصلان صحيحان، أحدهما: يدلّ علىٰ خالص الشيء وشريفه، والآخر علىٰ ردّ الشيء من جهة علىٰ جهة. فالأول: قَلب الإنسان وغيره، سمّي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه؛ والثاني: قَلَبت الثوب قَلْباً، والقُلَّبُ: يُقَلِّب الأمور ويحتال لها، وهو الفؤاد أو أخص منه.

ورد لفظ القلب في الإنسان في القرآن مائة واثنين وثلاثين موضعاً على ثلاثة أوجهه، هي: العقل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. والرأي: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]؛ فالقلب يطلق على المضغة الصنوبريّة، سمّيت بذلك لِما فيها من العقل والرأي وسرعة الخواطر والتلوّن في الأحوال، وهو النفس المدركة العالمة من الإنسان للمطالب والمعاتب والمعاقب. قال الحكماء حيثما ذكر الله القلب فإشارة إلى العقل والعلم، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى سائر القوى من الشهوات والهوى والغضب ونحوها. والقلب يعبّر عن المعاني التي تختصّ به من الروح والعلم والشجاعة والخوف والمرض.

وقد وردت له أوصاف كثيرة في القرآن الكريم، منها: الفظ، الغليظ، السليم، المتكبّر، الجبّار، المنيب، الآثم، المطمئن، المريض، الربط، الرعب، التقوى، التقلب، الاشمئزاز، القفل، السكينة، الرأفة، الرحمة، الوجوف، الصغو، القسوة، الكسب، الألفة، التعمّد، العقد، الغل، الشرب، الحسرة. ومن هذه الأوصاف ما يعد أوصافاً علمية مثل: الغفلة، الهداية، الفقه، الطبع، الزيغ، العقل، العمى، الختم، الطهارة، التزين، الإيمان، الغلق، الارتياب، النفاق. وأغلب ما ورد من القلب في المعنويّات والأخلاق. فورد مفرداً في تسعة عشر موضعاً، ومثنى مرّة واحدة، ومائة واثنتي عشرة مرّة مجموعاً، وجاء في أغلبها دالاً على العقل والرأي الراجح ومصدر المعرفة والفهم والفقه ومحلّ الإدراك والتمييز، وهو محلّ الجهل والظنّ والغفلة والارتياب والشكّ والطمأنينة والإيمان والإسلام والكفر والنفاق.

٥- مفهوم اللب:

(ل بّ) أصل صحيح يدل على لزوم وثبات، وعلى خلوص وجودة. فالأول أَلَبَّ بالمكان إذا أقام به، يلبُّ إلباباً. والتلبية قولك: لَبَيك، قالوا: معناه أنا مقيم على طاعتك. أمّا المعنى الآخر: اللُّبُ معروف من كل شيء، وهو خالصه وما ينتقى منه. ولذلك سمّي العقل لُباً، ورجل لبيب؛ أي عاقل. واللُّب: القلب والعقل وموضع القلادة من الصدر. وقد ورد بصيغة الجمع فقط في ستة عشر موضعاً، كلّها بمعنى العقل الراجح الذكيّ. فاللب خالص الشيء، ولا يوصف به في القرآن إلا أهل الإيمان الذين هم خاصة عباد الرحمن: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]. وذوي الألباب اختصوا بصفات هي التقوى والتذكر، فاقترنت التقوى بذوي الألباب في أربعة مواضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]. واقترنت الذكرى مع أولي الألباب في عشرة مواضع منها: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]. واقترنت العبرة معه في: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنّ وظيفة اللب في القرآن الكريم هي التذكير المؤدي إلى التقوى، والعبرة المترتبة عن التذكرة المنتجة للاعتبار والامتثال بالتقوى. ولم يرد لفظ اللبّ في القرآن كلّه إلا مجموعاً دالاً على أنه خاصّة الإنسان، وفائدته، وهو حياته العقليّة المتمكّن والاعتبار والتقوى حتى جعل أصحابه خاصّة

الأولياء، فاللب العقل الخالص من الشوائب وخالص المعاني الإنسانيّة، وقيل هو ما زكّي من العقل فكلّ لب عقل وليس كلّ عقل لباً؛ لذا علقت الأحكام التي لا يدركها إلا ذوو العقول الزكيّة من أولي الألباب.

٦- مفهوم الفؤاد:

(ف أ د) أصل صحيح يدلّ على حمىً وشدّة حرارة. فَأَدْتُ اللحم: شويته. والفؤاد، سمّي بذلك لحرارته. وافْتَأد فلان: أصاب فؤاده الخوف، وهو للقلب مذكَّر، فالقلب موجود داخل الفؤاد، والمِفْأد: الحديدة التي يُفأد بها اللحم. وقد ورد الفؤاد في ستة عشر موضعاً من القرآن الكريم، بمعنىً القلب، وقيل: الفؤاد وسط القلب، وقيل: غشاء القلب، واختلف في ترادفهما. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣]. فالقلب لم يجمع مع قوىً المعرفة بل مع الأدوات الأذن والعين، وإن ذكر السمع والبصر فمتفق على أنّ المراد الجارحة لا قوّتها. وقد جمع الفؤاد مع غيره في مقام المدح فقط كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. والأفئدة جمع فؤاد وأصله القلب ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا.

٧- مفهوم الصدر:

(ص د ر) أصلان صحيحان: أحدهما يدلّ على خلاف الوِرْد، والآخر صدر الإنسان وغيره. فالأول قولهم: صدر عن الماء، أمّا الآخر فالصدر للإنسان والجمع صدور. والصَّدْرُ أعلىٰ ومقدم كلّ شيء وأوله وكلّ ما واجهك، وصدور الوادي: أعاليه ومقادمه.

ورد لفظ الصدر بمعنى صدر الإنسان في أربعة وأربعين موضعاً كلّها كان فيها محلاً للإرادة والشهوات والإيمان والكفر والعلم والمعرفة. ولم يُرَد به الجارحة، وحيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة إلى العقل والعلم، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك، وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب والخوف والرعب. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]؛ أي العقول، كما في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فالتمحيص للقلوب، والتفريق في المبنى والتركيب دليل على افتراق في المعنى لاختلاف الوظيفة، فالصدور مركز الحفظ والذاكرة والإسلام والكفر. والقلوب مراكز العقل والتمييز والتذكير باسترجاع ما في الذاكرة والحافظة التي مقرّها الصدر، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠]، وأدلّ منها قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأعطيت للصدر في القرآن من المحفوظات والعقائد، واقترن بالانشراح ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]. وقد وصفت الصدور بأنها تخفي وتُكِن وتَحْصُر، وهذه الصفات لا تكون إلا لمعارف وعلوم واعتقادات. والصدور محلّ الوسواس: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥]، فالشيطان لا يوحي إلا بمعارف وظنون ليضل، كذلك من صفات الصدر الضيق والغل، وهو مركز الحاجات، والرهبة، والقلب مركز الرعب. وهو محلّ الكِبْر والانشراح والشفاء؛ ووصف القلب بأنه سليم ويمرض، والصدر بالابتلاء والقلب بالتمحيص.

٨- مفهوم الفقه:

(ف ق ه) أصل واحد صحيح، يدلّ على إدراك الشيء والعلم به، وكلّ علمٍ بشيء فهو فقه. ثمّ اختص بكلّ عالم بالحلال والحرام، وغلب على علم الدين لشرفه. فالفقه هو الفهم بالعلم في الصنعة والفطنة والبيان والفهم. وقد ورد في القرآن من مادّة الفقه الفعل لا المصدر في عشرين موضعاً، وهو أخصّ من العلم؛ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]؛ أي ما نفهم وجه استدلالك ولم نقتنع بحججك، وإلا لما قامت عليهم الحجة بخطابه؛ فهم أدركوا معنى كلامه وفهموه؛ لكن لم يقتنعوا بأنه أصحّ ممّا عندهم. والحجة تقوم بالفهم لا بالاقتناع. والفقه من أعمال القلب: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة: ١٢٧]. والتفقّه لم يرد إلا للكلام والقول والحديث ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]. أمّا في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، التفقه طلب للفقه الشرعيّ؛ أي التخصّص لمعرفة الأحكام الشرعيّة. فالآية تحث المسلمين على أن يتفرغ أناس منهم؛ لطلب العلم الشرعيّ ويفقهوا أسراره، ثمّ يُعلِّموا غيرهم، وينذروا قومهم.

٩- مفهوم الفهم:

(ف ه م) علم الشيء. وعرفه بقلبه، وتَفَهَّمَهُ: فهِمَه شيئاً بعد شيء، والفَهْم: تصوّر عميق للمعنى من لفظ المخاطب عند السماع أو الإشارة.

وقد ورد من المادّة الماضي المضعّف في ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فهَّمَه: مكّنه من أن يفهم. وقد خصّ الله تعالىٰ سليمان بفهم الحقّ في الواقعة التي شارك في الحكم بها دون داود، فأعطاه من قوّة الفهم ما أدرك به إصابة الحكم بإلهام إلهيّ أو وحي خصّ به، فالفهم سرعة الفطنة وتوقّدها، وقيل: هو هيئة للنفس يتحقّق به ما يكون حسناً وما يكون غير ذلك؛ بتصوّر الشيء من لفظ المخاطب، فهو تصوّر عميق للمعنىٰ من الخطاب عند السمع أو الإشارة. وقيل إدراك خفيّ دقيق؛ لأن الإدراك في الفهم متفاوت وليس كلّ ما يفهم يعلم بل قد يظنّ ويخمن؛ فهو تصوّر المعنىٰ من لفظ المخاطب، ويسبق في مراتب العلم التذكر، ثمّ الذكر، بعدهما يأتي الفهم الذي يليه الفقه.

١٠- مفهوم الإحاطة:

من حوط (ح و ط) كلمة واحدة، وهو الشيء يطوف بالشيء، من حاطه حوطاً، وحاطه بمعنىٰ: حفظه وصانه وتعهده، والحائط هو الجدار. وأحاط به: علمه، وقد ورد اللفظ بصيغه ثلاثاً وعشرين مرّة في القرآن الكريم علىٰ خمسة أوجه، هي: العلم: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [الجنّ: ٣٨]؛ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والجمع: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩]. والإهلاك: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]. والاحتواء: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٤]. والحفظ: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصّلت: ٥٤]. فالإحاطة هي الإحداق بالشيء والاشتمال عليه،

وهو مأخوذ من الفعل الرباعيّ اللازم والثلاثيّ حوط، فمن الرباعيّ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]؛ والإحاطة بالأمر علماً: أن يعلم وجوده وحسنه وقدره وكيفيّته وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون هو منه وذلك ليس إلا من الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩] فنفي ذلك عنهم، والله أحاط بكلّ شيء علماً دونهم، فتكذيبهم من عجزهم وجهلهم وضعف حجتهم في ردّ القرآن، فلو أحاطوا به علماً وفهموه حقّ فهمه لأذعنوا بالتصديق له، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨] تنبيه على أنّ الصبر التام إنما يقع بعد إحاطة بالشيء علماً، وذلك صعب إلا بفيض إلهيّ.

١١ - مفهوم التمحيص:

من محص (م ح ص) أصل واحد صحيح يدلّ على تخليص شيء وتنقيته. ومحَصَه محصاً: خلّصه من كلّ عيب. ومحص الذهب بالنار: أخلصه مما يشوبه. والتمحيص: التنقية والاختبار والابتلاء. وقد ورد اللفظ مرّتين ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧]. ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فهو تعالى يمحص المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم بابتلائهم بالشدائد. والآية الأخرى فكان التمحيص للقلوب، مصدر المعرفة وذاك بالاختبار؛ فالتمحيص يقال في إبراز شيء عن ما هو متّصل به، وهو هنا كالتزكية والتطهير والفحص، غير أنّ الفحص يقال في إبراز شيء عمّا هو منفصل عنه، والمحص عمّا هو متّصل به.

١٢ - مفهوم التمييز:

من ميز (م ي ز) أصل صحيح يدلّ على تزيُّل شيء من شيء. وميَّزته تمييزاً ومِزتُه مَيْزاً وامتازوا تميز بعضهم من بعض. فميز الشيء فضل بعضه عن البعض، فهو بمعنى الفرز والعزل.

ورد اللفظ في أربعة مواضع بصيغة الفعل فقط، كلّها بمعنى الفرز والعزل، فالتمييز قوّة عقليّة لإدراك الفروق واستيعاب المتشابه. بمعنى أنّ المتكلم يميّز هذا الجنس من سائر الأجناس التي توقع الإبهام. ويبيّن التمييز عند الفقهاء وقت عرفان المضار من المنافع. والتمييز بين المشتبهات نحو ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وفي المختلطات نحو ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩].

١٣ - مفهوم التفكّر:

(ف ك ر) تردد القلب في الشيء، يقال: تفكّر إذا ردَّد قلبه معتبراً. وقيل: إعمال النظر في الشيء؛ ورجلٌ فكِّيرٌ: كثيرُ الإقبال على التفكر. وقد ورد لفظ التفكّر بصيغه ثماني عشرة مرّة، والتفكّر تصرّف القلب بالنظر في الدلائل فيما يمكن أن يحصل له فيه صورة؛ لذا كان الله تعالى منزهاً عن التفكّر في ذاته. ولم يرد في القرآن اللفظ بالمصدر، لكن ما تصرّف منه من أفعال، والتفكّر والتذكّر والتدبّر والتأمل والاستبصار والاعتبار معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتفترق في شيء. وقد نوّع القرآن بين الآيات الآمرة بالتفكّر في ميادين شتى كالخلق، من خلق السموات والأرض وخلق ما بينهما وما فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. كما دعا إلى التفكّر في اختلاف ألوان الناس وتعدّد لغاتهم مع أنّ خلقهم من أصل واحد: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] فجعل الزواج والتناسل وإلقاء المودّة بين طرفين مختلفين من الآيات التي يجب التفكّر فيها.

١٤ - مفهوم التدبّر:

من دبر (د ب ر) أصل واحد، وهو آخر الشيء وخلفه، وتشذ عنه كلمات يسيرة. والدُّبُر خلاف القبل. والتدبير أن يُدبر الإنسان أمره، والتدبير عتق الرجل عبده أو أمته عن دُبُر. والتَّدَبر النظر في عاقبة الأمر. والتفكر فيه. وقد ورد لفظ دبر في ستة وأربعين موضعاً على ستة أوجه، منها: الظهور: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]؛ و﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦]. وأديان الآباء الباطلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ [محمّد: ٢٥]، وعقيب الشيء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٤٠]. والذهاب: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ٣٣]. والأخير: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ أي أصلهم إلى آخرهم. والتفكر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: ٢٤]. وتصريف الأمور: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]. والتدبّر هو النظر في عواقب الأمور، وتدبّر الأمر تأمله، والنظر في أدباره، وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثمّ استعمل في كلّ تأمل. والتدبّر في القرآن ورد بصيغتين "يتدبرون" و"يدبّروا".

١٥ - مفهوم التذكر:

من ذكر (ذ ك ر) أصلان عنهما يتفرّع كلّ الباب. الأول: هو الذَّكَر خلاف الأنثى. والآخر: ذَكَرْتُ الشيء خلاف نسيتُه، ثمّ حصل عليه الذّكر باللسان. والذِّكر: العلاء والشَّرَف، والذِّكر: الحفظ للشيء، والتَّذْكِرة ما يستذكر به الحاجة، والاستذكار الدراسة والحفظ.

ورد لفظ ذكر باشتقاقاته قرابة مائتين وأربع وسبعين مرّة على ثمانية عشر وجهاً، هي: الخبر: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤] والوحي: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]. والقرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. والتوراة: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧]. واللوح المحفوظ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. والبيان: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]؛ والتفكّر: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [ص: ٨٧]؛ والصلاة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. والتوحيد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤]. والشرف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والموعظة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وإظهار الأمر: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ والتذكير بعد البيان: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. والتكلّم: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. والعمل الصالح: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والحفظ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. وقيل: الذكر بمعنى الرسول.

وقد جاء في التصاريف تفسير الذكر على ستة عشر وجهاً في القرآن الكريم وذلك لضرورة تخصيص الدَّلالة تأدية للمعنى المراد، فقد جاء دالاً على الطاعة والعظة والقرآن والبيان والخبر، وجاء بمعنى التفكّر، وجاء من المادّة لفظ "مدّكر"، وبمعنى العلم في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، وبمعنى الدراسة والحفظ في [البقرة: ٦٣]. أمّا التذكير فهو محاولة استرجاع الصور المحفوظة، وهو بالحقيقة التفات النفس إلى عالمها وتكوين صورة له في الذهن يُشهر بها، وضدّه الغفلة والنسيان. والتذكر يسبق الذكر، والتفكر والتذكّر متقاربان، لأنّ التفكّر تأمّل في ما علم، والتذكّر استحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد الذهول عنه أو غيبته كيما يتفكّر فيه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فالتفكّر يُحَصل العلم، والتذكّر يحفظه ويزيده. وكل الصيغ وتراكيب الآيات التي فيها لفظ التذكر تنحصر في بيان أمور العقيدة، والمقارنة بين أهل الإيمان والكفر، والنظر في عواقب الأمور ومحاسبة النفس. وتأتي في الأغلب مرتبطة بأولي الألباب كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

١٦ - مفهوم الحفظ:

(ح ف ظ) أصل واحد يدل على مراعاة الشيء. يقال: حفظت الشيء حفظاً، وحفظ القرآن: استظهره، والله هو الحفيظ: الذي لا يعزب عنه شيء في السموات ولا في الأرض، والملائكة الحفظة: الذين يحصون أعمال العباد من الملائكة. والحفظ نقيض النسيان.

ورد اللفظ باشتقاقاته قرابة أربع وأربعين مرّة على ستة أوجه، هي: العلم: في قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]. والصيانة والعفة: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]. والتعهد والحماية: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات: ٧]. والشفقة: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: ١٢]. والضمان: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف: ٦٣]. والشهادة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠]. فالحفظ ضدّ النسيان، وهو ضبط الشيء في النفس، أو هيئة للنفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، والحفيظ من أسماء الله تعالى وهو الحافظ؛ فعيل بمعنى فاعل، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: ٥٥]؛ والحافظة من أسباب قوّة العقل؛ وضعفها ضعف في الذاكرة ونقص في المعرفة؛ والحفظ استحكام المعقول في العقل، يلي الشعور والإدراك ويعقبه التذكّر والذكر في مراتب وصول العلم. وقد ذم الله من يحفظ ما لا يفهم ولا يعي، حتى وصفوا بالحمار يحمل أسفاراً؛ أي يثقل ظهره بكتب لا يدري ما هي، كما أنّ العلم من غير حفظ بناء على جرف هاو، وضعف في مقام الجدال، وقد ذم من يدّعي العلم وهو لا يستوعب منه إلا الشتات؛ فالعلم ما حوى الصدر لا ما ملأ القِمَطْرُ.

١٧ - مفهوم الوعي:

(و ع ي) كلمة تدلّ على ضمّ شيء. ووعيت العلم أعيه وَعْياً؛ حفظته وجمعته. والوَعْيُ: حفظ القلب، والوَعِيُّ: الحافظ الكيس الفقيه.

ورد باشتقاقاته سبع مرّات على ثلاثة أوجه، هي: الأواني الحافظة:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]. والكتمان: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾ [الانشقاق: ٢٣]. والتدبّر والتذكر: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقّة: ١٢]. فالوعي يأتي بمعنىٰ الجمع والحفظ، وبمعنىٰ الوعاء، الذي يحفظ فيه الحاجيّات من ذلك في الآية: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٨]؛ وجاء بمعنىٰ التفكّر والتدبّر لما يحفظ في سورة الحاقّة: ١٢؛ بمعنىٰ أذن عاقلة لما يقال، حافظة له، فالوعي يجمع بين الحفظ والفهم، وهو أنْ تحفظ في نفسك الشيء بعد علمه وفهمه.

١٨ - مفهوم الوجدان:

(و ج د) يدلّ علىٰ أصل واحد، وَجَدْتُ الضالة وِجْداناً، ووجدت زيداً كريماً: علمتُ. وللوُجْدان دلالة الارتفاع والظهور؛ وَجْدت، من أفعال القلوب بمعنىٰ علمت ويتعدّىٰ إلىٰ مفعولين. وقد ورد لفظ وجد بصيغه في مائة وستة مواضع من القرآن الكريم، وهو علىٰ وجهين: وجدان الضالة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. وعلم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]. ولفظ "وجدنا" من الألفاظ المشتركة التي تدلّ علىٰ أكثر من معنىٰ. والوجود أضرب: وجود بإحدىٰ الحواس الخمس، نحو وجدت طعمه أو صوته. ووجود بقوّة الشهوة نحو وجدت السبع. ووجود بقوّة الغضب كوجود الحزن والسخط. ووجود بوساطة العقل، كمعرفة الله تعالىٰ ومعرفة النبوّة، الوجود فبمعنىٰ العلم.

١٩- مفهوم النسيان:

من نسي (ن س ي) أصلان صحيحان: يدلّ أحدهما على إغفال الشيء، والثاني: على تركه. فالأول نسيت الشيء إذ لم تذكره، نسياناً؛ ومنه النَّسِيُّ، والنّسيان، وهو ضدّ الحفظ. وقد ورد لفظ النسيان بصيغه خمساً وأربعين مرّة على وجهين: الترك: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وضدّ الحفظ: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: ١١٥]. وكلّ نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى؛ فهو ما كان أصله عن تعمّد، وما عُذِرَ فيه لم يكن عن تعمّد، وإذا نسب إلى الله تعالى فهو تركه إياهم، مجازاة لهم بتركهم في جهنم من غير رحمة، كما في ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أمّا ما رفع عنه القلم فهو غيبة الشيء عن القلب بحيث يحتاج إلى تحصيل جديد، وقال بعضهم النسيان: زوال الصورة عن القوّة المدركة مع بقائها في الحافظة.

٢٠- مفهوم السهو:

(س ه و) معظم الباب يدلّ على الغفلة والسكون. فالغفلة، يقال: سَهَوت في الصلاة أَسْهُو سَهْواً. فالسهو غفلة يسيرة كما هو في القوّة الحافظة؛ والنسيان زواله عنها كليّة، إلا أنهم يستعملونها بمعنى واحد تسامحاً منهم. وقد ورد لفظ السهو بصيغه ﴿سَاهُونَ﴾ مرّتين في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: ١١]، و﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: ٥]. فالسهو خطأ عن غفلة وهو على ضربين، أحدهما: أن لا يكون من الإنسان جَوَالبه ومولداته، والثاني أن يكون منه مولداته، وبين السهو والنسيان والغفلة تقارب معانٍ مع فروق

بينهما، فالسهو جعل في غفلة القلب عن الشيء بحيث يتنبّه بأدنى تنبيه، أمّا النسيان فزوال الصورة عن القوّة المدركة مع بقائها في الحافظة، كما لا يكون إلا لِما علم من قبل ويحتاج على تحصيل جديد.

٢١- مفهوم الغفلة:

من غفل (غ ف ل) أصل صحيح يدلّ على ترك الشيء سهواً. وربما كان عن عمد، غفلت عن الشيء غفلة وغفولاً؛ إذا تركته ساهياً. وأغفلته إذا تركته على ذكر منك له. والتَّغافُل والتَّغفُّل: تَعَمَّده، وغَفَّلَه؛ تغفيلا: ستره. وقد ورد في القرآن باشتقاقاته خمساً وثلاثين مرّة، بمعنى السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفّظ والتيقّظ. إمّا للطبع عليه، أو لعقاب أو لنقص في الحافظة. كما أنّ الله تعالى وصف نفسه بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: ٧٤] و[آل عمران: ٩٩]، فالغفلة عدم إدراك الشيء مع وجود ما يقتضيه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: ١٧].

٢٢- مفهوم الشكّ:

(ش ك) أصل واحد، مشتقّ بعضه من بعض، ويدلّ على التداخل، شككْتُه بالرمح؛ إذا طعنته، ومنه الشكّ الذي هو خلاف اليقين، سمّي بذلك كأنّ الشَّاكَّ شَكَّ له الأمران في مَشَكٍّ واحد، وشكَّ الشيء: لصق بعضه ببعض واِتَّصَلَ. وشكّ عليه الأمر: التبس، وارتاب.

وورد في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً، ولا أوجه له في كتب النظائر المتوافرة لنا، أمّا معناه فيدور على أنه أخص من الجهل، ويأتي دائماً مع

الحرفين "في" و"من"، نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٧]. فالشكّ المخالف لليقين هو ما صاحبه حرف المعنى "في"، فإنْ سبق الحرف "في" اللفظ جاء بعد اللفظ حرف المعنى "من" للتبيين أو للجنس؛ لأنّ الشكّ دائماً يكون بين جزئين أو قضيتين. أمّا إنْ سبق لفظ الشكّ حرف المعنى "في" فلا نجد الحرف "من". فالأول يكون اسماً، أمّا الثاني فيكون فعلاً، و"في" هنا تحدّد محلّ الشكّ. و"من" في الصورة الأولى تحدّد الحالة النفسيّة. فالشكّ مخالف لليقين، وقد ورد في القرآن في آيات عدّة، منها: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وكان خلاف الشك ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤]، الحقّ الذي لا مريّة فيه. و﴿أَنَّنَا نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]؛ أي مخيف، وليس كلّ شاكّ مرتاباً والعكس صحيح. ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٣]. فهنا اقتضت همزة الاستفهام تقديم المشكوك فيه على لفظ الشكّ مع حذف الحرف "من" لتحدّد المشكوك فيه.

٢٣- مفهوم الريب:

(ر ي ب) أُصَيْلٌ يدلّ على شكّ وخوف، والرّيب ما رابَك من أمر، وأَرَبْتُه: جعلتُ فيه ريبة؛ ورِبْتُه: أوصَلْتُها إليه. وأَرَابَ الرجل صَارَ ذَا رِيبَة فهو مُرِيب، ورَيْبُ المنون حوادث الدهر.

ورد لفظ الريب باشتقاقاته في سبعة وثلاثين موضعاً على ثلاثة أوجه، هي: الشكّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: ١]. والحوادث: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

نَّرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٢٨]. والحسرة: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]. وكلّ ما جاء في القرآن من ريب فهو شكّ إلا ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٨]، قال تعالى عن كتابة الدين: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة: ٢٨١] فالكتابة أعدل وأحفظ وثيقة بين المتداينين، وهي تدفع الشكّ بينهما وكذا الخوف؛ لأن سبب الكتابة هو الخوف من ضياع مال الدائن كلّه أو جزء منه وهذا الخوف متولّد عن الشكّ في المستدين، في العاجل أو الآجل؛ لذا كان أحسم الطرائق هو توثيق المعاملة الماليّة بينهما بالكتابة والاستشهاد فينقطع الريب. والشك سبب للريب وليس العكس. وهو مبدأ الريب، كما أنّ العلم مبدأ اليقين. فالريب ما لم يبلغ درجة اليقين وإنْ ظهر نوعاً ما. ويقال رابني الأمر ولا يقال: شكني. والريب قد يجيء بمعنى القلق والاضطراب والكذب، فالصدق طمأنينة وسكون النفس للأمر، أمّا الريبة فلا تكون إلا من الكذب، أوما لم يحدّد الحكم عليه فتولد عن ذلك خوف.

ثانياً: مفاهيم الحس

١ – مفهوم الحس:

(ح س) أصلان: فالأول غلبة الشيء، والثاني حكاية صوت عند توجُّع وشبهة. فالأول الحَسُّ: القتل، والحسيس القتيل. وأحسَسْتُ؛ أي عَلِمْتُ بالشيء، والثاني: قولهم حَسَّ. كلمة تقال عند التوجع. وفي القاموس: الحَسُّ: الجلبة، والقتل، والاستئصال، ونفض التراب عن الدابة بالمِحَسَّة. وبالكسر: الحركة، وأن يَمُر بك قريباً فتسمعه ولا تراه، والحَاسُوس:

الجاسوس. وحَوَاس الأرض: البَرْد، والبَرَد، والريح، والجراد، والمواشي. وأحْسَسْتُ وأحْسَيْتُ: ظننت ووجدت وأبصرت وعلمت.

ورد لفظ الحس بصيغه ست مرّات في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هي: القتل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. والإدراك بالحاسة: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]. والبحث: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٨٧]. وأما أحسسته فحقيقته أدركته بحاستي، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]؛ والحس المشترك هو القوّة التي ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة. والإحساس هو إدراك الشيء، مكتنفاً بالعوارض الغريبة واللواحق الماديّة مع حضور المادة ونسبة خاصّة بينهما وبين المدرك. ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وحَسَّ الثلاثيّ له معان ثلاثة، هي: القتل، أو المسح، أو الإلقاء بالحجارة. والإحساس إنْ كان للحسّ الظاهر فهو المشاهدات، وإنْ كان للحسّ الباطن فهو الوجدانيّات.

٢- مفهوم الشعور:

من شعر، (ش ع ر) أصلان معروفان يدلّ أحدهما على نبات، والآخر على عِلْم وعَلَم. فالأول: الشَّعْرُ معروف، والجمع أشعار. والواحدة شَعْرة، والشَّعَار الشجر إذا ملأ الأرض. منه: داهية شَعْراء وداهية وَبْرَاء. والباب الآخر: الشِّعَار الذي يتنادى به القوم في الحرب ليعرف بعضهم بعضاً. والأصل قولهم شَعَرت بالشيء إذا علمته وفطنت له، وليت شِعْرِي أي ليتني علمت. أصله من الشعر كالدُربة والفطنة، ويقال سمّي الشاعر بذلك لأنه

يفطن لما لا يفطن له غيره. والشَّعِيرَة واحد الشعائر وهي أعلام الحج وأعماله. والشعور هو العلم والعقل والفهم والدراية والإدراك بالحواس.

ورد لفظ الشعور باشتقاقاته في خمسة وأربعين موضعاً على خمسة أوجه، هي: ما نَمَا على البشرة: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: ٨٠] والصناعة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، والإدراك: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩]؛ والكذب: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]. ومعالم الدين: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وقد ورد بدلالة المعرفة بصيغة الفعل فقط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]؛ لأنّ المؤمنين إذا أخبرهم الله تعالى بأنهم أحياء علموا أنهم أحياء، فلا يجوز أن ينفي عنهم العلم، ويجوز أن يقال: ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾ لأنه ليس كلّ ما علموه يشعرون به، وكم من أمر يقع ولا يحس به ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥]، وهذا كلّه يتضمّن أصله اللغويّ. فالشِّعر اسم للعلم الدقيق المستشعر أولاً، غير أنّ قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، حمله المفسرون على أنهم رموه بالشعر المنظوم المقفّى، ورموه بالكذب فإنّ الشعر يعبّر به عن الكذب والشاعر الكاذب، ولهذا قال تعالى في وصف عامة الشعراء ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

٣- مفهوم الإيجاس:

من وجس، (و ج س) كلمة تدلّ على إحساس بشيء، وتَسَمُّع له. تَوَجَّسَ الشيء: أحَسَّ به فتسمَّع له. والوَجْسُ: الفزع يقع في القلب، والواجِس:

الهاجس، وتوَجَّس الطعام: تذوّقه قليلاً.

ورد اللفظ بصيغة الماضي ثلاث مرّات في القرآن الكريم، بمعنىٰ الإحساس بالفزع أو الخوف أو بما يقع في القلب منه فيشعر به ويضمره ولا يظهره، وقد ورد في [هود: ٧٠] و[طه: ٦٧] و[الذاريات: ٢٨] ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ كلّها مقرونة بالخوف المضمر، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]. لأن الهاجس مبتدأ التفكير، ثمّ يكون الواجس الخاطر.

٤ - مفهوم الإيناس:

من أنس، (أ ن س) أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكلّ شيء خالف طريقة التوحّش، يقال: آنَسْتُ الشيء إذا رأيته أو سمعته. آنسه ضدّ أوحشه، والأنيس: المؤانس، وكلّ ما يُؤْنَسُ به. وقد ورد فعل آنس سبع مرّات في القرآن الكريم، أربع منها في النار التي آنسها موسىٰ عليه السلام إذ سار بأهله في البرية: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]. والإيناس في تكلّم الآيات: الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه، ومنه "إنسان" لأنه يتبيّنُ به الشيء، والإنس لظهورهم، والجنّ لاستتارهم، وقيل هو إبصار ما يُؤْنَسُ به. ومن الإيناس بمعنىٰ العِلم جاء بصيغة الماضي ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦]. فالإيناس يأتي بمعنىٰ الرؤية، كما يأتي بمعنىٰ العلم والألفة والاستئذان والإحساس. وقيل سمّي بذلك لأنه يأنس بكلّ ما يألفه، فالاستئناس هو الأنس الحاصل من جهة المجالسة، وهو خلاف الوحشة.

٥- مفهوم اللمس:

(ل م س) أصل واحد يدلّ على تطلب شيء، تلمّست الشيء، إذا تطلَّبته بيدك. واللمس أصله باليد ليعرف مَسُّ الشيء، ثمّ كثُرَ ذلك حتى صار كلُّ طالب مُلتمِساً، ولَمَسْتُ إذا مَسَسْتُ، ولمس الجارية: جامعها، والِتمس، وتَلَمَّس: تطلّب مرّة بعد أخرى. وقد ورد لفظ اللمس خمس مرات في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هي: الطلب: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجنّ: ٨]، ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. والتحسّس بالجارحة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]. والجماع: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، و[المائدة: ٦]، فاللمس إدراك بظاهر البشرة كالمسّ، ويُعَبَّر به عن الطلب، ويُكَنَّى به وبالملامسة عن الجماع، وقرئ لمستم ولامستم حملاً على المسّ وعلى الجماع.

٦- مفهوم اليد:

(ي د) أصل بناء اليد للإنسان وغيره، ويستعار في المِنَّة، فيقال: له عليه يدٌ. ويجمع على الأيادي واليَدُ: القوّة، وقد ورد لفظ اليد باشتقاقاته في مائة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم على ستة أوجه، هي: الجارحة: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [المائدة: ١١]. والمِلك: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، والقوّة: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]. والندم: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. والكرم والإنعام: ﴿بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

فاليد غالب دَلالتها على الجارحة، واستعيرت اليَدُ للنعمة والقوّة، كما نسبت أفعال الإنسان وجرائره كلّها إلى اليد على جهة التغليب ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ١٠]، وقوله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فنسبته إلى أيديهم تنبيه على أنهم اختلقوه ذلك، كنسبة القول إلى أفواههم في قوله عزّ وجلّ ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة : ٣٠] تنبيهاً على اختلافهم. كما دلّت اليد أيضاً على القوّة والقدرة والسلطان والجاه والوقار والحفظ والنصر والإحسان، كلّها أوصاف لأعمال اليد.

٧- مفهوم المسّ:

(م س) أصل صحيح واحد يدلّ على جَسّ الشيء باليد. ومَسِسْتُه أَمَسُّهُ. والممسُوس: الذي به مَسٌّ كأن الجِنّ مسَّته، والمَسوس من الماء: ما نالته الأيدي. وفي القاموس: مَسِستُه أَمَسُّهُ مَسّاً ومسيساً ومِسِّيسَى. وحاجة ماسَّة: مهمّة، وقد مَسَّتْ إليه الحاجة. ولا مِسَاس: لا تَمَسَّ.

ورد لفظ مس باشتقاقاته وصيغة في قرابة واحد وستين موضعاً من القرآن الكريم على أربعة أوجه، هي: الجماع: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والإصابة: ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥]. والخَبَل: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. والتقاء البشرة: ﴿قَالَ

فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]. فالمس هو التقاء البشرتين، والمسك باليد، وكني به عن النكاح. وعن الجنون، وعن كلّ ما ينال الإنسانَ من أذىً. وجاء في القرآن كناية عن الجماع، بصيغة: "يتماسا"، "تمسوهن"، "يمسسني"، والتقاء البشرتين "مساس"، والجنون "المس".

٨- مفهوم السمع:

(س م ع) أصل واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن من الناس، وكلّ ذي أذن، والأذن وما وقر فيها من شيء تسمعه. والسَّمْع قوّة إدراك الأصوات، ويعبّر به عن الجارحة والفهم والطاعة.

ورد لفظ السمع بصيغه واشتقاقاته مائة وخمساً وثمانين مرّة، على وجهين: إدراك الأصوات: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، والإيمان بالقلب: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١﴾ [الأنفال: ٢١]، فالسمع قوّة في الأذن قد تؤدي إلى الفهم، وقد لا يوصل إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾ [الأحقاف: ٢٦]. ويعبّر عن الأذن والإفهام والطاعة وعن فعل السماع بالسمع؛ نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، وكلّ نفي للسمع فهو نفي للاستجابة لا لإدراك الأصوات؛ لأن الثاني تسقط به الكلفة ولا مقام للحجيّة على المخاطب الأصم؛ لذا وصف الله تعالى من لا يستجيب له ولا لأنبيائه بالميت ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢]، فالسمع أربعة أنواع، هي: سمع الإدراك، متعلّق بالأصوات، وسمع الفهم والعقل: متعلّق بالمعاني، وسمع الإجابة، وسمع القبول

والانقياد: ويتعدّىٰ بـ"من" و"اللام".

٩- مفهوم الإنصات:

من نصت (ن ص ت) كلمة واحدة، تدلّ علىٰ السكوت، وأنصَتَ لاستماع الحديث، ونَصَتَ يَنْصِت. وأَنْصَتَه: سكت واسْتَمَعَ لحديثه. وقد ورد اللفظ بصيغة الأمر مرّتين في القرآن الكريم، هما: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]. فآية الأحقاف فيها الأمر بالاستماع والإنصات، والفرق بينهما أنّ الإنصات في الظاهر بترك التحدّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، أمّا الاستماع بأن يُلقي سمعه ويحضر قلبه ويتدبّر ما يستمع إليه، ومن لازم هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب الله ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً وإيماناً مستمراً متجدّداً؛ لهذا رتّب سبحانه حصول الرحمة عليهما. فالإنصات أخصّ من الاستماع، ويكون بتوجيه النفس والفكر والتركيز علىٰ شيء واحد للتدبّر فيه.

١٠- مفهوم الصمم:

من صمّ، (ص م) أصل يدلّ علىٰ تضامٍّ الشيء وزوال الخرق، منه الصَّمَم في الأذن، وهو انسداد الأذن وثقل السمع. وقد ورد لفظ الصم بصيغه خمس عشرة مرّة علىٰ وجهين: انسداد الأذن: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]. وترك الإصغاء إلىٰ الحقّ: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: ٧١]. فالصمم فقدان حاسة السمع، وبه يوصف من لا يصغي إلىٰ

الحقّ ولا يقبله، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]. وغالباً ما جمع النفي لحاسة السمع؛ فكلّ صمم في القرآن فهو عن سماع الإيمان، والقرآن خاصّة، والحقّ، إلا في [الإسراء: ٩٧]، و[هود: ٢٤].

١١- مفهوم الأذن:

(أ ذ ن) أصلان متقاربان في المعنى متباعدان في اللفظ. أحدهما: أُذُنُ جارحة، والآخر: العِلم. وعنهما يتفرّع الباب كلّه، فأمّا التقارب فبالأذن يقع علم كلّ مسموع، والأُذُن معروفة، وتقال للرجل السامع من كلّ أحد أُذُن، والأصل الآخر: العلم والإعلام. تقول العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمر؛ أي علمت. وآذَنَنِي فلان أعلمني والمصدر الإِذْن والإِيذَان. والأذان وهو اسم التأذين.

ورد لفظ أذن مائة مرة وواحدة، في ثماني عشرة منها كانت بمعنى الأذن الجارحة، ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، والسَّمَّاع لكلّ أحد: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]. والمناداة: ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]. والعلم أو الأمر: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨]. والإِذْن أصله العلم والسَّمع، وجاء في القرآن بأكثر من صيغة دالاً على معنى الإعلام والإخبار ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، والإيذان: هو إيقاع الخَبَر في الأُذُن، ويقال: آذنتك بالأمر فأَذِنْتَ، أعلمتك فعلمت. والأذان والأذن: الإصغاء لِما يسمع ويحصل بوساطته كثير من العلم، حتى صار

كالمبدأ فيه أمّا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]؛ وقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، إشارة إلىٰ جهلهم لا إلىٰ عدم سمعهم، فليسوا بصم معطّلين عن إدراك الأصوات، بل هم معطلين عن الاستجابة لما يسمعون.

١٢ - مفهوم البصر:

(ب ص ر) أصلان أحدهما العلم بالشيء، يقال: هو بَصِيْر به. والبصيرة: البرهان. وأصل ذلك وضوح الشيء. يقال: بَصُرْتُ بالشيء إذا صرت به بَصيراً عالماً، وأبْصرتُه إذا رأيته. أمّا الأصل الآخر منه البَصْرُ: وهو أن يضمّ أديم إلىٰ أديم، يخاطان كما تخاط حاشية الثوب، والبَصْرَة فالحجارة الرخوة. والبَصَرُ حس العين، والبَصِيرَة عقيدة القلب والفطنة والحجة. واسْتَبْصَرَ: استبان، والتَّبَصُر: التأمل والتَّعَرُّف. والبصيرة هي تكامل العلم والمعرفة بالشيء.

وقد ورد لفظ البصر بصيغه مائة وخمسين مرّة في القرآن الكريم؛ حيث ورد مصدراً وفعلاً بكلّ تصاريفه، وكان علىٰ أربعة أوجه، هي: بصر القلب: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٣]. وبصر العين: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، والحجة: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٥]؛ والاعتبار: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، ويتعدّىٰ فعله بالباء ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]؛ أي علمت ما لم يعلموا. والبصيرة في اللغة علىٰ أضرب: العليم الخبير بالشيء، ولم يرد بهذا المعنىٰ في القرآن إلا مختصّاً بالله تعالىٰ في اثنتين وأربعين آية، اقترن بأسماء وصفات أخرىٰ، هي: السميع: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]،

والخبير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٣١]، والأعمال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥] فالسمع ربط بالأقوال، والبصر ربط بالأفعال الظاهرة والباطنة، لكن الباطنة غالباً ربطت بالعليم والخبير كما في آية: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

١٣ - مفهوم الرؤية:

(ر أ ي) أصل يدلّ على نظر وإبصار بعين، أو بصيرة؛ فالرأي: ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء، وتراءى: القوم إذا رأى بعضهم بعضاً. والرؤية: النظر بالعين وبالقلب. ورأيتُه رُؤْية ورَأْياً، والرُّؤْيَا ما رأيته في منامك. ورَأَيْتُه: أبصرته، وتأتي بمعنى: الظنّ والعِلْم فتتعدّى إلى مفعولين. تقول: رأيت زيداً خارجاً؛ أي: ظننت زيداً خارجاً، وبمعنى العلم: رأيت زيداً منطلقاً، والرأي هو الفكرة والاعتقاد.

ورد لفظ الرأي بصيغه واشتقاقاته ثلاثمائة وتسعٍ وعشرين مرّة في القرآن الكريم على ستة أوجه، هي: العلم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، والمعاينة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. والنظر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ٥١] والخبر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٣٥٨]؛ والعبرة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ والسمع: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وأصل الرؤية النظر بالعين والقلب، والرأي مصدر، رأى الشيء يراه رأياً ورؤية، ويفرق بينهما أنّ رأى البصريّة تنصب مفعولاً واحداً، ورأى

القلبيّة تنصب مفعولين. والرؤيا في النوم، والرؤية في اليقظة، والرأي يعلم بالقلب ولا يُرىٰ بالعين. وقد وردت ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنىٰ رؤية القلب؛ بمعنىٰ العلم والإدراك كذلك، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقال: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] والوهم نحو ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]. والتفكّر ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقد يصح الرؤية البصريّة. وبالعقل ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١].

١٤ - مفهوم النظر:

(ن ظ ر) أصل صحيح يرجع فروعه إلىٰ معنىٰ واحد، وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثمّ يُستعار ويُتَّسع فيه، فيقال: نظرت إلىٰ الشيء أنظر إليه إذا عاينته، ونَظَرتُه؛ أي انتظرته، والنَاظُر: العين، والنَاظران: عرقان علىٰ حرْفَي الأنف. والنَّظَرُ: محركة الفكر في الشيء تُقَدِّره وتقِيسُه؛ ونظر إلىٰ الشيء: أبصره، ونظر في الأمر تفكّر فيه، وأحاطه حفظاً وتأملاً.

ورد لفظ نظر بصيغه واشتقاقاته مائة وتسع وثلاثين مرّة علىٰ أربعة أوجه، هي: الرحمة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [آل عمران: ٨٨]. والانتظار: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس: ٤٩]. والاعتبار: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]. والرؤية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]. فالنظر هو الإقبال علىٰ الشيء بالبصر، ومن ذلك النظر بالقلب؛ والانتظار: الإقبال علىٰ الشيء بالتوقّع له. والرؤية وإدراك المرئيّ، فقد تنظر إلىٰ الشيء ولا تراه، وقد تنظر إليه وتتأمله كأنك تفحصه بنظرك من البصر أو البصيرة.

وأكثر ما جاء من مادّته في القرآن "البصر والبصيرة" لأنه يؤدي إلى التفكّر والتدبّر. لكن ورد في مادّته معان أخرى كالانتظار والأنظار ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]. وجاء معنى النظر بالبصيرة في آيات كثيرة، منها: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، و[الأنعام: ١١] و[يونس: ١٠١]. وهو هنا تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، قد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرَّويّة.

١٥ - مفهوم المشاهدة:

من شهد، (ش ه د) أصل يدلّ على حضور وعلم وإعلام، يقال: شهِد يشهد شهادة، والمشهد: محضر الناس. والشُّهود: جمع الشاهد، والشاهد: اللسان والملَك. وشهِد: بيَّن وأعلم لمن الحقّ، وعلى من هو. والشَّهيد: الشاهد، والأمين في شهادة، والذي لا يغيب عن علمه شيء، والقتيل في سبيل الله لأن ملائكة الرحمة تشهده أو تشهد له، والشهادة: الخبر القاطع. ورد لفظ شهد بصيغة واشتقاقاته مائة وستين مرة على سبعة أوجه، هي: الشهيد بالبلاغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. والملك الحافظ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]. وأمّة محمّد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والقتيل في سبيل الله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [النساء: ٦٩]. والحاضر: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

[النساء: ٧٢] والشاهد المبين للحقّ: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]. والشركاء: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. وأصل الشهادة في اللغة من الحضور والشهود، والمعاينة، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: ٧]؛ وتكون الشهادة بالبصر أو البصيرة، والشهيد هو المحتضر؛ سمّي بذلك لحضور الملائكة إياه. والشاهد غير الحاضر؛ لأن الشاهد يلزمه العلم بما يشهد عليه على غير الحاضر.

١٦ - مفهوم العمى:

العين والميم وحرف العلّة أصل واحد يدلّ على ستر وتغطية. العمى: ذهاب البصر من العينين، ورجل أَعْمى، وامرأة عَمْيَاء، وقوم عمون. ويقولون في هذا المعنى: ما أعماه، ولا يقولون ذلك في عمى البصر. وقد ورد لفظ عمى بصيغه واشتقاقاته ثلاثاً وثلاثين مرّة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه، هي: عمى القلب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر: ١٩]. وعمى البصر: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: ٢]، ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]. وأعمى عن الحجة: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

١٧ - مفهوم العين:

(ع ي ن) أصل واحد، يدلّ على عضو، يبصر وينظر. قال الخليل: العَيْنُ الناظرة لكلّ ذي بصر، وتجمع على أعيُن وعُيُون وأَعْيَان، ومن الباب: العَيْنُ الذي تبعثه يتجسس الخبر، والجارية النابعة من عيون الماء، ولقيته عِيَاناً: معاينة لم يشكّ في رؤيته إياه. والعِينُ بالكسر: بقر الوحش، والأَعْيَنُ: ثوره.

ورد لفظ العين بصيغه خمساً وستين مرّة على ثلاثة أوجه، هي: الجارحة: ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤]. ومنبع الماء: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]. والحفظ والرعاية: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]. وتطلق على الباصرة ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

الباب الثاني

العلم والمعرفة في القرآن الكريم

الفصل الأول:

المعرفة في القرآن الكريم

أولاً: تعريف المعرفة:

أورد التهانويّ جملة تعريفات للمعرفة، يمكن تلخيصها فيما يأتي: العلم بمعنى الإدراك مطلقاً، تصوّراً كان أم تصديقاً. وإدراك البسيط تصوّراً للماهيّة، أو تصديقاً بأحوالها. وإدراك المركب، سواء كان تصوّراً أم تصديقاً. وإدراك الجزئيّ، والكلي مفهوماً كان أم حكماً. وإدراك الجزئيّ عن دليل. وإدراك بعد جهل.

١ - التعريف اللغويّ للمعرفة:

قال ابن فارس: عرف أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على تتابع الشيء، متصلاً بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة. والمعرفة ضدّ النكرة، وتُجمع على معارف، ويأتي اللفظ في معرض المدح بِجَوْدَة الرأي، وحِدَّة الفطنة، وشدّة الذكاء.

٢ - التعريف الاصطلاحيّ في العرف:

كلّ اسم خصّ واحداً بعينه من جنسه، فهو معرفة؛ أي ما وُضع ليدلّ على شيء بعينه، كالمضمرات، والأعلام، والمبهمات، وما حُلِّي بالألف واللام. وهي أول فرض افترضه الله على خلقه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالمراد المعرفة الإيمانيّة. وعند أهل الكلام والمنطق: المعرفة تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخللهما

عدم، وتقال لحصول صورة الشيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت، ولإدراك الكليّ والمركّب.

٣- التعريف الاصطلاحي في الشرع:

ورد لفظ المعرفة في القرآن في أربعة وعشرين موضعاً، وتكرّر سبعاً وستين مرّة بصيغه، وأكثر ما جاء من هذه المادّة ما يدلّ على "المعرفة الحسيّة التي تقع على الصفة الظاهرة وتميّزها". قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ أي يعرفونه ﷺ، بنعته وصفته بين غلمانهم، وضدّ المعرفة الإنكار، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩]. ولكن اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمّد: ٦] بمعنى طيّبها وزينها، وقيل: بيّنها وعرّفها، وعلى المعنى الثاني لا تخرج عن مدلولها اللغويّ. وبالتأمل في آيات "المعرفة"؛ نجد أن لها خصائص تميّزها في المعنى والاستعمالات اللغويّة. فهي ترد في القرآن على أنها إدراك مكتسب بدليل أو علامة، كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقوله: "﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. والسِّمة هي العلامة، وتكون الأدلّة ظاهرة على المعرفة، سواء أكانت عقليّة أم نقليّة، فهذه المعرفة علم عن دليل خبريّ أو سمعيّ، أمّا المعرفة عن أدلة عقليّة ففي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ويمكن ضمها إلى الإدراك الحسيّ، مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

ثانياً: طبيعة المعرفة:

١- مفهوم طبيعة المعرفة:

المعرفة صفة للحيّ، وهي علاقة تقوم بين ذات عارفة وموضوع معروف، فالمراد من "طبيعة المعرفة" تحديد تلك العلاقة وبيان عمليّة المعرفة، والعلاقة بين الإنسان وما يحيط به من خلال عناصر ثلاثة، هي: وجود عالم خارجيّ، وواقع من حوله، وجود ذهن خاصّ به "نفسه". وهذه العلاقة المعرفيّة، مرتبطة بغاية الوجود الإنسانيّ على وجه الأرض، وقضيّة بقائه، فالمعرفة إذن لازمة من لوازم الوجود، وتقوم هذه العلاقة في وعي الإنسان المميّز، وقد تتّخذ شكل الأفكار أو العقائد عند الإنسان، وما يهمنا هنا هو علاقة المعرفة بالوجود؟ وأيهما أسبق؛ الماهيّة أم الوجود؟ وإذا كانت مكتسبة فهل نعرف الماهيّة، أم نعرف الصور، أم المثال؟ ومن ثمة: فهل هو تعرّف الكليّات أم الجزئيات؟ وأين تكون هذه الكليّات؟ وما نوع وجودها؟ ثمّ ما أدوات كسب المعرفة؟ وكيف نكتسبها؟

٢- طبيعة المعرفة في القرآن الكريم:

مما سبق نقول: إنّ المعرفة في القرآن الكريم هي: المعلومات والمفاهيم اليقينيّة، والأحكام والمدركات والتصوّرات الجازمة التي نكوّنها، أو نتوصّل إليها عن شيء ما، نتيجة ما نتلقاه عن طريق الحسّ أو العقل، أو عن طريقهما جميعاً. وهي العلم اليقينيّ، الذي ينكشف فيه المعلوم؛ انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتّسع القلب لتقدير ذلك.

أ- أصل المعرفة:

كلّ شيء مَرَدُّه إلى الله سبحانه، إيجاداً وخلقاً وأمراً، كونيّاً أم شرعيّاً. والمعرفة مخلوقة لله تعالى، ونعمة منه، يَمُنّ بها على الإنسان بما خلق فيه من استعدادات لها؛ من فطرة تبحث عن الحقّ، وأدوات لتحصيل المعرفة؛ أي إنّ الله عزّ وجل جعل سنته تتكرّر؛ بحيث إذا نظر الإنسان أو إذا تحققت شروط معرفته حصلت له هذه المعرفة بتمام أركانها وشروطها. فالإنسان مدين لله في خلقه وتعليمه. ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فحصول المعرفة يكون بالنظر والعلم، فتوافر السبب، مع توافر شروطه وانتفاء موانعه يوفر المسبب، وإلا سقطت القوانين الكونيّة وفسدت حياة الناس، وما خالف نادراً لا يقاس عليه؛ لأنّ الأولى البقاء على الأصل، والكيس لا يقيس على الشاذ.

والخلاف حول حصول العلم بين الفرق الإسلاميّة منبثق من الاختلاف في فهم الآيات الكريمة التي تتحدّث عن أصل المعرفة الإنسانيّة؛ تلك المعرفة التي علّمها الله سبحانه لأوّل مخلوق من البشر وهو آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]. وتحدّي الله للملائكة بما لم يعطوا، دلالة على امتياز آدم عليهم بزيادة علم، والامتحان دلالة على كرامة آدم، وجلالة الله وقدرته، وهذا يعني أنّ المعرفة متوقّفة على معلومات مسبقة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بوضوح ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فالمنبع الرئيس للمعرفة المعلومات السابقة التي

رُكِبت في الإنسان الأوّل، وهي أصل المعرفة.

ب- المعرفة المكتسبة والضروريّة:

ممّا حاول العلماء طرحه عمّا تعلّمه آدم: هل لقّنه الله العلم كلّه أم أصول المعرفة؟ هل كانت طريقة تعليمه إياه بإلقاء العلم الضروريّ في نفسه مع خلق القدرة على النطق، ومن ثمّ تكون اللغة أو المعرفة تلقينيّة، أو تعليميّة، وما طريقة التعليم أو تكوين اللغة واستقاء المعرفة الأولى؟

- المعارف الأولى للإنسان الأول:

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]؛ فيها دلالة أنّ الله سبحانه علّم آدم اللغة الدالّة على حقائق الأشياء، أو صورها الذهنيّة المأخوذة عن وجودها. لأنّ الاسم من المفهومات التي يتوقّف تعقلها على تعقل مسمّاها؛ ولا يكون الاسم بلا مسمّى، فلا بدّ أن يُتصوّر المسمّى أوّلا، فإدراك الاسم متضمّناً لإدراك مسمّاه، وفهم المسميات من فهم المراد بأسمائها، فالأسماء لا تلقى إلا على مسميّات؛ سواء كانت عيناً قائمة بذاتها، أم صفة في غيرها، فالتسمية تطلق على صفات وخصائص ما؛ بحيث إذا ما ذكر الاسم تواردت صفاته وخصائصه تلقائيّاً.

والدَّلالة نوعان: لفظيّة؛ وغير اللفظيّة، وكل منهما ثلاثة أنواع: وضعيّة، وعقليّة، وطبيعيّة (عاديّة).

- المعارف البشريّة بعد المعارف الأصليّة:

لا يشترط في المعرفة المكتسبة أن تكون كلّها قائمة على الأدلّة المنطقيّة، وهذا لا يعني إبطال عمل العقل في المعرفة، ولكن الفطرة أعمّ من أن تتقيّد في تحصيلها

للمعرفة بالدليل المنطقيّ؛ المرتّب والمركّب من مقدمات منطقيّة، فقد تكون هذه الأدلّة على أوضح ما تكون، ومعَ ذلك ينكر الشخص معرفته بالحقيقة.

وللفطرة من الاستعدادات للتوجّه نحو الخير ما يعينها على إدراك الحقّ والميل نحوه، فلها منطقها الذي هو أعمّ من منطق العقل المقنّن. وهذا ما نلمحه في الأدلّة التي أقامها الله سبحانه وتعالى على وحدانيّته؛ حيث كانت على وجهين، الأولى: أدلّة كونيّة، تدرك بطريق النظر في الآفاق، وأدلة كونيّة تدرك بالنظر في الأنفس؛ إذ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، فجمع سبحانه بين نظر الأنفس إلى ذاتها وإلى الأدلّة الكونيّة في الخارج، ومن ثمّ فإنّ وجود الأدلّة غير كاف للمعرفة ما لم يحصل التوجّه من النفس نحو الإفادة من هذه الأدلّة لتحصيل العلم والمعرفة أو الإيمان، فمن طمس على بصيرته بالمعاصي وتعطّلت عنده أجهزة الاستقبال الفطريّة والاستعداد للانتفاع بالدليل والإفادة منه لا ينفع إقامة الأدلّة عليه، ولا يحصل عنده علم، سوى أن يكون حجّة عليه لا غير.

ولعلّ استعمال القرآن في كثير من آياته كلمة "لعل" في باب المعرفة يدلّ على أنّ "وجود الشروط الخارجيّة لاكتساب المعرفة قد لا يعني أن يتعلّم الإنسان بحكم الضرورة، وأن يصل إلى الحقيقة، فالمعرفة العقليّة التي يستطيع الإنسان اكتسابها تعتمد على قابليّة الاستقبال لها". ولكي نفهم مراتب حصول المعرفة كما وردت في القرآن علينا أن نقسّمها على حسب المراتب العامّة للهداية وإقامة الحجّة، أو مدارك الناس الدنيويّة، ومقامها السمع

والبصر والعقل، ثمّ يليه الهداية الثانية؛ ومردّها إلى الهدي الربانيّ. وهذه مقامات متصاعدة درجات يقابلها مقامات متنازلة دركات في من أضله الله.

فحصول العلم له علاقة بتوجّه النفس أو الإرادة، نحو الإفادة من الحقّ، وبالدليل الذي هو منّة من الله تعالى، فحصول المعرفة الأولى لإقامة الحجة لازم وقطعيّ، وحصول المعرفة الثانية للاهتداء لازم متعلّق بميل النفس نحوه، ثمّ حصول المعرفة الثالثة بزيادة الهدى والإيمان والتقوى لازم عن الثانية، وهو من عند الله لا دخل للإنسان به، إلا اتخاذ أسباب المعرفة الثانية، أمّا الأولى؛ فقدّر الله بأن منحه القدرة والإرادة، فكان مخيّراً، وفي الثالثة كانت مِنَّة وزيادة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فهذا مقام المعرفة الأوّل، وهو بيان لا يستثنى فيها أحد إلا من رفع عنه القلم.

والعلوم الدنيويّة المقصد منها قسمان؛ الأول في الدنيا، ويحصل للمؤمن وللكافر باتخاذ أسباب الحصول عليه التي سخّرها الله للناس جميعاً، إلا أنّ للمؤمن زيادة فضل في الأجر الدنيويّ بالأخرويّ، والتوفيق أكثر إن اتخذ تلك الأسباب. أمّا المقصد الثاني وهو الأخرويّ فالكافر محروم منه، والمؤمن كلّما أدرك مقوّمات السير في الأرض زاد إيماناً، وارتفعت درجاته في الآخرة. وهذا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

والتمكّن من كلّ شيء لا يكون إلا بتوافر شرطين: القدرة والحكمة. والقدرة تكون في توافر الأسباب الماديّة الأولى من مواد وطاقات بشريّة، وقدرات أمنيّة لحماية المقدّرات، أمّا الحكمة فتكون بتوافر المعرفة والعلم،

وحسن استعمالها، والتسيير الجيد، والاستغلال الكامل. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالاستخلاف في الأرض له غاية تكمن في العبوديّة، بينما طبيعة المعرفة في المفهوم الفلسفيّ بشريّة ماديّة، وعلى ذلك فإنّ أعلى أنواع المعرفة في المفهوم القرآنيّ هو الإيمان بالله ويقابله الكفر؛ فالقرآن يتناول مسألة المعرفة مع القلب واللبّ والفؤاد أكثر من غيره؛ ليدلّ على أنّ المقصد ليس المعرفة العقليّة النظريّة البعيدة عن هدى الفطرة واستعداداتها.

ومن هنا نرى أنّ عمليّة البحث عن المعرفة تتعاون فيها وسائل الحسّ الظاهرة والباطنة، والأدوات التي تستخدمها الحواس، وموازين العقل الفطريّة والمكتسبة، ومعارفه السابقة التي اكتسبها بنفسه والتي تلقاها عن غيره مما اكتسبه الآخرون، يضاف إلى ذلك الوحي، فتكون المعارف ما بين فطريّ وضروريّ ونظريّ، والأوّل خُلق في الإنسان منذ ولادته لا تغيير لأصله، والثاني: ما يكون إدراك الشيء فيه ضروريّاً؛ بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال، ويمثل القضايا الأوليّة، أمّا الثالث: ما يكون الإدراك فيه يحتاج إلى نظر واستدلال وإعمال الذهن، كالعلم بأنواع المعارف والعلوم، فالحسّ مثلاً يُشعر بلذع النار، فيُكوِّن ذلك لدى الإنسان خبرةً ما حول النار، وهكذا تتوارد التجارب في حياة الإنسان، ويكتسب منها معارف عن طريق الإحساس المباشر للظاهرة. وهذه الحواس هي بمثابة منافذ للفكر على العالم الماديّ المحسوس. ثمّ تنقل تلك المعارف إلى منطقة الإدراك الفكريّ، وتسجّل

الذاكرة ما تؤكّده الحواس بالتجربة، وبعد ذلك يبدأ الفكر عمله فيما سجّلته الحافظة من صور، كما يستفيد الفكر من المعارف السابقة لبناء فكره وتطويره.

والقرآن الكريم يقرّ بمعارف السابقين، ويدعو إلى إقامة وحدة لمعارف الوحي بين أتباع الرسل، وذلك بالاعتماد على أسلوبيّ التصديق والهيمنة، بأن يوافق كلّ معرفة لم يطرأ عليها تحريف أو انتحال، ثمّ الهيمنة عليها بما ورد فيه. فالمعرفة في أصلها طارئة مع حدوث أدواتها ووسائلها الداخليّة والخارجيّة، والإنسان أوتي استعداداً وقابليّة للعلم، لكن العلم صفة طارئة لا ذاتيّة فيه، بمعنى أنّ "العلم وإن كان صفة للإنسان؛ إلا أنه ليس عنصراً ذاتيّاً فيه، ولكنه معنى قائم بالعالِم."

ت- المعرفة القرآنيّة معرفة خصائص لا ماهيّة:

يرى بعض الباحثين أن الفلسفة مستوى من التعميم يحاول أن يردّ مفردات القيم السلوكيّة والمعارف والعلوم على اختلافها إلى قمّة واحدة، ومهمتها استخراج ما هو مضمر في أحكامنا واعتقاداتنا لننقلها من حالة الكمون إلى حالة العلن، ويظنّ البعض أنّ هذا التحديد لمعنى الفلسفة يقود إلى الزعم الصادق بأنّ للتفكير الفلسفيّ علاقة وثيقة بالدين، وأنّ الفلسفة نشأت في صورة نقدٍ فكريّ للمعتقدات الدينيّة والأخلاقيّة.

يرشدنا القرآن الكريم إلى الحقائق الظاهرة التي نستفيد منها في العلم والعمل، فكلّ مسألة لا ينبي عليها عمل لا يستحسن الخوض فيها، والدليل من القرآن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:

١٨٩]، فوقع الجواب بما يتعلّق به العمل؛ إعراضاً عمّا قصده السائل من السؤال عن الهلال: لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط، ثمّ يمتلئ حتى يصير بدراً، ثمّ يعود إلى حالته الأولى؟ ومن الأدلّة كذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٥١]، وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فحقيقة الأشياء وكنهها وماهيّتها لا يعلمها إلا الله سبحانه، ومن ثمّ كان تميُّز منهج البحث الإسلاميّ أنه اعترف بوجود الأشياء في عالميّ الغيب والشهادة، وجعل في إمكان الكينونة العارفة أن تستدلّ على وجودها. ولكن كنه الأشياء لا يقع في دائرة المعرفة الإنسانيّة؛ لأن الله يعلم أنّ معرفة الكنه لا تستلزمها مهمّة الإنسان في الحياة.

فالتعريفات قد تدرك بطريق تقريبيّ، كما لو طُلِب معنى الإنسان. فقيل إنه هذا الذي أنت من جنسه، فيحصل فهم الخطاب مع هذا الفهم التقريبيّ حتى يمكن الامتثال، وعلى هذا وقع البيان القرآنيّ، فيكون تفسير ألفاظ القرآن بمفرداتها لغة من حيث كانت أظهر في الفهم منها. فالصلة التي يدعو إليها القرآن بين العلم والمعرفة وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم هي التي تهملها مناهج البحث التي يسمّونها علميّة في هذا الزمان، فتقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، فالناس قطعة من هذا الكون، لا تستقيم حياتهم إلا حين تنبض قلوبهم بنبضه. والمنهج الإيمانيّ لا ينقص شيئاً من ثمار المنهج العلميّ في إدراك الحقائق المفردة، ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق بعضها ببعض، والبحث في الخصائص ربح للوقت وتوفير للجهد وزيادة للفائدة، فيكون الطريق قصيراً والنتائج مهمّة، وتوافي الجهد المبذول لتحصيلها.

ث- المعرفة والوجود:

يدعو القرآن الكريم إلى البدء من الوجود إلى المعرفة، وليس العكس، لأنه لا يوجد بحث مجرّد ولا معرفة مجرّدة، وإنما الإيمان قضيّة تظهر إلى الوعي من أعماق النفس. والعقيدة في مجتمع ما إنما تلقّن وتسيّر الحياة وفقها قبل طور الوعي الفرديّ للشخص، والإنسان يؤمن بعقيدة قبل أن يصوغ نظريّة في المعرفة. من هنا يكون دور المعرفة هو مناقشة قناعات الإنسان واعتقاداته، فما كان منها صادقاً أقره وما كان غير ذلك رفضه، وتتدخّل هنا عوامل البيئة والتربية، بالإضافة إلى الفطرة، فالمعرفة علم ووعي بالاعتقاد، والوجود أوسع من دائرة المعرفة ويتجاوزها.

فالمعرفة إدراك للمعتقدات وما تستلزمه في نظام الحياة. وأصولها في القرآن هي أصول للمعرفة الإنسانيّة، وخصائصها صادرة عن الوجود بكونه سبباً وهي المُسبِّب. فالوجود حاوٍ لدائرة المعرفة ويتجاوزها، والمعرفة علم بما يستلزم الاعتقاد من شريعة، ونظام يتسم به الوجود.

والقرآن الكريم أيقظ الفطرة البشريّة من أجل الإيمان بوحدانيّة الله في الوجود، وانفراده في الخلق له، فوجوده سبحانه والوجود بصفة عامّة أسبق من الإنسان وإدراكه؛ فالوجود مؤثّر، والمعرفة أثره الحاصل في النفس المدركة بعد مباشرة العمليّات الإدراكيّة. والقرآن يقرّر إثبات وجود خارجيّ عينيّ مستقل عن الذات العارفة وإدراكها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وأعقبها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فالآيتان تشيران إلى استقلال الأشياء من سماوات وأرض

وملائكة عن الإنسان؛ وأنها قد خلقت قبله، فكان وجودها سبباً للمعرفة، والموجودات الخارجيّة تنقسم بالنسبة إلى الإنسان إلى قسمين: موجودات في عالم الشهادة: وهي الأشياء التي تحيط بالإنسان في عالم الطبيعة، من جماد ونبات وحيوان وإنسان، ويدركها بحواسه. وموجودات في عالم الغيب: وذلك كاللوح المحفوظ والجنة والنار والعرش، والوحي الذي أنزل كان إيقاظاً للإنسان كي يقرأ باسم ربه الذي خلقه، وخلق الوجود الذي هو منه، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].

فالوجود أعمّ من الإدراك المعرفيّ؛ لأن المعرفة والعلم ليسا إلا نوعاً من أنواعه، ووجود العالميْن: الغيب والشهادة، عقيدة رئيسة في القرآن الكريم، وهي من أقوى الأدلّة على نسبيّة المعرفة ومحدوديّة الإدراك كماً وكيفاً. فالله سبحانه يبيّن أنّ ما رزقه للإنسان إنما لأداء دور الاستخلاف في الأرض للوصول إلى تحقيق العبوديّة لله تعالى. وأعلى الناس معرفة هو النبيّ عليه الصلاة والسلام أمره الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثالثاً: ميدان المعرفة

جاء تقسيم المعرفة في القرآن على ميدانين، هما: الغيب والشهادة، وهذه الثنائيّة منسجمة مع الوجود، على مسلّمة مفادها أنّ الله تعالى يمثّل الطرف الأوّل في هذا الوجود، في حين تمثّل عناصر هذا الكون طرفه الثاني". وهذه الازدواجيّة مقاربة لإزدواجيّة الطاقات الحسيّة والطاقات العقليّة، ومشابهة لها

ازدواجيّة الفطرة الإنسانيّة في معرفة مجاليّ المعرفة، فمجال عالم الشهادة يكون بالإيمان بالمحسوس، ومجال عالم الغيب بالإيمان باللامحسوس، ومجال عالم الغيب معقول من حيث مبدأ التسليم بوجوده، ولكنه من ناحية أخرىٰ خارج عن نطاق العقل في كيفيّته وتفصيلاته، وهكذا نجد أنّ هذه المعرفة لهذين المجالين هي إيمان مزدوج. فالطاقة الحسيّة والعقليّة معاً؛ تمارس نشاطها في عالم الشهادة، ولكن الطاقة الحسيّة يقتصر عملها علىٰ ميدان المحسوسات، علىٰ غير الطاقة العقليّة. وقد تكلّم الله تعالىٰ عن الكون فبوصفه عوالم متعدّدة، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]. ممّا يؤكد أنّ ثمّة عوالم كثيرة من حيث العدد، بيد أنها من حيث النوع عالمان؛ عالم غيب وعالم شهادة، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

١ – العلاقة بين ميدان الشهادة وميدان الغيب:

لا شك أن إيراد أحد المصطلحين يستلزم الآخر عند كلّ المؤمنين بهما؛ لأنّ الإيمان بعالم الغيب يكسب المعتقِد له قوّة التماسك، واستمرار الأمل في الحياة وبعد الممات، واتساعاً لمصادر المعرفة وغاياتها. وآيات عالم الشهادة في القرآن الكريم تزوّد المؤمن بنوع من التماسك المتجلي في ميدانين، هما: الآفاق والأنفس؛ إذ جعل الله تعالىٰ هذين الميدانين من مستويات تجلية آياته، وإثبات نصره لأوليائه، ومواقع لتفكّر الإنسان وتدبّره كيما يطمئن بعالم الشهادة علىٰ صحّة ما ورد عن عالم غائب عنه.

فمرحلة الإيمان بعالم الشهادة تمثّل مرحلة وعي لفهم ما أمر الله سبحانه به، وذاك مقتضىٰ العقل والفطرة وعين الصواب. وحين يحدث ذلك الوعي؛ فإن

التوازن يتحقّق للإنسان على مختلف المستويات، ويتحقّق عندها منهج القرآن في أمره الناس بالنظر في سِيَر الأمم والأحداث في الأرض، كيما يروا عالم الشهادة؛ من خلال إيمانهم بحقيقة ما جاء في عالم الغيب، فالمنهج المعرفيّ القرآنيّ يرمي إلى إيجاد المتعلّم المستوعب لقوانين الشهادة المستمدّة من عالم الغيب؛ ليتحقّق الارتباط الإيجابيّ بين الغيب والشهادة، ولا يتمّ ذلك إلا بتخصيص قدر مناسب من مفردات المحتوى، مع الربط بينهما وبين عالم الغيب.

ممّا سبق يمكن إبراز التكامل بين العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، في مظهرين: "الأول: وجود أدلّة عالم الغيب في عالم الشهادة. والثاني: بروز المخلوقات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثمّ تنتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب بانتظام واطّراد، فمفهوم الغيب والشهادة في القرآن هو المفهوم الذي يحدّد معنى الحياة والوجود وغايتيهما، وعلاقة ذلك بما وراء الحياة وما وراء الوجود؛ إذ إنّ مفهوم الغيب والشهادة هو الإطار الأشمل الذي يحدّد معنى العقل الإنسانيّ ودوره في الحياة الإنسانيّة وحدود هذا الدور ومجالاته.

٢- عالم الغيب

أ- التعريف اللغويّ للغيب:

(غ ي ب) أصل صحيح يدلّ على تستّر الشيء عن العيون. ويقال: غابت الشمس تَغِيب، غَيْبَةً، غُيُوباً، ووقعنا في غَيْبَةٍ وغَيَابة؛ أي هَبْطةٍ من الأرض يُغلب فيها ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]. والغيبة: الوقيعة في الناس من هذا، لأنها لا تقال إلا في غَيبة. ويدور معنى اللفظ على ما خفي وتستّر عن المُعَين، وكلّ ما اشتق منه يرجع إلى هذا الأصل؛ لذا سنجد

التعريفات الاصطلاحيّة تساير هذا.

ب- التعريف الاصطلاحيّ:

الغيب: الأمر الخفيّ الذي لا يدركه الحس، ولا تقتضيه بديهة العقل. والغيب المكنون والغيب المصون، هو السرّ الذاتيّ وكنهه الذي لا يعرفه إلا هو؛ وعند الأصفهانيّ: هو ما لم يقم عليه دليل، ولم ينصب له أمارة، ولم يتعلّق به علم مخلوق. وقيل: الغيب؛ هو الخفيّ الذي لا يكون محسوساً، ولا في قوّة المحسوس كالمعلومات ببديهة العقل أو ضرورة الكشف. وتطلق كلمة الغيب على كلّ شيء غاب عن إدراك حواس الخلائق كلّهم أو بعضهم، أمّا الله سبحانه؛ فلا شيء في الوجود كلّه هو غيب بالنسبة إليه، بل كل ما في الوجود هو من عالم الشهادة بالنسبة إليه.

ورد لفظ الغيب في القرآن ثلاثاً وخمسين مرّة، أربع مرّات منها بصيغة الجمع "الغيوب"، ومرّة واحدة بصيغة "غيبه"، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠]؛ فاستُعمِل في كلّ غائب عن الحاسّة، وعمّا يغيب عن علم الإنسان ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ٧٥]. والغيب في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يُعلم بخبر الأنبياء، وبدفعِه يقع على الإنسان اسم الإلحاد. قال تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي لا يفعلن في غيبة الزوج ما يكرهه. ويقُسّم الغيب إلى أقسام، منها: قسم نُصب عليه دليل فيمكن معرفته، كذات الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأحوال الآخرة، إلى غير ذلك، وقسم لا دليل عليه، فلا يمكن للبشر معرفته كما قال

تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقسم هو الغيب الإضافيّ: وهو درجتان؛ غيب مكانيّ وغيب زمانيّ، فالمكانيّ ما غاب عنك لبعده عن نظرك، أمّا الزمانيّ فماضٍ لم تدركه؛ إمّا وجوداً أو معرفة، ومستقبل آت، وحال وقوعه هو غيب في حقّ من كان غائباً عنها.

ت- خصائص الغيب:

منها أن عالم الغيب يمثل عالم اللامحسوس، وأن عالم الشهادة قد يكون ما فيه غيباً إضافيّاً؛ أي يتجزّأ حسب المضاف إليه، ومنه قسم عظيم من عالم الغيب خصّ الله عزَّ وجل به نفسه، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجنّ: ٢٦] غير قابل لأن يكون من عالم الشهادة. ومنه مفاتيح الغيب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومنه ما أطلع عليه من ارتضىٰ سبحانه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: ٢٧]؛ ومن صفات عالم الغيب استغراق علمه للجزئيات والكليّات معاً ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣]، فشمول علم الله للغيب كلّه صفة خاصّة به جلّ جلاله. ومن الغيب قسم قابل لأن يكون من عالم الشهادة؛ إذا تهيّأت للمخلوقات شروط مشاهدته.

ث- أدوات معرفة الغيب:

ينطلق منهج المعرفة في عالم الغيب من مدركات حسيّة؛ متجاوزاً الإطار الماديّ المحدود، ليتفاعل مع المبادئ الأوليّة للعقل، فيتمكّن من إدراك قضايا الغيب الكبرىٰ من ألوهيّة وربوبيّة وأسماء وصفات ونبوّة، علىٰ نحو من المعرفة العلميّة. وبإمكان العقل معرفة بعض الكليّات، كوجود الله تعالىٰ،

والنبوّة، بوصفها طريقاً إلى المعرفة الغيبيّة، ولكن أيّاً من الحسّ أو العقل لا يقوى على أن يصل إلى معرفة تفصيليّة عن عالم الغيب؛ لأن طريق ذلك هو الوحي فحسب، ولا طريق إلى المعرفة التفصيليّة بالحسّ أو العقل. فالخبر اليقين "الوحي" هو مصدر هذه المعرفة، وهذا ينعكس على المنهج المعرفيّ في الإسلام، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

حينما يدعو القرآن الناس إلى الإيمان بأصول الغيب يوجّههم إلى ذلك عن طريق البحث العلميّ، ويحثهم على استخدام أدواتهم المعرفيّة؛ للتفكّر والتدبّر في دلائل القدرة وسعه العلم الدالّة على قدرة الخالق، ويرشدهم إلى أنّ هذه الدلائل منبثّة في السماء والأرض، وفي أنفسهم، وفيما حولهم ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦- ٨]، ففي هذا إثارة للعقل الإنسانيّ بما يوصله إلى الاطمئنان للخبر المتواتر، ويقوده هذا إلى الركون لتفصيلات الغيب، وأنّ لا طاقة له بها؛ إذ لم يستوعب ما هو في مجاله في الشهادة، وعجز عن كثير ممّا هو فيها، فكيف به مع ما هو خارج عن نطاقه؟! وهذا يصدّق في الغيب الذي لا يصبح من عالم الشهادة، أمّا ما يمكن أن يدرك؛ فيصبح من عالم الشهادة، فالبحث فيه يطالُه الحسّ والعقل.

- مبادئ الغيب:

يمثل ميدان الغيب مصدراً لمعرفة يتلقّاها الإنسان بكونه مستقبلاً للمعرفة، ويمكن تحديد مبادئ عالم الغيب، في أن الوجود ذو غاية خيّرة،

وأن علاقات الوجود الكليّة غير خاضعة لإرادة الإنسان؛ وأن وجود الله تعالى يمثل أهمّ معطى في عالم الغيب بالنسبة إلى الإنسان، وأن الدار الآخرة تمثل محصّلة حسابيّة وجزائيّة نهائيّة لما قدمه الإنسان في الدنيا، وأن الإرادة الإنسانيّة وفق علم الله وأمره، وأن الهداية والضلال في حياة الإنسان مصير فرديّ يسبق في علم الله حين وهب الإنسان الحريّة في الاختيار؛ لذا لا معنى للتواكل والقول بالجبر ومظاهر العجز، وأن الوحي هو المصدر الذي يمدّ الإنسان بحاجاته المعرفيّة الغيبيّة، وأن العقل والوحي يتكاملان لتحقيق موقع الإنسان في عالم الشهادة، وسعيه إلى تحقيق الغاية منهما بعالم الشهادة، وعلى هذا الأساس يتمّ تصميم المنهج بعيداً عن الثنائيّات العقيمة للدين والدولة، والعقل والنقل، والأصالة والمعاصرة.

٣- عالم الشهادة:

الغيب في الاصطلاح خلاف الشهادة، والغيب ما غاب عن العيون، وإن كان محصلاً في القلوب. فميدان الشهادة يعقل بالتعاون مع الحواس، فيكون الكون ميداناً لعالم الشهادة في كلّ ما كان محسوساً. مع كون النظر إلى هذا الميدان مبنيّ على التكامل والتوازن؛ لأنّ الخلافة قائمة على مواجهة عالم الشهادة والتعامل معه بحسبانه ميداناً للإنجازات العظيمة؛ عن طريق تسخير القوانين المودعة فيه، من خلال عقلانيّة حاسمة قائمة على أساس السببيّة والتوافقيّة والتعامل المباشر مع أجزائه.

أ- التعريف اللغويّ:

شهد: (ش ه د) أصلٌ يدلّ على حضور وعلم وإعلام، لا يخرج شيء

من فروعه عن الذي ذكرناه. من ذلك الشهادة، التي تجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور والعلم والإعلام. ومن أسماء الله الشهيد؛ أي الذي لا يغيب عن علمه شيء، والشهيد هو الحاضر، فالعلم إذا عُدّ مطلقاً كان الله هو العليم، وإذا أضيف في الأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد، والشهادة خبر قاطع تقول منه: شهد الرجل على كذا، فالشاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه، والمشاهدة: المعاينة.

ب- التعريف الاصطلاحيّ:

ورد لفظ شهد بمشتقاته مائة وأربع وعشرين مرّة، في سبعة أوجه، فالمشاهدة وردت في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [البروج: ٧]؛ أي حضور. وتكون الشهادة إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، فهي خبر قاطع يؤدي معنى الإقرار والحجة، مع وجود العلم بذلك، ولكن الشهود بالحضور المجرّد أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ يعني مشاهدة بالبصر، وقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ تنبيهاً بأنّ الشهادة تكون عن علم وحضور، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]؛ أي ما جعلتهم ممّن اطلعوا ببصيرتهم على خلقها، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾ [البقرة: ٨٤]؛ أي تعلمون، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد: ٩]؛ أي ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما.

ت- أقسام الشهادة:

عالم المحسوس في مجال الإدراك، هو ميدان الآفاق وميدان الأنفس؛ إذ

هما مشاهدان ومحسوسان، وورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣]. نقل الشوكانيّ في تفسيره عن بيان معنى الآفاق جملة من كلام السلف: قال ابن يزيد: الآفاق آيات السماء. وقال قتادة والضحّاك: وقائع الله في الأمم. وقال عطاء: يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح وغير ذلك، " وزاد ابن كثير: الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وقال الرازيّ: الآيات الفلكيّة الكوكبيّة، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإظلال والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة، وآيات المواليد الثلاثة.

ث- العلاقة بين ميدان الآفاق وميدان الأنفس:

هنالك علاقة جليّة بين الميدانين من خلال اجتماعهما في الذكر كلّما ورد أحدهما، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. والقرآن يرينا تكامل الميدانين؛ إذ إنّ الكون مسخّر للإنسان، نافياً بذلك نظريّة الصراع بين الإنسان والكون، ومنه نلمس الترابط في المنهج المعرفيّ؛ فمعرفة الميدانين تحدث تكاملاً للمعرفة، فالإنسان يسعى إلى الخلافة واستعمار الأرض بحثاً عن السعادة والرفاهيّة، وهذا يقتضي إدراك سبل تسخير الآفاق، وإدراك سبل فهم النفس الإنسانيّة وحاجياتها، وكلما توسّع الإنسان في فهم الكون زاد تسخيره له، فتطوّر الإنسان مبنيّ على قدرته وكفاءته في التعامل مع الكون والأنفس،

من خلال معرفته بمواطن الصلاح ومواقع الفساد، سعياً نحو الخير العامّ للإنسان كيما يرقى في المعرفة، ويعلو في درجات الإفادة ممّا توفّر له من طاقات في الآفاق والأنفس.

رابعاً: ضوابط المعرفة في القرآن الكريم

من خلال التأمّل في كتاب الله تعالى تظهر العناية بالتفكير المنضبط، في جانبيه الأخلاقيّ والعلميّ؛ ذلك أن الانضباط الخلقيّ في مسألة المعرفة لا يكفي، فلا يُقبل من الباحث أن يكون أميناً في نقله للمعلومات من غير أن يستكمل أجزاءها، ولا يكفي الانضباط العلميّ في مسألة المعرفة، فلا بُدَّ من ضوابط أخلاقيّة وعلميّة تَسْرِي على قواعد المعرفة جميعها؛ فالقرآن الكريم يهدي إلى محاسن الأمور في المعارف، ويَحُدّ الحدود التي تضبط المنهج المعرفيّ، كيما لا يشطط عن هدى الوحي الرامي إلى خير البشريّة في الدنيا والآخرة، فالقدح في الشرع، أو انتقاص العقل، كلاهما آفتان تنخر التطوّر المعرفيّ، والتكامل بين المصادر المعرفيّة. فكان لِزاماً جمع ضوابط تُيَسِّر البحث وتنزّهه من الأخطاء الهادمة لمنهجيّة البحث السليم.

١ – الضوابط الأخلاقيّة للمعرفة في القرآن الكريم:

تكمن أهميّة الكلام عن الضوابط الأخلاقيّة للمعرفة بوصفها محدداً معرفيّاً لمضمون العمل الأخلاقيّ. فالقرآن الكريم تبرز فيه القيم الأخلاقيّة على كونها "أحكاماً، أو مبادئ فطريّة في عقل الإنسان بعد ولادته، من خلال حركة الإنسان في الحياة، ولا يعني هذا أنّ الإنسان ينساق دائماً إلى امتثالها،

بل قد يخالفها، لكنه يبقى عالماً بها، شاعراً بمخالفته لها، وهذا من علامة فطريّتها، إذا كان غاية المعرفة تمكين الإنسان من الخلافة والعمارة، وفق منهج الله تعالى، فالقرآن الكريم هو مصدر للأخلاق والقيم التي يجب أن يسير عليها المستخلف؛ لتكون الأحكام الشرعيّة ضوابط وحدود للتعامل مع الآخر، والتعامل مع الكون بصوره المختلفة الجامدة والحيّة؛ كي لا يسعى الإنسان إلى خراب الكون والإفساد في الأرض بتحصيله لمعرفة من غير أخلاق، ولا ضوابط توجه تلك المعرفة نحو الصواب والخير.

أ- النهي عن التنازع:

هناك فرق بين التنافس والتنازع، فالأوّل محمود بنُبل المقصد؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، أمّا التنازع فنهايته التفرّق؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فالخلاف قسمان؛ مأذون فيه، بل هو أحد أوْسِمة التراث العلميّ للمسلمين؛ وهو يمثل الثورة العلميّة والثروة المعرفيّة، وفيه تعمّق لإدراك الحقّ وتحصيل الفوائد العلميّة والعمليّة. وميدان هذا المسائل الاجتهاديّة التي يتسع لها الاختلاف، لكنّ القرآن الكريم قد نهى في غير ما آية عن مسلك بعض أهل الكتاب الذين تباينت أحكامهم لجملة من أصول الدين عندهم، مع توافر المعرفة على نحو بيِّن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥] فمن أخطر الإصابات الذاتيّة التي يمكن أن تلحق بالنخبة والأمة على حدّ سواء: انتقال علل التدين التي كانت سبباً في سقوط الأمم السابقة وانقراضها عندما افتقد

العلم أخلاقه وأهدافه الخيّرة، فتتحوّل من معرفة بالله إلى وسيلة باغية، وأصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الدين."

وقد عُلم من نبأ الأولين في الحياة الفكريّة والعقديّة أنّ أسباب الاختلاف كثيرة، وكلما خطا الإنسان خطوات في سبيل المدنيّة والحضارة؛ اتسعت فرجات الخلاف، حتى تتولّد المذاهب والطوائف والديانات، وغير ذلك، ومنشأ المذموم منه يكون في اتباع الهوى؛ "﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]، فمن يهتدي بالوحي هو من يخالف الهوى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمّد: ١٤] فالقرآن والسنّة هما مصدر المعرفة الرئيسَيْن. والخلاف الذي يصادم الوحي ويعارضه هو اتباع للهوى، إمّا لحبّ الدنيا، أو بغضاً لأهل الإيمان، وتكبراً واستعلاءً بما عنده من علم، قال على لسان قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وهذا يعني أنّ المعرفة الإسلاميّة موصولة بالله تعالى، فهي ربانيّة المصدر، وربانيّة الوجهة والمسلك.

ب- الموضوعيّة:

نقصد بالموضوعيّة هنا تخلّي الإنسان عن عواطفه وانفعالاته التي لا يقوم عليها دليل نقليّ أو عقليّ تجاه مسألة من المسائل التي يحتاج فيها إلى اتخاذ قرار أو إصدار حكم؛ شريطة أن تكون القضيّة -موضع الطرح- ممّا تختلف فيه الأفهام ويتقبّل فيه النقاش، وهي على هذا معيار أساسيّ من معايير البحث، يقوم على الصدق والعلم والأمانة والبعد عن الأهواء الشخصيّة. فالإنسان عندما يكون بصدد التعامل مع فكرة أو معلومة، فإنّ الموضوعيّة

في مثل هذه المواطن مطلب عزيز جدّاً يصعب تحقّقه.

ورد اصطلاح "الموضوعيّة" في القرآن الكريم، وفق القواعد الشرعيّة التي وضعها الوحي لضبط إصدار الأحكام والتعامل مع الآخر. فالله تعالى ذكر أحوال الأمم، وبيّن ما لهم وما عليهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، وبما أنّ المنهجيّة القرآنيّة دعت المسلم إلى التجرّد والقسط، مع بيان مخاطر ترك هذا الخلق النبيل، فالتحلّي بالموضوعيّة يجب أن يكون بمعايير ربانيّة لا مجال فيها للتشنّجات وردود الأفعال، ولا مكان للحظوظ البشريّة الدنيئة، والأهواء الأرضيّة الترابية، فلا يمكن أن يقال على من تمسّك بالمعيار الشرعيّ أنه غير موضوعيّ، فقد "أصبح الكثير منهم يُعرّف الموضوعيّة بأنها تجرّد الباحث من كلّ اعتبار قِيَميّ وعقديّ. ومن لوازم الموضوعيّة، "الأمانة العلميّة"، ومفهومها واسع يشمل قضايا عدّة، منها العلميّة بإثبات المقال للقائل، والمحاسبة على القول لا على لازم القول، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

ت- التحذير من الكتمان:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ فالكتمان محرّم على من وجب

في حقّه الجواب؛ لأن من العلم ما يجب كتمه في حقّ بعض الناس لدواعي عامّة بالزمان أو المكان، أو دواعي خاصّة، مراعاة لقدرة الاستيعاب وأجواء الإشكال كيما يفهموا عن المتكلم؛ فلا يخاطبوا إلا على قدر عقولهم كي لا يُكَذَّبَ الله ورسوله.

ث- عدم الانتقائيّة في المعارف:

قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وفي هذا تربية على توسيع المدارك وتنمية النظرة الكليّة لدى المتعلّم والباحث؛ لتجنّب الوقوع في النظرات التجزيئيّة والتبعيضيّة الضيّقة، ولن يتحقّق ذلك ما لم يسهم المنهج بعناصره وأطرافه جميعها في تقديم جملة من الخبرات والمعارف الهادفة إلى تحقيق هذه القيمة، غير أنّ التحذير من الانتقائيّة لا ينافي الدعوة للتصفية والتربية، والمراد منها نزع الأفكار المدخولة، وردّ الزائف منها.

ج- اجتناب الظنّ:

القرآن الكريم لا يقيم وزناً لمعرفة قائمة على الظنّ والتخرّص، مهما كثر أهلها، فبيّن أنّ الحقّ ليس بكثرة متّبعيه، والباطل لا يتجلّى بقلة مريديه ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]، فهذه آيات بيّنات على أنّ المعرفة الحقّة تقتضي الدقّة لبلوغ اليقين.

ح- حظر التزييف والافتراء:

نبّه القرآن الكريم إلى ضلال أهل الكتاب المتمثل في التزييف والتلبيس وخلط الباطل بالحقّ، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: ٧١]. وتوعّدهم فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: ٧٩]؛ فالتحريف جريمة أخلاقيّة، ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]؛ فتقرّر أنّ إقصاء المعرفة السليمة الصحيحة يتّبعه بالضرورة إحلال المعرفة المزيّفة؛ واستبدال الحقّ بالباطل. فحينما يكون المنهج المعرفيّ مبنيّاً في مصدره على حقائق يقينيّة نقيّة عندها ستكون النتائج سليمة معافاة من الأمراض الاجتماعيّة المتفشية كالغش والخداع والنفاق، والتجرُّؤ على الكذب، والتكلم بغير علم ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل: ١١٦].

٢- الضوابط العلميّة للمعرفة في القرآن الكريم:

أ- عدم قبول القول إلا بدليله:

يؤكد القرآن في منهجيّته العلميّة أهميّة التثبّت من صدق المعلومة التي تبنى عليها المواقف. ويكون التحقّق منه بالدليل النقلي أو العقلي، والمراد بالنقليّ ما جاء في كتاب الله أو في سنة نبيه محمّد ﷺ، أمّا العقليّ فما كان من المسلّمات العقليّة التي لا مجال لإنكارها، خاصّة إذا كانت هذه المسلّمات ممّا

يمكن للعقل أن يدركه. من هنا جاءت المطالبة بالدليل على صدق ما يدلي به الإنسان في مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى، خاصّة في المواطن التي تحتاج إلى إثبات بسبب الخلاف فيها. وقد ورد مصطلح الدليل بألفاظ عدّة، منها العلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤]؛ أي بقيّة من علم يوصل بها إلى صحّة ما تقولون، فإنّ الدعوى إذا لم يكن معها حجّة لم تغن عن المدعي شيئاً، وفي البرهان: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، وفي السلطان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]. وفي الحجّة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] و: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]، وفي البيّنة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي البصيرة: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ب- عدم خوض الإنسان فيما لا يعلم:

وهذا ضابط علميّ قرآنيّ لصاحب التفكير العلميّ الذي يعرف ذاته ويعرف قدراته وإمكاناته، فلا يتحدّث في قضيّة لا يعرفها، وسماه القرآن "خوضاً"؛ لكونه يورث الخلل في الحكم والتخبُّط في النتيجة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]. وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ت- العناية بالمصطلحات وفهم لغة العلوم:

وهذا من أهمّ مستلزمات المنهج العلميّ في التفكير، ومن ضوابط المنهج المعرفيّ؛ لذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. فقد كان المسلمون يقولون حين خطابهم الرسول عند تعلّمهم أمر الدين "راعنا"؛ أي راع أحوالنا، قاصدين المعنى الصحيح، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً.

فنهْيُ الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدّاً لهذا الباب، فيه. وفيه هداية إلى الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع من التشويش، أو احتمال لأمر غير لائق. فاللفظ حين يُقال تكتفنه ظروف، وملابسات، وبيئات، وأزمان، وأفكار، ومواقف، وتخصّصات، هي التي تحدّد المراد منه في غالب الأمر، فإذا أخذ مجرداً أوقع صاحبه في الخلل والتخبّط، وأوداه في مغبّة سوء الفهم. والمصطلح يفهم بما تواضع عليه أهله، والعناية بالمصطلحات جزء من ضابط علميّ يوسم به الباحث المسلم؛ ألا وهو التثبت قبل إصدار الحكم، وفهم اللغة التي يتحدّث بها الآخرون.

ذلك أنّ الناس لهم من ألفاظهم مرادات حيّة ينطقون بها، وليس من المنهجيّة العلميّة التي جاء بها القرآن الكريم أن يهاجموا، أو تصدر عليهم

الأحكام قبل التثبت من مصطلحاتهم التي يتفوّهون بها، لكون اللسان والنطق مغرافاً لِما في ضمير المتحدّث، "كما أنّ المتخصّصين في جوانب المعرفة المختلفة لهم مصطلحاتهم الخاصّة بهم عندما يتحدّثون، ومعرفتها أمرٌ مُهمّ، " فلا يعترف لأيّ كان بالعلم ما لم يضبط لغته؛ أي مصطلحات ذلك الفن، وليس بغريب أن "تؤدّيَ المصطلحات دوراً أساسيّاً ومحوريّاً في أشكال الإبداعات الفكريّة جميعها، وما يتّصل بها من محاورات ومطارحات، وكلما اتسعت الرؤية وتشعّبت منافذ الحديث وتعقّدت القضايا ازدادت خطورة المصطلحات؛ حيث يمكن لها أن تجلّي الحقائق وتختزل المعاني ببراعة لتركّزها في الذهن، وتضبط قواعد الحوار الفكريّ وآدابه، كما أنها من جانب آخر يمكنها أن تزيد الإشكاليّات تعقيداً، وأن تكون عاملاً من عوامل تغييب الرؤية واضطراب قواعد الحوار الفكريّ وآدابه، " بل إنّ من خطرها -في زمن الصراع العقديّ والفكريّ والثقافيّ بين الأمم- أنها يمكن أن تزاحم المصطلحات الأصيلة للأمة المسلمة في شتىٰ مناحي حياتها؛ تمهيداً لترحيل ما تعبّر عنه من مُعتقد، أو فكر، أو خُلق إسلاميّ أصيل.

ث- التناسب بين المجال المعرفيّ والمنهج العلميّ المستخدم:

لأهميّة هذا التناسب جاء مثال له في القرآن ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩]. فقد خرج المشركون على الناس بمنهج معرفيّ مفاده: أنّ الملائكة إناث، وفي مواطن أخر يقولون بأنهم "بنات الله"! كما حكىٰ الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور: ٣٩]، فجاء الردّ رائعاً جليّاً في قول الحقّ جلّ

ذكره: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]. ومعنى ذلك أنّ هذا المنهج المعرفيّ الذي يزعم أنّ الملائكة إناث وأنهم بنات الله، يحتاج إثباته إلى مجال علميّ دقيق يوصل إلى نتيجة علميّة دقيقة، ولا يمكن أن يكون هناك مجال علميّ غير المشاهدة ليدور الأمر بين واحد من الاحتمالين: إمّا أنّ هؤلاء كانوا مع الله ورأوا خلق الملائكة، وإمّا أنهم لم يكونوا مع الله ولكنهم رأوا الملائكة بعد ذلك. الجواب: لا، فيكون كلامهم عبارة عن تخرّصات وظنون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]؛ فافتراؤهم كان بغير علم ولا منهج علميّ يناسب مجالهم المعرفيّ؛ لأنّ ذلك من عالم الغيب الذي لا يملكون أدوات معرفته، وقياسهم بالشاهد على الغائب باطل هنا، بل حتى قياس الأولى كان استعمالهم له فاسد، فنسبوا لأنفسهم الكمال ولله تعالى النقص من حيث لا يعلمون، معتقدين التقديس والتنزيه.

فضرورة تناسب المجال المعرفيّ مع المنهج يؤكد عليه الكثير بقولهم: "ليس هناك علم أو تقدّم علميّ إلا عن طريق البحث، وتقدّم البحث العلميّ يعتمد على المنهج، يدور معه وجوداً وعدماً، صدقاً وزيفاً."

جـ- التناسب بين المجال المعرفيّ وطاقات العقل وقدراته:

فمن المعلوم بالضرورة أنّ طاقة العقل لا تحصي كلّ شيء، وأنّ له حدوداً لا يدركها. هذا يكون مع مطلق العقل، معَ ثبات تفاوت إدراك العقول من الأدنى إلى الأعلى؛ لذا بيّن الله تعالى أن ذاته العليّة، والروح،

وقيام الساعة، وعالم الملائكة، ونزول الغيث، وما تغيض الأرحام، وما يتعلّق بكسب الناس وآجال الأمم والأفراد زماناً ومكاناً ممّا لا يطيق العقل البحث فيه؛ لأنه لم يُكلَف ولم يهيّأ فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. فعلى كلّ مسلم أن يَزُم العقل بزمام الدين، وألا يبدّد قدرات العقل وطاقاته فيما لا يتحقّق له من ورائه فائدة، بل عليه أن يبحث فيما حدّده له خالقه، وعليه أن يركّز بحثه في حدود طاقاته وقدراته وفق الضوابط الشرعيّة التي نصّ عليها كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، ليسلم من الزلل وينتفع ممّا يبحث فيه في أمور دينه ودنياه.

حـ- الإحاطة بالقضيّة والحصر:

إصدار الحكم على قضيّة ما يقتضي دقّة التصوّر لها، وهذا مبني على الإحاطة بجوانبها؛ كي لا تنتقض الأحكام بوجود ما هو خارج عن التصوّر الأوليّ؛ لذا يُعدّ التفكير الشموليّ ضرورياً لجمع أجزاء القضيّة وحصرها تحت حكم واحد شامل أجزاءها كلّها. "والمقصود بالتفكير الشامل هو ذلك الأسلوب الذي يتناول الظاهرة من جوانبها جميعها ويتحرّى أجزاءها جميعها وما يتعلّق بها". فاتخاذ موقف أو إصدار حكم على فكرة أو شخص أو جماعة أو مذهب من خلال نظرة جزئيّة يجعل القرار والموقف والحكم نوعاً من

الظلم والتَّجني. وهو خلاف لأمر الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وتشنيع القرآن الكريم على أصحاب هذا المنهج واضح في سورة يونس ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، فالظاهرة مقرونة بالحكم في القرآن الكريم؛ لذا كان إدراك أجزائها ضروريّاً ليضبط الحكم الصادر عليها، فبعد بيان الأحكام كما في سورة النساء أعقب ذلك بحكم موضوعيّ، حاصله التعريف بالغاية والفائدة من تطبيق الأحكام والأوامر الإلهيّة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

ينبني على الإحاطة بالقضيّة من جوانبها جميعها، واشتمال الحكم لصورها كلّها؛ ألا يعمم على غير أجزائها، وما لا يدخل في دائرة تصوّرها، فالحكم يدور مع العلّة وجوداً وعدماً، والعلّة منوطة بصورة المسألة؛ لذا كان الاستثناء في الأحكام آكد حال اختلاط الصور وتقارب المسائل، فالقاعدة تحصر ما كان تحتها للتماثل، والحكم يشمل أفرادها جميعها، لكن ما خرج عنها يستثنى من الحكم، هذا الضابط العلميّ القرآنيّ يقصر الأمر عند وقوعه على صاحبه، والأفعال على ما شابهها؛ لذا نجد أنّ الله تعالى يبيّن لنا حال القضاء بين الناس، أو إصدار الأحكام عليهم حال التعامل أن تلحق الجريرة بصاحبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، فليست زلّة العالم مسوِّغاً لزَجٍّ مثله معه، ولا انحراف

فرد من طائفة أو فرقة أو ملّة دليلاً على انحراف أصحابه، لكن الحكم يتعلّق بعلته ويثبت على صورة قضيّته، وأصحابه يحملون وزره ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: ٤٠]، فلم يعمّم على الجميع لأنّ من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن الكريم، وحين ذكر المنافقين كان بصيغة التبعيض.

- تلقّي المعرفة من مصادرها الصحيحة، مع الانفتاح على خبرات الآخرين:

تلقّي المعرفة المتكاملة يجب أن يكون من مصادرها، فلكلّ معرفة وحييّة -على اختلاف فروعها- مصادرها التي تؤخذ منها، ولكلّ معرفة بشريّة -على اختلاف فروعها- مصادرها. فنجد القرآن الكريم يرشد إلى المصادر حال الاستفسار ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧]. فإن كانت المعرفة ماديّة كان العود إلى أهلها فيها أحقّ من غيرهم، والتفكير في مجالها بأدواتها ومناهجها التي تفي بالغرض للحصول على نتائج صحيحة. فأهل الذكر هم أهل التخصّص في أيّ جانب من جوانب المعرفة، ما دامت منافع معرفتهم مشروعة، فكان الوقوف على حضاراتهم وعلومهم ومعارفهم المتراكمة من طرائق الأخذ عنهم؛ لتوسيع المدارك والإفادة من الإبداعات ما لم تعارض نصّاً أو تنافي شرعاً للمسلمين.

فترى في القرآنِ النبيَّ الرسولَ وكليمَ الله موسى عليه السلام يتعلّم ممّن هو أقل منه شهرة ومنزلة؛ الخضر عليه السلام ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦]، وابن آدم العاقل يتعلّم من الغراب غير العاقل ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، بل إنّ المولى سبحانه أقرّ كلام الملكة بلقيس قبل إسلامها، فحكى عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

فالمنهجيّة العلميّة الواعية تلتقط الصواب من كلّ واحد، ما دام خيراً لا يصادم ما هي عليه، بغض النظر عن صفات قائله وخصائص مصدره، لكن يجب التأكيد أنّ الأخذ من الآخر له ضوابطه، فمخاطر الأخذ عن الآخر لا تقودنا إلى "عدم القدرة على التمييز بين الغزو الثقافيّ والتبادل المعرفيّ... وإقامة هذا الحاجز من تخوّف الغزو الثقافيّ حرم العقل المسلم الكثير من المعارف وارتياد الآفاق التي تمكّنه من اختصار فجوة التخلّف، والمساهمة في التغيير الحضاريّ." فالقرآن الكريم يقرّب معارف السابقين، ويدعو إلى إقامة وحدة لمعارف الوحي، معَ اعتماده أسلوبيّ التصديق والهيمنة، وذلك بأن يوافق كلّ معرفة فيها لم يطرأ عليها تحريف أو انتحال "من غير أن يعني ذلك التصديق أو تلك الهيمنة التوقيع على كلّ معرفة فيها، بقطع النظر عن سلامتها من الخطأ، بل يُعمِل فيها منهجه التقديريّ التمحيصيّ كي يتميّز السليم فيها من المنحرف، في صورة عمليّة استرجاعيّة شاملة لذلك الميراث تتضمّن نقده وتحليله وتطهيره ممّا ألحق به من إضافات واجتهادات تتنافى مع مضمونه."

فالقرآن نزل مكملاً وناسخاً لما قبله ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وفي هذا إقرار بمبدأ التراكم المعرفيّ، وأن يبني اللاحق معارفهُ على ما ترك السابق. كما أنّ فيه إثبات الهيمنة والتصديق على جميع ما سبقه من معارف مصدرها الأصليّ هو الوحي لأنه للناس كافة، فكانت تشريعاته وعقائده حكماً على غيرها، ومعياراً يصدق به غيرها؛ لأنه أصول ثابتة راسخة في درجات عليا من اليقين.

نستفيد من هذا المنهج في تعاملنا مع ميراث الأمم الغابرة، وميراثنا العلميّ، فلا ريب في أنّ فيها الصواب والخطأ، فهي اجتهادات رامت بلوغ الحقيقة فأنتجت ميراثاً ضخماً ثقل حمله على من خلفهم. فالقرآن وحي ربانيّ وما ترك علماؤنا اجتهاد إنسانيّ على هدى الوحي، فما كان على وِفاق معه قبلناه وما جانبه رددناه.

الفصل الثاني:

العلم في القرآن الكريم

يُعدّ العلم من أكثر الألفاظ وروداً في القرآن الكريم، بالتعيين أو بما يرادفه أو ما يرشد إليه، ولم يأمر الله تعالىٰ نبيّه بأن يدعو بالزيادة إلا في العلم. ومسألة الوقوف علىٰ دلالات العلم بغية تحديد المفهوم يتطلّب الخوض في مباحث كثيرة لتجلية الدلالات الاصطلاحيّة، ويتصدّر المبحث المعجميّ أولىٰ تلك المباحث، مع بيان الأقسام والفروق التي تميزه عن غيره، وتكوين الحقل الدلاليّ للفظ الناتج من علاقاته مع غيره ضمن حقله الدلاليّ المعجميّ، فاللفظ وسيلة لتحميل المعنىٰ، والمفهوم يُكوّن خصائصه بالسياق.

أوّلاً: تعريف العلم وأقسامه:

١ – التعريف اللغويّ:

العلم نقيض الجهل، وهو الإدراك أو المعرفة عامّة، أو اعتقاد الشيء علىٰ ما هو به علىٰ سبيل الثقة. قال أهل اللغة: سمّي العلم علماً من العلامة؛ وهي الإشارة، ومنه معالم الثوب والأرض، والمَعْلَمُ: الأثر يستدلُّ به علىٰ الطريق. والعِلم من المصادر التي تجمع. يقال: رجل عالم وعليم، وعَلِم بالشيء والأمر: شعر به، وعَرَفه، وأتقنه، وأحاط به، وأيقنه، وميَّزه. فتقول: "علّمت زيداً" إذا أردْتَ بها عِلْمَ الشخص فقط، وكُنْتَ أولاً لا تَعْرِفه. والعليم بمعنىٰ العالم. والعلم يتعدّىٰ بنفسه وبالباء، ويزاد في مفعوله قياساً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]. ولا يتعدّىٰ بـ (مِنْ) إلا

إذا أريد به التمييز ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ويستعمل (عَلِمْت) ويراد به العلم القطعيّ: فلا يجوز وقوع (أن) الناصبة بعده. ويستعمل ويراد به النصّ القويّ فيجوز أن يعمل في "أن"، واستعمال العلم بمعنى المعلوم شائع، وقد يكنّى بالعلم عن العمل.

٢- التعريف الاصطلاحيّ:

يعرَّف العلم بأنه إدراك الشيء على حقيقته، وذلك ضربان: أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني: هو الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجودٌ له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه. فالأوّل يتعدّى إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والثاني المتعدّي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وعرفه الجرجانيّ بأنه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وسمّى الله تعالى نفسه بالعالم والعليم والعلاَّم، ووصف نفسه بأنه يعلم وعَلِم، وأنّ له عِلْم وهو ذو العِلْم. والله تعالى علام الغيوب، لا يخفى عليه خافية، فهو يعلم ما يكون وما لا يكون وما لو كان كيف يكون. كما يعلم إيمان المؤمنين وكفر الكافرين وذنوب العاصين، وهذا علم لا تجب به حجّة، ولا تقع عليه مثوبة ولا عقوبة، وهذا أكثر ما في القرآن. والله تعالى علمه سبب لوجود العالم، والعالم سبب لعلم الإنسان؛ لأنّ وجود الأشياء سبب للعلم بها أيا كانت صورة هذا الوجود ذهنيّ أم خارجيّ. وعلمه تعالى علم للباطن والظاهر، وهذا ما ورد في آيات عدّة. كما اختصّ الباطن باسم الخبير واللطيف، والظاهر بالسميع والبصير، فكان من تأكيد الإحاطة والمحاججة بعلمه تعالى أنه يعلم ما خفي وصادق وما جلي وبان

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وعلم الله تعالىٰ قديم وليس بضروريّ ولا مكتسب، وعلمه تعالىٰ منزّه عن الوقت والزمان، فجميع الزمان من الأزل إلىٰ الأبد بالنسبة إلىٰ ذاته العلية متصل، لا يخفىٰ عنه منه شيء كليّاً أو جزئيّاً؛ لأن نسبة المقتضىٰ لعلمه إلىٰ الكلّ واحد. فمهما طرأ طارئ علىٰ الزمان لا يحدث له علم جديد به، بل هو مكشوف له أزلاً.

غالب ما ورد في تعريفات العلم نجده اجتمع علىٰ أنه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو هو ما يُمثل اليقين والحكم الجازم غير القابل للتشكيك. وكلّها تفرّق بين العلم والتخيّل من جهة إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه تصوّراً في الذهن، وواقعاً في الحسّ، وبمقدار التطابق بينهما يكون العلم دقيقاً. والمعنىٰ الحقيقيّ للفظ العلم هو الإدراك، ولهذا المعنىٰ متعلّق وهو المعلوم، وله تابع وهو الملكَة، فأطلق لفظ العلم علىٰ كلّ منها، إمّا حقيقة عرفيّة أو اصطلاحيّة أو مجازاً مشهوراً.

٣- أقسام العلم:

يقسم علماء الأصول العلم إلىٰ قسمين: علم قديم: وهو ما يختصّ بالله عزّ وجل، وعلم حادث: وهو ما يختصّ بالخلق. وهو نوعان، علم ضروريّ، وهو ما لا يقع عن نظر واستدلال؛ كالعلم الواقع بإحدىٰ الحواس الخمسة الظاهرة، والثاني هو: علم مكتسب: وهو الموقوف علىٰ النظر والاستدلال؛ أي يحتاج إلىٰ قدح الذهن والتعلّم، هذا المعنىٰ من قوله ﷺ: "إنما العلم بالتعلّم." وهذا العلم يتفاوت فيه الناس علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]؛ كلّ له قدر باختلاف ما قُدِّر، وما قَدَر عليه. فالعلم الضروريّ هو

الحاصل للناس كلّهم في أحوالهم العاديّة، وهو ما أنزل على صورته الشرائع السماويّة من الله عزّ وجل؛ إذ كانت مرسلة على خطاب يعيه الذكيّ والغبيّ، وينتفع به العالم والبليد، فكانت أصول الدين حجّة على كلّ ذي عقل بالغ مهما كانت مرتبة فهمه؛ لأن الضروريّ من البدهيّ، وهو ما لا يُحتاج فيه إلى تقديم مقدّمة، أمّا النظريّ فمنه تفاصيل العبادات من أركان وشروط، وفهم مسائل النحو، وتحاليل المركبات، وغيرها من مسائل العلوم الدقيقة.

والعلم من وجه آخر ضربان، هما: النظريّ والعمليّ، فالنظريّ: ما إذا عُلِم فقد كَمَل، نحو العلم بموجودات العالم، أمّا العمليّ فهو: ما لا يتمّ إلا بأن يَعْمَل، كالعلم بالعبادات.

ثانياً: مراتب العلم وضوابطه:

١ - مراتب العلم:

العالم الخارجيّ هو علّة العلم، والحواس هي الوسيلة الوحيدة للنفس المدركة للاتصال بالوجود المشهود، فعليه؛ فإنّ أوّل مراتب وصول العلم هو الإحساس؛ وهو انفعال الحواس مع المحسوسات بالتلقّي للمعطيات الحسيّة الناتجة عن المؤثّرات الحسيّة. تنتقل تلك المعطيات نحو النفس، وهنا تتدرّج صعوداً من العمليّات الإدراكيّة الأوّليّة البسيطة إلى ما هو أعقد، ثمّ الإدراك: وهو تمثّل حقيقة الشيء عند المدرِك، ثمّ الحفظ: وهو استحكام المعقول في العقل، ثمّ التذكّر: وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثمّ الذكر: وهو رجوع الصور المطلوبة إلى الذهن، ثمّ الفهم: وهو التعلّق غالباً

بلفظ من مخاطبك، ثمّ الفقه: وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه، ثمّ الدراية: وهي المعرفة الحاصلة بعد تردّد مقدّمات، ثمّ اليقين: وهو أن تتعلّم الشيء ولا تتخيّل خلافه، ثمّ الذهن: وهو قوّة استعدادها لكسب العلوم غير الحاصلة، ثمّ الفكر: وهو الانتقال من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب، ثمّ الحدس: وهو الذي يتميّز به عمل الفكر، ثمّ الذكاء: وهو قوّة الحدس، ثمّ الفطنة: وهي التنبه للشيء المراد معرفته، ثمّ الكَيَس: وهو استنباط الأنفع، ثمّ الرأي: وهو استحضار المقدّمات وإجالة الخاطر فيها، ثمّ التبيّن: وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثمّ الاستبصار: وهو العلم بعد التأمّل، ثمّ الإحاطة: وهي العلم بالشيء من وجوهه جميعها، ثمّ الظنّ: وهو أخذ طرفيّ الشكّ بصفة الرجحان، ثمّ العقل: وهو جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

ولابن القيّم تقسيم آخر لمراتب العلم يبدأ من الأعلى على أوجه الهداية الخاصّة والعامّة: الأولى: مرتبة تكليم الله عزّ وجل لعبده يقظة بلا وساطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها، كما كلّم موسى بن عمران صلوات الله على نبينا وعليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] والثانية: مرتبة الوحي المختصّ بالأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، والثالثة: إرسال الرسول الملكيّ إلى الرسول البشريّ، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب خاصّة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم، والرابعة: مرتبة التحديث، هذه دون مرتبة الوحي الخاصّ، وتكون أيضاً دون مرتبة الصدّيقين، كما كانت

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبيّ ﷺ: "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة؛ فعمر بن الخطاب". والخامسة: مرتبة الإفهام، قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والسادسة: مرتبة البيان العام، وهو تبيين الحقّ وتمييزه من الباطل بأدلّته وشواهده وأعلامه، وهذه المرتبة هي حجّة الله على خلقه التي لا يعذّب أحداً ولا يضلّه، إلا بعد وصوله إليها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] والسابعة: البيان الخاصّ، هو البيان المستلزم للهداية الخاصّة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلّف عنه الهداية البتة، قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فالبيان الأوّل شرط، وهذا موجب. والثامنة: مرتبة الإسماع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، والتاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨]، أمّا جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتُجّ عليه بأنّ الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له، وربما صعب عليه فلم تطاوعه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور. والعاشرة: الرؤيا الصادقة وهي ستة وأربعين جزءاً من أجزاء النبوة. وفي سبب التخصيص قيل إنّ أول مبتدأ

الوحي كان الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثمّ انتقل إلى وحي اليقظة مدّة ثلاث وعشرين سنة، فنسبة ذلك إلى الوحي في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً، وفي رواية هي جزء من سبعين.

٢- ضوابط العلم:

الانضباط الخلقيّ في العلم لا يكفي وحده، كما أنّ الانضباط العلميّ في مسألة التفكير لا يكفي، فلا يقبل عرض قضيّة مكتملة وهي تتعارض مع الفضيلة والأخلاق. من أهم الضوابط ما يأتي:

أ- الموضوعيّة:

وذلك بأن يكون التنظير العلميّ والقوانين مبنيّة على دراسات عميقة مستمدّة من أدلّة قطعيّة، فيتخلّى عن عواطفه وانفعالاته خاصّة في العلوم الإنسانيّة التي تخضع للآراء الاجتهاديّة القابلة للأخذ والعطاء، ويتحرّى العدل في الأحكام، وهي على هذا "معيار أساسيّ من معايير البحث على الصدق، والعلم، والأمانة، والبعد عن الأهواء الشخصيّة.

ب- الأمانة العلميّة:

وهذه القاعدة مبنيّة على حفظ حقوق الناس، سواء الماديّة أو المعرفيّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣]، فالأمانة العلميّة من آكد الأمور في النقل، وذلك بالاعتراف بفضل من أخذ عنه، هذه الأمانة العلميّة تُضم إلى خلق الصدق الذي يعكس ما في أعماق الشخصيّة المحترمة لنفسها والمحترمة لغيرها، وآيات الصدق

متعددة، منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، فكان الصدق من خصال التقوىٰ والإيمان ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

ت- أدب الخلاف:

قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، والجدال بالتي هي أحسن يكون بترك الفظاظة في الخطاب التي لو استعملها خير الخلق مع خير أصحابه لانفضوا من حوله ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالمناظرات لقصد الخير وإبلاغ الحقّ، فلا يصح فيها استفزاز الخصم والطعن في النوايا وتسفيه الأحلام، بل من أخلاقها الإشادة بما للخصم من الفضل والعلم، والتلطف واللين في القول، وقد ورد في القرآن النهي عن إثارة الآخرين ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٢]، ولهذا كان منهج الأنبياء يتميّز بالرفق والبيان والتلطّف في الجدال والإيضاح للحقّ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ث- الدليل قبل التنظير والتقعيد:

فالتثبّت وصدق النقل لا يكفي ما لم يكن الأساس المستند إليه صحيحاً؛ لذا كان المنهج القرآنيّ قائماً على المطالبة بالدليل – أولاً- على صحّة أيّ ادعاء، وسمات أهل الحقّ تتّبع الدليل ثمّ الاعتقاد، وسيم أهل الباطل الاعتقاد المبنيّ على ما تشتهي الأهواء أو ميراث الآباء، ثمّ البحث عن الدليل لصبغ تلك السوالف بالرداء الشرعيّ العلميّ، وذلك إنما هو التماس لمخرج

من مواجهة الصواب والحقيقة، لا قصداً نحو الحقّ والهداية. والدليل قد يكون نقليّاً، وقد يكون عقليّاً، أو حسيّاً، ولكلّ مسألة ما يناسبها من الأدلّة والمسالك، وما يصلح في علم لا يصلح في غيره لزوماً. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وللدليل مسمّيات عدّة في القرآن، منها العلم وأثارة من علم كما سلف، ومنها الكتاب، ومنها البرهان، ومنها السلطان، ومنها الحجّة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والآية: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]. والبيّنة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ١١٠]. والبصائر: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

جـ- العناية بلغة العلم:

يراد بهذا فهم مصطلحات العلم المتخصّص فيه والعناية بالمصطلحات المهمّة؛ لأثرها النفسيّ على العقول والقلوب. فالمصطلحات نشأت لحاجة الناس إليها، ثمّ تطوّرت حتى صارت عاملاً مفيداً وخطيراً في التأثير في فهم الناس، فهي مفاتيح للعلوم، ولها تأثير سلباً وإيجاباً في العلوم والسلوك، وهي وسيلة لتركيب المعاني الظاهرة والباطنة في مصطلح باشتماله على أفكار عدّة، فيوجه العقل إلى معنى يراد منه من قبل، فالمصطلح يجعل العقل لا يتوجّه إلى الفكر إلا على ما جُعل واتفق وما تواضع أهله عليه. فاللفظ حين يقال تكتنفه ظروف، وملابسات، وبيئات، وأزمان، وأفكار، وتخصّصات، وثقافات، كلّها تحدّد المراد منه في غالب الأمر، فإن أخذ مجرّداً عن ذلك أوقع

في الخلل والتخبّط.

حـ- تناسب القدرات المعرفيّة مع مجال البحث:

أدوات العلم لدى الإنسان لها قدرات محدودة ومجالاته منتهية؛ لذا كان للسمع فاصلٌ لا تدرك فيه الأصوات، وللعين مجال لا تبصر فيه الصور، وللعقل حدود لا يعيها، فمن ضوابط العلم أن لا يبحث الإنسان فيما لا طاقة له به؛ لأنّ ذلك من إضاعة الوقت وإهدار الجهد. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثالثاً: النظرة الشاملة للعلم في القرآن الكريم

المتفحّص لكتاب الله تعالى والمتدبّر لآياته يجد مواطن كثيرة تبسط النظرة الشاملة للعلم؛ حيث يعمّ مطالب الدنيا والآخرة معاً. ففيه كل ما يتعلّق بالقضايا الإنسانيّة، وعلى رأسها الوجود نشأةً وتطوّراً ونهاية، وقضيّة التوحيد، وما يتعلق بالكون من سماء ونجوم وكواكب، ودعا إلى التفكر فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

وشموليّة العلم تتّضح جليّاً في سورة العلق، والمتأمل للآية الأولى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]، فالآية صدرت بفعل الأمر (إقرأ)، للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، بارّهم وفاجرهم، والمفعول به هنا غير مذكور! ! ممّا

يدلّ على إرادة عموم القراءة، قال الشوكانيّ في تفسيره: والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً.

فالقراءة هنا ربانيّة في المبدأ والوسيلة والغاية، وهذا ينفي الانحرافات العنصريّة، والتقليد الأعمى، والتعصب للعرق أو الجنس أو التوجّه أو الفكر. فالقراءة هنا تكتسب بُعْد العالميّة، شاملة لكلّ حاجيات الناس كافة في حالهم ومعادهم. وتعليل حصر منهج القراءة بالربانيّة كان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فهو ربكم خالقكم، وهو العالم بما خلق وما يناسبه، فكان ذا شرعيّة في تحديد المنهج. والمتدبّر لكتاب الله تعالى يجد العلم فيه يدور – في الغالب– على محاور ثلاثة لا يكاد يتجاوزها إلى غيرها، أولها: ما يتعلّق بتوحيد الله تعالى في ربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته، وما يتعلّق بها من قضايا العبادة، وثانيها: ما يتعلّق بقضايا الكون، وما أودع الله فيه من الحكم والأسرار، وثالثها: فما يتعلّق بأحوال الأمم من حيث منظومة علاقاتها بالخالق والمخلوق. وكلّ بعد من هذه الأبعاد تتعلّق به علوم متخصّصة، فالبعد الأول: تتعلّق به علوم الشريعة على اختلاف تخصّصاتها، والبُعد الثاني: تتعلّق به العلوم الطبيعيّة على اختلاف تخصّصاتها، والبُعد الثالث: تتعلّق به العلوم الإنسانيّة على اختلاف تخصّصاتها كذلك. هذه الصورة هي التي تعطي شموليّة للعلم في القرآن الكريم، فلا ماديّة ملحدة، ولا لاهوتيّة رهبانيّة مغالية في المثاليّة، فالتوازن من خصال التوسّط والوسطيّة في القرآن الكريم. والدنيا مسخّرة لصالح الإنسان ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

يقسم العلماء العلم إلى ثلاثة أقسام، هي: علوم الشريعة، وعلوم الكون، والعلوم الإنسانيّة.

١ - علوم الشريعة:

تشمل شعائر الدين وأصوله من عقيدة وعبادات، فهذه الغاية منها فهم مهمّة الإنسان في الكون وعلاقته مع ربه وإدراك مصيره، فالله تعالى خلقه ليعبد ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتحقيق هذه الغاية يقتضي فهم المهمة وإدراك الأوامر والنواهي، فلا بُدَّ أن تطبّق الشعائر على أسس علميّة واعية. وعلوم الشريعة كثيرة ومتنوّعة، منها: علم العقيدة وهو الفقه الأكبر، ثم الفقه، وهو معرفة الأحكام الشرعيّة المنزّلة المتعلقة بالعبادات والشعائر والمعاملات الماليّة والشخصيّة والحدود والعقوبات، وغيرها من علوم الشرع.

٢ - علوم الطبيعة:

أو علوم الكون، وهي المتعلّقة بتسيير أمور الناس على ظهر هذه الأرض، وهي قاسم مشترك بين الأمم، والمعرفة فيها تراكميّة، يبني فيها الآخر على ما توصل إليه الأول. سمّاها ابن خلدون بالعلوم العقليّة؛ وهي جزء من العلوم العقليّة، وكلّ إنجاز للعلم يكون آية عنه وحجّة له تؤكّد فضل الله عليه، فالبحث في علوم الدنيا هو أساس العمارة وقيام الحضارة والسير في الأرض، فكلّ أمر في القرآن بالنظر في النبات أو الأنفس أو السماء إنما ينسحب ضمناً على هذه العلوم، بل التمكين في الأرض لا يكون إلا بقوّة

في العدد والعدّة، وهذا لا يكون إلا عن قوّة اقتصاديّة ماليّة وصناعيّة، وقوّة حضاريّة وعلميّة، فالاستجابة لله في الأخذ بهذه العلوم لمن فتح له الباب فيها هو تعبديّ. ومسؤوليّة المسلمين في نشر الدعوة والقيام بالحقّ وقيام دين الله لن يكون بمثاليّة خياليّة، بل ذلك كلّه يستشعر منه الأمر بالقيام الحضاريّ في جوانبه جميعها، فانحطاط المسلمين دنيويّاً هو فتنة للكفار، ودليل على عدم كرامتهم عند ربهم بزعم المخالف لهم؛ لذا كان دعاؤهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥] ويستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

٣- العلوم الإنسانيّة:

وهي عدة فروع، منها: "علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة والتاريخ والاقتصاد، " وغيرها، وهذه العلوم لم تكن مستقلّة ذات تصانيف مفردة في صدر الإسلام؛ فالقرآن الكريم "قد أعطى إجابات قاطعة عن أصل الإنسان، وعن الغاية من وجوده، وعن تكوينه وخصائصه وحريته ومسؤوليّته، وعن عمله ومصيره، وعن علاقته حسب وضعه في البنية الاجتماعيّة، وعن تأثيره وتأثره بالأشياء والأحياء، وعن سلطانه على الأشياء والأحياء، وعن حدود هذا السلطان، وكلّ هذه الموضوعات التي أصبحت اليوم في الغرب مجموعة من العلوم المتخصّصة في النفس والاجتماع.

فالعلوم الإنسانيّة قائمة على دراسة موضوع هو "إنسان ما" في "بيئة ما"؛ لذا كان ما يصلح في مجتمع لا يُرجى لغيره دائماً، وعليه فنحن في غاية الغنى

عن كثير من الأبحاث الإنسانيّة التي كان موضوعها الإنسان الغربيّ بضلاله وانحرافه، وليس من العدل أن تقدّم تلك الأبحاث لأمتنا على أنها نماذج للعلوم الإنسانيّة، إلا إذا كنّا نعرضها كنموذج للعبث الذي يسمّى علماً، وللضياع الذي يسمّى حضارة، وللفساد الذي يسمّى تقدّماً".

الفصل الثالث:

المقارنة بين المعرفة والعلم

يتطلّب الوقوف على دلالات العلم والمعرفة بغية تحديد مفهومهما، الخوض في مباحث العلماء الفكريّة متعدّدة الألوان والاتجاهات اللغويّة والعقديّة؛ لأنهم يتصرّفون بالألفاظ ويطوعون معانيها لأفكارهم، وينقلون دلالتها إلى عرفهم؛ لذا كان الرجوع إلى الأصل اللغويّ مهمّ لفهم الدَّلالة وتحديد الحقل الدلاليّ لضبط المصطلحين. وللعلم درجات من حيث الشكّ والظنّ واليقين، وفيه حركة للفكر في المعقولات، كما أنّ فيه انقداح فكر وخاطر، وسرعة بديهة وذكاء، وقد يكون العلم علماً مجرّداً سطحيّاً، وقد يكون علماً مستغرقاً عميقاً أو فقهاً. لذلك كلّه نجد أنّ للعلم أو المعرفة مرادفات كثيرة، وكان لكلّ مرادف علاقة بالعلم الشامل من جهة ما، واختصاص من جهة أخرى.

أولاً: الفروق اللغويّة والاصطلاحيّة

تحديد الفروق بين العلم والمعرفة يكون بالبحث في الدلالات المعجميّة والاستعماليّة، وتحليل مادّة كلّ منها، ومتابعة الأصول باستقراء المادّة في المعاجم اللغويّة والاصطلاحيّة.

١ - الفروق اللغويّة:

نتيجة للتداخل بين مصطلحيّ العلم والمعرفة فلا مندوحة من تتبّع المصطلحين لضبط الفروق بينهما، ولأنّ لكلّ مصطلح علاقة بأصله اللغويّ

كان لزاماً علينا الرجوع إلى المعاجم.

فالعلم سُمّي علماً من العلامة؛ وهي الدَّلالة والإشارة، أمّا المعرفة فهي من العرف ضدّ النكر، والعرفان خلاف الجهل. وتَعَرَّفْتُ ما عند فلان، مصدره التعَرُّف: تَطَلُّب الشيء. والمعرفة حاصلة بعد عدم، وذلك العدم هو إمّا لجهل أصليّ بالشيء أو لنسيان بعد معرفة، فكان عدماً بين معرفتين، فكأنّ الشيء كان مختفياً عن الذهن، ثمّ تجلّى أمامه بارتفاعه وعلوّه عن غيره من المدركات في تلك اللحظة، والمعرفة فعلها يقع على مفعول واحد، فتقول: عرفت الدار، قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: ٥٨]، ويقتضي فعل العلم مفعولين: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠].

هناك قرب بين معنى العلم ومعنى المعرفة، ذلك أنّ كلاً منها يُعدّ دلالة على شيء، وإن كانت المعرفة تدلّ على ما ارتفع، وتأتي بمعنى المجازاة، وفي المعرفة علم بسبب المجازاة، وفيها علم وعمل. ومن ثمّ كانت معرفة الله تعالى: العلم اليقينيّ به، وعمل ما يتناسب مع قدره سبحانه، والمعرفة تشمل في معانيها الاعتراف والإقرار، وهما علم وأدلة.

٢- الفروق الاصطلاحيّة:

المعرفة عند بعضهم أخصّ من العلم؛ لأنها عِلمٌ بعَيْن الشيء مُفَصَّلاً عما سواه، وكل معرفة علم، وليس كل علم معرفة، لأن لفظ المعرفة يُفيد تمييز المعلوم من غيره، ولفظ العلم لا يفيد ذلك. والمعرفة تقال فيما يُتَوصل إليه بتفكر وتدبر، وتستعمل فيما تدرك آثاره، ولا يدرك ذاته، تقول: عرفت الله،

والعلم يستعمل فيما يدرك ذاته. وحال الإبهام تقول عرفت زيداً؛ ولا تقول علمت زيداً.

وقيل العلم يكون بالاكتساب فخصَّ به الإنسان، والمعرفة بالجبلة؛ وقيل: العلم أخصّ من المعرفة لأنها قبله؛ إذ تكون مع كلّ علم معرفة، وليس مع كلّ معرفة علم. والمعرفة هي ثمرة التقابل والاتصال بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وتتميّز من باقي معطيات الشعور؛ من حيث أنها تقوم في آن واحد على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين. فالمعرفة تقال على استثبات المحصول المُدْرَك، خصوصاً إذا تكرّر إدراكه، فيقال لذلك الإدراك الثاني بهذا الشرط (معرِفة). والمعرفة عند جمهور الناس أصلها قد يقع ضروريّاً فطريّاً، وقد يحتاج إلى النظر والاستدلال. وقيل: إنّ المعرفة نتيجة العقل: "العقل غريزة، والمعرفة عنه تكون."

ويرى البعض أنّ المعرفة لا تكون إلا مكتسبة، والعلم يقال لإدراك الكليّ أو المركّب، والمعرفة تقال لإدراك الجزئيّ أو البسيط. والمعرفة تنصرف إلى ذات المسمّى، أمّا العلم فينصرف إلى أحواله من فضل ونقص؛ لذا جاء الأمر في القرآن بالعلم من غير المعرفة، وميّز بينهما. يقابله في الضدّ الجهل والهوى، أمّا المعرفة فهي ضدّ الإنكار والجحود.

ورد كلا اللفظين في القرآن الكريم، فلفظ المعرفة كقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٦]، وفي ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، أمّا لفظ "العلم" فهو أوسع إطلاقاً، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: ١٩]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، وغيرها كثير.

والله سبحانه وصف نفسه بأنه "عالم"، و"عليم وعلام ويعلم"، وأخبر أنّ له علماً، فالفرق بين إضافة العلم إلى الله تعالى وعدم إضافة المعرفة يرجع إلى المعرفة نفسها ومعناها.

ثانياً: المصطلحات المرادفة للعلم والمعرفة في القرآن الكريم

أخذ العلم مفهوماً جامعاً لمعانٍ كثيرة؛ لأنّ العلم أو المعرفة علاقة بين عالم ومعلوم، وبين ذات عارفة، فهو من جهة ذاتيّ، ومن جهة أخرى موضوعيّ؛ أي له موضوع متحقّق في الخارج، وهو درجات تبدأ من الحسّ إلى التجريد العقليّ، ثمّ الحفظ والتذكّر، ثمّ التفكّر والتدبّر. وله درجات من حيث الشكّ والظنّ واليقين، وفيه حركة للفكر في المعقولات، كما أنّ فيه انقداح فكر وخاطر، وسرعة بديهة وذكاء، وقد يكون العلم علماً مجرّداً سطحيّاً، وقد يكون علماً مستغرقاً عميقاً أو فقهاً.

وهنا نقف على أهم هذه المرادفات، ومنها: الأَذْن: العِلم، الاسم من أذِن يأذَنُ، مصدره بمعنى الإعلام، وقد ورد في القرآن بأكثر من صيغة دالاً على معنى الإعلام والإخبار. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]؛ ومنها البصير: العليم بالشيء الخبير به: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦]؛ أي علمت ما لم يعلموا. والحس: مأخوذ من إصابة الحاسّة، من الثلاثي حَسّ، والإحساس

الوجود والمشاهدة، ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ أي: فتعرَّفُوا منهما وتطلَّبوا خبرهما، والحكمة: هي العلم بالأمور العمليّة فقط، والعلم أعمّ منها. والخبر: وهو العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر. والخُبر بالضمّ، هو العلم بالشيء مع بيانه ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: ٦٨]؛ والخِبرة: المعرفة ببواطن الأمور. والدَّرك: والإدراك هو اللقاء والوصول، والذكر: وهو هيئة للنفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، "﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ [يس: ٦٩]. والرأي: النظر بالعين والقلب، والسؤال: استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى معرفة، والشعور: علم الشيء عن علم حِسّ، ومنها: وما يشعركم: ما يدريكم. والظنّ: علم يحصل من مجرّد أمارة، والظنّ والشكّ والتجوّز نظائر، إلا أنّ الظنّ فيه قوّة على أحد الأمرين دون الآخر. والعقل: ضدّ الجهل، وهو مجموعة علوم لأجلها يمتنع الحيّ عن كثير من المقبِّحات، ويفعل كثيراً من الواجبات. ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]. والفقه: هو العلم بالشيء والفهم له والفطنة، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة: ٨٧] والفهم: هو سرعة الفطنة وتوقّدها، وسرعة انتقال النفس من الأمور الخارجيّة إلى غيرها؛ والنظر: هو الإقبال على الشيء بالبصر، والوعي: معناه الجمع والحفظ، وجاء بمعنى التفكّر والتدبّر ولما يحفظ، ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقّة: ١٢]. واليقين: يعبّر عن التحقّق وإزاحة الشكّ والإدراك الواثق الذي لا يلتبس بوَهم أو ظنّ أو تخمين أوارتياب. واليقين هو العلم بالشيء بعد أن كان شاكاً

فيه، وذلك بعد أن تكثر الدلائل وتتوافق وتتطابق فتصير سبباً لحصول اليقين على سبيل الثقة؛ لذا كان كلّ يقين علماً، وليس كلّ علم يقيناً. فهو فوق المعرفة والدراسة، ولا يقال معرفة يقين؛ لأنّ اليقين من صفة العلم.

الباب الثالث

أدوات اكتساب المعرفة وطرائقها

ومصادرها في القرآن الكريم

الفصل الأول:

أدوات المعرفة في القرآن الكريم

طرائق المعرفة: هي الوظائف الإدراكيّة والقوى النفسيّة المعرفيّة من عمليّات الإدراك، والأذن هي الأداة والعضو الجسميّ، وظيفتها السمع وهو ما وقر فيها؛ أي هو قوّة مركّبة في عصب الأذن من شأنها أن تدرك الصوت، وهذا ما ورد عند طائفة من العلماء والنظار كالراغب وابن القيّم والكفوي وغيرهم.

لم يرد في القرآن الكريم عن المعرفة بالحواس -كأدوات غالباً- إلا مشاعر الأذن والعين، وحاستيّ السمع والبصر، أمّا اليد واللمس فدلالتها المعرفيّة كانت على أنها مقوّمة للإدراك البصريّ بالكتابة أو المعاينة.

أولاً: وظيفة الحواس وقدرتها المعرفيّة

يقسّم أهلُ الأصول العلمَ إلى اضطراريّ واكتسابيّ؛ فالحواس هي أبواب المعرفة الأولى، والحسّ أوّل مراتب الإدراك؛ وأجمع أكثر أهل التحقيق على أنّ النفس هي المدركة، والحواس نواقل للمعلومات؛ أمّا القول بنسبيّة الحواس وأنها مصدر خطأ، فالبعض يغلو فيه، وبعضهم الآخر لم نفهم تقعيدهم لهذه النسبيّة بجعلها دليل الخطأ وحجّة في عدم بلوغ اليقين بها.

يرى كثير من الباحثين في الفلسفة والفكر بفروعها أنّ الحواس تخطئ ولا تصل إلى اليقين، ويتّبعون في ذلك آراء بعض الفلاسفة القدامى وفلاسفة

المسلمين ومفكريهم وعلمائهم، ومنهم كثير كالغزاليّ، وابن حزم، وغيرهما. واستدلّ بعضهم بخطأ الحواس بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩]. والأدلّة في هذا تتكرّر. فالحواس نسبيّة، والمعرفة (الحسيّة اليقينيّة) هي التي تقدّم شهادة الحسّ مؤكدة قاطعة عندما تتواتر شهادات الحسّ هذه، وتتفّق مع الحواس الأخرىٰ ولا تتعارض مع أصول العقل وقوانينه، ولكن الحواس الخمس لا تستطيع الإحاطة بكلّ شيء، ولو قدّر لأيّ من الناس غير هذه الحاسّة لربما اكتشف أشياء كثيرة مغيّبة عنا. وقد اكتشف العلماء أنّ الفضاء مملوء بالصور التي لا نستطيع مشاهدتها بالنظر المجرّد؛ لعدم وجود قدر من الانسجام والتوافق بين وضعها ووضع أبصارنا، وهذه في السمع كذلك؛ فهناك مستوىٰ يعلو عن مستوىٰ سمعنا، وآخر دونه. قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقّة: ٣٨]

أمّا قول بعضهم إنّ الحواس لا تميّز، بل قولهم عن إمكان المعرفة وصدق الحواس بأنها احتماليّة غير يقينيّة، وقد يكون ما نتيقّنُه خيالاً أو وهماً أو حتىٰ حلم يقظة! ! والبصر والسمع لم يُنْف عنه اليقين في القرآن الكريم إلا في حالة وجود عوائق ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: ١٥]، فهنا كان ذهاب العقل لتعطيل قدرة البصر إمّا لسكر العقل وتخدّره أو بتأثير السحر على الأعين، قال تعالىٰ: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والسمع هنا سمع استجابة، فكلّ ذمّ للحواس في القرآن أو قطع لها عن العلوم إنما هو لمرتبة أعلىٰ من مرتبة

الإدراك الحسيّ العامّ، فكلّها حول الهداية التوفيقيّة التي تكون جزاء من الله تعالىٰ علىٰ ترك الهداية الإرشاديّة بإرادة من الإنسان نفسه، والعقاب بقطعها جزاء علىٰ الإعراض عن الاهتداء بعد السمع والبصر والفهم للحجّة، فتحجب الهداية التوفيقيّة وتبقىٰ الإرشاديّة.

فالله تعالىٰ منح عباده الحواس لينتفعوا بها علىٰ قدر ما منحهم من قدرة ومجال يدركون فيه، وهو مشترك بين المكلّفين جميعهم، ثمّ يقوىٰ من فرد إلىٰ آخر ومن حاسّة إلىٰ أخرىٰ؛ غير أنّ الطاقة البشريّة لا تقتصر علىٰ الحسّ دون غيره طريقاً للمعرفة؛ لأنّ ذلك يدخل في مزالق عدّة، فالله تعالىٰ أثبت الحجيّة علىٰ عباده بأن منحهم ثلاث طرائق وأدوات للمعرفة ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨]. فالقرآن لم يهمل الحواس الإنسانيّة ولم يشكّك فيها مثلما فعلت بعض الفلسفات العقليّة، ولم يرفعها فوق الوسائل الأخرىٰ مثلما فعل التجريبيّون الحسيّون. فالاعتدال في القرآن نحو الحواس لم يدع مجالاً لمشكلة حقيقيّة؛ ذلك أنّ معطيات الحسّ في القرآن هي المادّة الأولىٰ التي تعمل عليها وسائل الإدراك الأخرىٰ.

ثانياً: السمع والبصر في القرآن الكريم

١ - الأذن والسمع في القرآن الكريم:

الأُذن -بالضمّ- هي عضو السمع في الإنسان والحيوان، واللفظ مؤنث، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ

﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أمّا حاسّة السمع فهي أكثر ذكراً في القرآن الكريم؛ حيث ذكرت مائة وتسعاً وثلاثين مرّة. والسمع هو الإحساس الذي به إدراك الأصوات، فهو قوّة الأذن، قد يؤدي إلى الفهم، وربما لا يوصل إليه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وحاسّة السمع لها أهميّة كبيرة؛ لأنها تتلقّى المعلومات بجزئياتها المتغيّرة؛ لذا عُبّر عن الأذن بالإفهام، وعن فعل السماع بالسمع والطاعة.

وللسمع أنواع، هي: سمع الإدراك، وسمع الفهم والعقل، وسمع الإجابة، وسمع القبول والانقياد، و(السمع) لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد، والفعل الواقع بعد المفعول في موضع الحال. والسامع أعمّ لغة من المخاطب؛ إذ الحاضر هو المخاطب الذي يوجَّه إليه الكلام، والسامع يعمّ له ولسائر الحاضرين في المجلس. والسمع يعبّر عنه بأنه قوّة الأذن والأذن أيضاً، وما وقر فيها من شيء. قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ويعبّر عن الفهم والطاعة بالسمع، وكلّ نفي للسمع في القرآن هو نفي للاستجابة لما سمع بالطاعة والانقياد له، وكلّ إثبات هو بمعنى الفهم من ذلك ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: ٣١].

فخصائص السمع الممدوح في القرآن الكريم هي الفهم لما يُلقى، والاستجابة للأوامر، والانتهاء عن الموانع، فإذا تخلّف الفهم أو الطاعة والاستجابة كان النفي للسمع وهذا في حقّ المؤمنين والكافرين. فالإعراض عن الحقّ هو إعراض عمّا سُمع، فيكون في حكم الأصم؛ لذا قال عنه تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]، فهو سمع لكن لم يستجب، فكان في حكم من لم يسمع؛ لأنّ الغاية من الخطاب لم تتحقّق، فاستوىٰ وجوده بعدمه، حال مقابلته بالرفض والعصيان ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فتعطّل السمع إنما يكون لتعطّل محلّ الإدراك، وهو القلب؛ لذا جُمعا في الختم في عدد من الآيات، وأُفرد البصر بالغشاوة والغطاء، بل صرّح بذلك في آيات ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]؛ أي لا يسمعون ما ينفعهم للهداية، بل ما يقيم عليهم الحجّة فقط، فهم يفهمون ويدركون بالسمع ما قيل؛ لكن قلوبهم لا تقتنع وصدورهم لا تنشرح للحقّ، فاستوىٰ السمع والصمم؛ لأن الاستجابة منتفية، وإن كان الإدراك للأصوات وفهم الكلام قائم فالعمل بموجبه متخلّف عنه، وهذا قطع للغاية من الخطاب بالأمر أو النهي، فالمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البرّ والفاجر.

ويقسم السماع إلىٰ سماع الإدراك: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجنّ: ١]؛ وسماع الفهم: المنفي عن أهل الأعراض والغفلة: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [الروم: ٥٢]؛ وسماع القبول والإجابة: كما في الآية ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١]؛ وسماع خاصّة الخاصّة من المقرّبين هو سماع القرآن يتلىٰ بالاعتبارات الثلاثة، إدراكاً وفهماً وتدبّراً و إجابة، وكلّ سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم وأمر به أولياءه فهو هذا السماع، سماع كلام ربّ العالمين، وسماع المواعظ، وكلام الأنبياء والمرسلين.

٢- العين والإبصار في القرآن الكريم:

العين هي الباصرة، وتطلق على الحدقة؛ وقد تطلق العين على مجموع الغلاف وما فيه، كما يراد بها حقيقة الشيء المدركة بالعيان، أو ما يقوم مقام العيان.

ما يهمّنا هو العمليّات المعرفيّة؛ أي العين الجارحة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد: ٨] فمهمّة العين في القرآن هي الرؤية، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، والإبصار، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والمشاهدة، ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ [الأنبياء: ٦١]، وقد وصفت العين بأمور منها: الطمس ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، والقرى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، والمدّ، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] والازدراء، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١]، وفيض الدمع ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢]، والتغطية، ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١]، والدوران، ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، واللذة. ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

واستعمال النظر في القرآن كان بالإرشاد إلى التأمل، فهو تقليب للبصر مع استغراق وقت؛ إذ يقاربه في المعنى الانتظار، فلا يكون النظر بسرعة بل بتمهل؛ لأنّ الغاية من تقليب البصر وتحديق العين الوصول إلى إدراك المنظور إليه لتحصل منه الرؤية. وقد يراد به التأمل والفحص والمعرفة

الحاصلة بعد الفحص؛ وهي الرويَّة. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامّة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصّة. فيقال: نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه، رأيته أم لم أره، ونظرت فيه: إذا رأيته وتدبّرته، ونظرت له: رحمته، وإليه: رأيته، وعليه: غضب عليه، ونظره انتظره. وللنظر أحوال كثيرة، وكيفيّات متنوّعة يصعب حصرها وتفصيليها.

٣- المفاضلة بين السمع والبصر في القرآن الكريم:

أ- التفاضل بين السمع والبصر عند العلماء:

اختلف العلماء في بيان السمع والبصر، أيهما أفضل؟ فبينما يفضّل بعضهم السمع، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣]؛ قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان ذلك دليلاً على أنّ السمع أفضل. يرى آخرون أن البصر أفضل، واحتجوا بأن أفضل النعم هو النظر إلى الله تعالى، وهذا يكون بالبصر. وأن مدرك البصر أتمّ وأكمل، كما أنّ محلّه أحسن وأكمل وأعظم من محلّ السمع؛ وذلك لشرفه وفضله.

ب- الجمع بين السمع والبصر في القرآن الكريم:

ورد السمع والبصر في القرآن منفردين وجمعاً في ستة وثلاثين موضعاً، منها ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، فالحديث عن الحواس كأدوات

للمعرفة كان غالباً عن السمع والبصر مجموعين، لأسباب عدّة، منها: أنهما أداتان من أهمّ أدوات الإدراك التي يترتّب عنها معرفة الله تعالى، وأنهما الطريقان الرئيسيان بين المعرفة والعقل، وأن فقدان الحاستين يُفقد العلم كلّه كلاماً ولغة وقراءة، وأن السمع يدرك خلال الضوء والظلمة، ومع وجود الحواجز الفاصلة بين السامع وغيره؛ إلا أن تكون كاتمة، على عكس البصر لا يبصر إلا بوجود ضوء ينعكس في العين. كما أنّ النائم أوّل ما يستيقظ منه المنبّه السمعيّ ويليه البصريّ. فكان أوّل الحواس اشتغالاً بعد النوم، وآخرها قبل النوم.

ت- أسباب تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم:

ما يلاحظ في القرآن الكريم أنّ السمع كان دائماً مقدّماً على البصر في الذكر كلما اقترنا، وهذا الترتيب كان في كتاب الإعجاز اللغويّ والبلاغيّ؛ وهو القرآن، فلا يكون إلا عن سرّ، وهو قاعدة أفضليّة المتقدّم على اللاحق، خاصّة وأنّ هذا التقديم شمل كلّ المواضع التي اجتمع فيها السمع معَ البصر. وهذه الملاحظة هي إحدى أدلّة القائلين بأفضليّة السمع على البصر من الناحية المعرفيّة، وهذا يستند إلى دلائل أخرى في القرآن الكريم والواقع، هي: اقترن السمع بالعقل في غير ما آية، من غير اقتران البصر بالعقل، مثل ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، واقترن لفظ السميع بالعليم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٣٠] وأن حاسّة السمع دائمة العمل من غير توقف، بخلاف البصر فتتوقّف بإغماض العين.

أمّا من زاوية معرفيّة خالصة فأفضليّة السمع تكون لأمور منها: أن السمع أهمّ في إقامة الحجّة على الخلق؛ وأن السمع ينقل المعارف الماضية

والأخبار الآتية، أمّا البصر فينقل الحاضر المعاين، وأن جهات استقبال السمع متعدّدة، بخلاف البصر الذي لا يكون إلا بالمقابلة. وأن حاسّة السمع تشتغل ليلاً نهاراً، في الظلام والنور، أوّل حاسة تستجيب من النائم حاسّة السمع، وإن كان مغمض العينين، وأن فاقد السمع يفقد النطق؛ لعدم القدرة على التلقين وإدراك المخارج والصفات، فيفقد خاصيّة المخاطبة.

ث- أسباب تقديم البصر على السمع في القرآن الكريم:

ورد البصر متقدّماً على السمع في مواضع كان الغالب فيها الذمّ والتعطيل والعقاب. ففي حالات المدح بقدّم السمع، أمّا في ما عاكسها فيقدّم البصر، وهذا لا ينفي أفضليّة السمع بل يثبتها. ومن المواضع التي قدّم فيها البصر على السمع قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومما هو معلوم أن البصر أهمّ للحيوانات من السمع؛ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]؛ فقدمت حاسّة البصر المعطّلة على حاسّة السمع المعطّلة. وجاء تقديم البصر في موقف تعذيبهم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وفي حالة ندم الكفار ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]؛ فالمعاينة بالبصر أقوى من الخبر المنقول، والمشاهدة آكد.

ثالثاً: القلب في القرآن الكريم

بعد أن تكلّمنا عن الحواس نبيّن الجانب المكمّل في التحصيل المعرفيّ كما ورد في القرآن الكريم وهو القلب، الذي ورد بمعانٍ وألفاظ كالفؤاد واللبّ،

فكان في الآيات جميعها التي بيّنت طرائق العلم وتحصيل المعرفة بإثباتها أو نفيها ذكر وسائل المعرفة وهي القلب أو الفؤاد، ثمّ السمع والبصر، مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨] فالقلب أداة وظيفتها التعقّل، والأذن وظيفتها السمع، والعين وظيفتها الإبصار. وجمع بين القلب أو الفؤاد وحاستيّ السمع والبصر في قرابة عشرين آية، كلّها تنبئ أنّ القلب أداة داخليّة في الجسم دورها متكامل مع الحواس الخارجيّة، خاصّة السمع والبصر.

١ – مفهوم القلب في القرآن الكريم:

قال أهل اللغة في معناه: هو الفؤاد، والعقل المحض، وخالص كلّ شيء، والتقلّب الحيلة. والقُلَّب: الذي يقلّب الأمور عن عِلْم بها. وسمّيت المضغة الصنوبريّة قلباً؛ لكونها أشرف الأعضاء لما فيها من العقل، وسرعة الخواطر والتلوّن في الأحوال، ولأنها مقلوبة الخلقة، كما يشهد به علم التشريح. ويسمّى عند بعض الفلاسفة: "بالنفس الناطقة، والروح الباطنة، والنفس الحيوانيّة المركّبة، وهي النفس المدركة العالمة من الإنسان والمطالبة والمعاقبة. قال الجرجانيّ: "القلب مصطلح على اللطيفة الربانيّة بالقلب الجسمانيّ الصنوبريّ الشكل المودع من الصدر، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان". أمّا القلب الصنوبريّ فقيل إنه سبع طبقات، هي: الصدر: محلّ الإسلام والوسواس والحفظ والذاكرة. والقلب: وهو محلّ الإيمان والتعقّل والسمع والبصيرة. والشغاف: وهو محلّ محبة الخلق. والفؤاد: وهو محلّ رؤية الحقّ. والسويداء: محلّ العلوم الدينية. ومهجة القلب: محلّ تجلّي الصفات.

وحبة القلب: محلّ محبّة الحقّ.

ويرد القلب في القرآن على معان ثلاثة: العقل وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ والثاني: الرأي والتدبير ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، والثالث: حقيقة القلب الذي هو في الصدر ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. وقد يطلق على القلب عقلاً، مثلما أطلق على الأذن السمع، فسمّيت الجارحة "الأداة" بوظيفتها، وقد تذكر الجارحة والمراد وظيفتها، لأنّه لم يورد الأدوات من الناحية التشريحيّة بل من الناحية الوظيفيّة وفقط. غير أنّ العقل هو أحد القوى الإدراكية لا كلّها، فهناك الفكر والذاكرة والحافظة والفهم.

٢- المصطلحات المرادفة للقلب في القرآن الكريم:

إذا تتبعت الآيات بالقرآن باحثاً عن المفاهيم المعرفيّة وجدت قسمين: أدوات لها وظائف، كالحواس تذكر الأداة الجارحة، ثم تحديد وظيفتها. وقد تذكر الوظيفة من غير أداتها، لأنّ الغاية والمراد الجانب العلميّ والعمليّ؛ لا الجانب الماديّ الجسميّ. كما قد تذكر الوظيفة بذكر الأداة فقط، من غير التصريح بعملها، كناية عن الوظيفة؛ وهذا يجليه السياق، وذلك لتضمّنها لها، وبيان الغاية من الأداة. فالمراد "العقل" من القلب بالسياق، وهو الذكرى وفهم الوحي، وهذا لا يكون إلا بالقوّة العلميّة بالقلب؛ أي قوّة العقل وهي التعقّل.

ونحاول فيما يأتي جمع الأدوات التي نسب لها بعض وظائف القلب الإدراكية، مما يفهم من ذلك أنّها مرادفة له؛ لا شيء خارج عنه. وذاك لأنّ

القرآن حصر أدوات تحصيل المعرفة في ثلاث لا رابع لها، وهي القلب والأذن والعين.

أ- الفؤاد:

الفؤاد عند أهل اللغة هو الحُمّى وشدّة الحرارة. والفؤاد القلب، سمّي بذلك لحرارته وتوقُّده. وقيل هو غشاء القلب، وقيل: باطن القلب، والقلب حبّته وسويداه. والفؤاد الرقيق تسرع إمالته، والفؤاد الغليظ كالقلب القاسي لا ينفعل لشيء. وإطلاقه كان على المعنوي؛ لا على الجارحة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال ابن عاشور: الأفئدة: جمع الفؤاد؛ وأصله القلب، ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا. غير أنّ "الفؤاد" ورد بوصفه مفهوم طاقة، أو ملكة، وبالأحرى وظيفة معرفيّة إدراكيّة، إذ نجده يقرن مع وظيفة السمع والبصر؛ أي مع قوى الإدراك لا مع وسائلها. فقوى تحصيل المعرفة هي السمع والبصر والفؤاد، غير أنّه لم ترد آية واحدة في سياق الامتنان؛ جمعت فيها الحواس مع القلب، بل كان الجمع معه في مقام الذمّ دائماً؛ إمّا بالإنكار أو التحقير أو إقفال طرق العلم بالطبع أو الختم أو الغشاوة.

وباستقراء آيات الفؤاد في القرآن ومقارنتها مع آيات القلب نلاحظ ما يأتي: اختصاصه بالرؤية ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، واختصاص الفؤاد بالكذب، بينما وصف القلب بالزيغ والإنكار والظنّ والعمى والنفاق. ووصف الفؤاد بالفراغ والهواء: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن

كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠]؛ وفي معنى الفراغ أقوال؛ غير أنّ كلّها تدلّ على أنّ سبب الفراغ الخوف. قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣]. نجد أن الفؤاد قد وصف بالهوى والصغو، ووصف بالتثبّت: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]؛ ووصف الفؤاد والقلب معاً بالتقلّب: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فمع أنّ كليهما وصف بالتقليب غير أنّ الفؤاد كان تقلباً لقوى الإدراك، أمّا القلب فكان لقوى الإرادة؛ أي إنّ تقلّب الفؤاد معرفيّ، أمّا القلب فوجدانيّ ومشاعريّ.

فقوى الإدراك ثلاث: السمع والبصر والفؤاد، وكلّها من شأن النفس المدركة بالقلب، وهذا ما لم نجد فيه خلافاً يقوم معه، لذا قال الغزاليّ: اعلم أن محلّ العلم هو القلب. نفهم من هذا أنّ القوى المدركة بالفؤاد، وقوّة السمع وقوّة البصر المدركة بالقلب، فالأذن ناقلة للأصوات، والعين للصوّر، والفؤاد هو المدرك لها والفاهم والمفكّر.

فأوّل مراتب العلم هو الشعور وهو إدراك من غير إثبات، فكأنّه إدراك متزلزل: يكون قبله الإحساس وهو إدراك الشيء مكتنفاً بالعوارض الغريبة واللواحق الماديّة، مع حضور المادّة ونسبة خاصّة بينهما وبين المدرك. والإحساس للحوّاس الظاهرة، أمّا الإدراك فللقلب أو العقل أو اللطيفة الروحانيّة النفسيّة. وقد صرّح المحقّقون بأنّ القوى الجسمانيّة آلات للإحساس؛ والمدرك هو النفس. ففعل القلب المعرفيّ الإدراكيّ يبتدئ من حيث ينتهي الحسّ لذا قيل" بداية العقول نهاية المحسوسات."

ب- اللب:

وهو العقل الخالص من الشوائب، وقيل ما ذكا من العقل، فكل لب عقل ولا عكس. ولهذا علّق الله الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الذكيّة؛ بأولي الألباب. واللب هو القلب الخالص، وخالص القلب، ويكنى به عن العقل، لأنه خالص القلب والخطاب موجّه له. واللبيب العاقل، وألب به لبًّا، إذا أقام به، والملبوب: الموصوف بالعقل. فأصل اللُب من أَلَبَّ، وهو كاللَّب -بالفتح- بمعنى الملازم، وبالضمّ بمعنى الخالص من كل شيء. وهو قلب كل شيء وعقله.

ورد لفظ اللب في القرآن الكريم في صيغة الجمع المضاف لِاسم الإشارة؛ دلالة على الاختصاص والاستحقاق؛ مثل ذاك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]؛ أي صاحب علم، وهذا أرفع من لفظ "عالم"؛ لاختصاصه بالعلم دون غيره. وفي ورود اللب بصيغة الجمع نكتة بلاغية – ذكرت في الفصل الأول- فائدتها انتفاء الثقل في النطق.

باستقراء آيات اللب في القرآن نلاحظ تخصيصه بأمور منها: منح أولى الألباب صفات خاصّة بهم دون غيرهم، وأخرى شرط في انتسابهم لهذه الخاصيّة، منها الإيمان والهداية، والتقوى والعلم، والتفّكر في خلق الله تعالى، والتدّبر في وحيه. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر: ٥٤]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠]. ويمثّل اللب خالص القلب، بل خالص العقل، والتذكّر أعلى من الفقه، والتعقّل، والرؤيّة، ومن التفكّر، لذا نجد في

آية القصاص ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فكان لا بدّ من طرح سؤال: كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف؟ لأجل دفع هذا السؤال؛ ذكر عقب بيان أحكام القصاص؛ حكمة تشريعه؛ وهي ضمان بقاء الحياة للذين يقيمون حدود الله، وهذه ما يعقلها إلا أولو الألباب؛ لإبصارهم العواقب من تجاربهم في الدنيا، وفهمهم لسلوك الناس وعادات مجتمعاتهم، ويعلمون أثر الخوف من العقاب، والردع الناتج من ذاك.

فيكون بذلك أولو الألباب هم خلاصة ذوي العقول، فهم من يستحضرون العلوم بعد التفكّر والتبصّر فيها وحفظها؛ فيتجلّى لهم ما لا يطّلع عليه غيرهم. وأولو الألباب هم خاصّة عباد الرحمن الذين أقبلوا على طاعته، وتزوّدوا بالتقوى، وآمنوا وعلموا، ثمّ تفكّروا وتدبّروا، فخصّهم الرحمن بإدراك أسرار التشريع، وحِكم الأحكام دون غيرهم؛ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. فهم ذوو الحكمة والرسوخ في العلم، لذا أناط بهم خاصيّة التذكّر؛ لأنّهم اختّصوا دون غيرهم باللب، وإذا قيل أنّ اللب هو العقل؛ فهنا إشكال وهو: إذا كان لا يصّح الخطاب إلا للعقلاء فما الفائدة في قوله "أولي الألباب"؟ هنا يعلم أنّ اللب هو العقل الخالص من الشوائب، وليس كلّ صاحب عقل صاحب لب. كما أنّ الخطاب في الآية كان المراد منه التنبيه على أولي الألباب بأنّهم تلحقهم لمكانتهم العلميّة تبعة المحاسبة والرقابة، فهم أعلم الناس بمراد الله تعالى؛ فكان لا بدّ لهم أن يكونوا أسبق الناس عملاً بذاك العلم، وإعراضهم أقبح من إعراض غيرهم؛ لعظم الحجّة القائمة عليهم مقارنة بغيرهم.

ت- الأبصار:

وهي البصيرة، وقد وردت بصيغة الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]؛ قال الراغب: يقال لقوّة القلب المدركة بصيرة، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة، وقلما يقال بَصُرت في الحاسة إذا لم تضامه رؤية القلب. ولأنّ البصيرة كانت بمعنىٰ قوىٰ الإدراك نجد تفسيرها لا يتجاوز ذلك، قال الطبريّ في معنىٰ "لأولي الأبصار"، ممن له فهم وعقل. والبصيرة وظيفتها التبصّر، وهذه درجة قبل التذكّر؛ فهي نور في القلب يبصر به، فيقوم في قلبه شواهد الحقّ، ويرىٰ حقيقة ما يبلغه ويخبر به عن طريق الرسل، فالبصيرة ما خلّصك من الحيرة إمّا بإيمان أو عيان. والبصيرة خصّت بالعبرة، وخصّ اللب بالتذكّر. وهي نور في القلب لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ث- الصدر:

وهو أعلىٰ ومقدَّم كل شيء وأوّله، حتىٰ إنّهم يقولون: صدر النهار والليل، وصدر الشتاء والصيف. والصدر من الإنسان والحيوان ما دون العنق إلىٰ فضاء الجوف، وعند الأطباء: قفص عظميّ غضروفيّ يتضمن الآلات الرئيسيّة للتنفس والدورة. وقد ورد الصدر في القرآن الكريم أربعاً وأربعين مرة، نسبت له فيها أفعال وصفات يكتسبها؛ دلّت علىٰ أنّ له دوراً في الجانب المعرفيّ، وأنّه ذو علاقة مع القلب مركز الإدراك. بل بعض الصفات التي نسبت للصدر هي من صفات القلب، فالصدر حاوٍ للقلب، والقلب

حاوٍ للفؤاد، والفؤاد حاوٍ للُّب، "فالصدر بالنسبة إلى القلب بمنزلة بياض العين في العين، ومثل صحن الدار في الدار، ومثل الذي يحوط بمكة.. فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات كما يعيب بياض العين آفة البثور وسائر علل الرمد." وهو موضع الشهوات، والحاجات، والأماني، وولاية النفس الأمّارة بالسوء، والوساوس، وهو موضع الإسلام، وحفظ العلم المسموع؛ من أحكام وأخبار.

ومن صفات الصدر في القرآن ما يأتي: الانشراح: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]، والإسلام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والكفر: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦] والضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] والحرج: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] وأنّه حاوٍ للقلب ولكل ما عُلم وللآيات والأخبار، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، فنجد قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥]. فالعلن والجهر معلوم للكلّ بالسمع، لكنّ الله استوى عنده السر والجهر ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣] هذا سواء عند الله لأنّه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣]، فالتحدّي قائم حول ما أُسرَّ لا ما جهر به؛ لأنّه متمكّن منه للكلّ.

ووصف الصدر كذلك بأنّه محلّ الوساوس: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥] وأنه محل الحوائج: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [غافر: ٨٠]، ووصف كذلك بالكبر والغل: ﴿إِن فِى

صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] ووصف بالابتلاء: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤] ووصف بمثل ذلك الصدر بالتحصيل ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠]؛ ووصف بالرهبة: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]؛ وبالشفاء: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] وخلاصة ذلك أنّ الصدر يحوط بالقلب، والذي يدخل فيه قلَّما يشعر به في حينه، وهو موضع نور الإسلام، وموضع حفظ العلم المسموع؛ من أحكام وأخبار، وموضع دخول الغلّ، والشهوات والمُنى، والحاجات، وهو يضيق حرجاً أحياناً؛ وينتشر أحياناً أخرى، وهو موضع ولاية النفس الأمّارة بالسوء، ودخول الوساوس وآفات الخواطر، وسمّي الصدر صدراً لأنّه صدر القلب وأوّله ومقدّمته، ولأنّ منه تصدر الحوائج والوساوس والخواطر نحو القلب، وهو مستقرّها والمتدبّر لها والمتفكّر فيها.

٣- أعمال القلب وأحواله في القرآن الكريم:

وظائف القلب على بابين: الأول: العلوم والتصوّرات، وهو العمليّات المعرفيّة؛ من فكر وتدبّر وتذكّر، ومعلومات سابقة، وناتجة متحصلة منها. والثاني من وظائف القلب فهو باب الإرادات والعزوم، وهذا بالتعلق والميل إلى أمور، والابتعاد والنفور من أمور أخرى. وذا الباب درجات؛ أولها الميل ثمّ العلاقة ثمّ الإرادة ويرتقي في درجات التعلق حتى يصل إلى العبودية. وعن الإرادة ينتج العزم، وهو قرار العمل قلبياً باستخدام الجوارح، فإن لم تعمل الجوارح كان

التمّني والتشّهي. فإن استحكمت الإرادة صارت عزماً، ويتولّد عن العزم الفعل. بهذا تبيّن الفرق بين العقل وهو باب التصوّرات والعلوم، وبين العاطفة وهي باب الإرادات والعزوم وما يشملها من تمنٍ وشهوات وأهواء.

في القرآن صفات كثيرة ذكرت للقلب؛ من أفعال يقوم بها، وخصائص تجعل منه عالما قائماً بذاته، واتسعت معانيه وتعددت جوانبه، وكلها صور من العقل، أو العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانيّة، وأحياناً تجمع الجانبين العقليّ والعاطفيّ ويزيد عليهما عمقاً وبعداً آخر.

- باب الإدراك:

وهذا يشمل التصوّرات والمفهومات، والقابليّة للمعرفة والعلم، وتدبير الصناعات الخفيّة الفكريّة والعلوم المستفادة من التجارب، والتمييز والحفظ والتذكر والإنتاج للمعلومات.

- باب الإرادة:

وفيه الطباع؛ من شهوات ووجدان ورغبات ومعنويات وميولات، وهي قائمة على الطلب والترك؛ الحبّ والبغض، والقرب والنفرة، وما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. والإرادات والعزوم هي ما يحصل بعد الخواطر والتفكّر، ويكون بعدها اليقين والإيمان والاعتقاد والطمأنينة.

وفي القرآن وردت صفات للقلب خاصّة به، منها ما كانت منه، ومنها ما كانت واقعة عليه. فبعض الصفات تكون من أفعاله كالخوف والوجل، وأخرى يتعرض لها كالإقفال والربط والتمحيص له، وقذف الرعب فيه.

هناك صفات إدراكيّة معرفيّة: وهي كثيرة جداً، منها: الهداية، والفقه، والزيغ، والعقل، والعمى، والتدبر، والإنكار، والعلم، والظن، وصفات إرادية معنوية وعملية، منها: الغلظة، والسلامة، والإنابة، والإثم، والاطمئنان، والطمع، والتقوى، والتقلب، والاشمئزاز، والسكينة، والرأفة، والوجف، والصغو، والقسوة، والكسب، والتعمد، والطهر، والحب، والغلف، والغل، والشرب، والحسرة، والوجل، والتآلف، والإباء، والغيظ، والنفاق، والريبة، واللهو، والإخبات، والرعب، واللين، والحمية، والخشوع. وهناك صفات مقترنة بالقلب الواقع عليه وهي أفعال الله في القلوب: منها: الطبع، والإنزال، والختم، والحول، والربط، والإلقاء، والسلوك، والإقفال، والتأليف، والتمحيص، والتزيين، والتطهير، والتقطيع، والصرف، والشد، والقذف، والكتابة، والران.

ويمكن تمييز الوظائف بتقسيمها إلى قوتين رئيستين: الأولى هي القوّة العلميّة: وهي قوّة الإدراك، والتمييز، وقبول العلم، وتخزينه وحفظه واستذكاره، وترتيبه والاستنباط منه. والثانية للقلب فهي القوّة العمليّة: وهي قوّة الإرادة والعزم والحب والإيمان، وهذه تمثل أعمال القلب وما يكسب بها من حسنات أو سيئات، وأحواله الوجدانيّة من ألم وحسرة ومرض وبغض وغل، ومن صحة وفرح وحب، وهذه الأمور ناتجة عن العلائق والخواطر والطباع التي فطر عليها.

ولا بدّ لحياة الإنسان من أمرين، أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب؛ الذي ينتفع به ويلتذ بإدراكه. والثاني: معين دافع له عنه، فهذه

أربعة أشياء: أمر هو محبوب مطلوب الوجود. وأمر مكروه مطلوب العدم. والوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب. والوسيلة إلى دفع المكروه. فتكون الإرادة خاضعة لما سبقها من شهوات، وطباع جُبِل الإنسان عليها، وإدراكات كانت حاصلة بالتصوّر المنقول من الحس، ثمّ يترقى التصوّر؛ من الحس إلى الشعور إلى الإدراك، حتى يصل إلى العقل وهو القوّة الحاكمة؛ التي تفصل بين الشهوات والطباع والإرادات، فإمّا أن تقرر المنع والحبس؛ أو أن توافق الإرادات، فيكون العزم، فيصدر الأمر للأعضاء بالتنفيذ، فإن توفرت القدرة تمكّن الإنسان من تحقيق مراده، فالفعل الإنساني قائم على ركائز ثلاث هي: الإرادة، والإدراك، والقدرة. وبصيغة منطقية: ماذا يفعل؟ وكيف يفعل؟ وهل يمكن الفعل؟

٤ – أهمية القلب معرفيّاً في القرآن الكريم:

خلق الله القلب وجعله محلاً لمعرفته وإرادته، فهو "عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته"، وللقلب علائق من ملاذ الدنيا، وطباع جُبِل عليها، كما له إرادة وعلوم، ومبدأ كل علمٍ وعمل فيه؛ هو الأفكار، فإنّها توجب التصوّرات، وتدعو التصوّرات إلى الإرادات، وتقتضي الإرادات الفعل، ويولّد التكرار العادة، ومعلوم أنّ الإنسان لا يملك وقف الخواطر، ولا طاقة له بإماتتها، فهي تهجم هجوم النَفَس، إلا أنّه منح قوّة الإيمان والعقل؛ ليستعين بذلك على قبول أحسنها، والرضى به والسكون إليه، وعلى دفع القبيح وكراهته والنفرة منه.

فشرف القلب من شرف ما فيه، وما أنيط به من مسؤوليات، و"هو أعظم الأشياء الموصوفة بالسعة من جانب الحقّ، ومعدن الروح الحيوانيّ المتعلّق للنفس الإنسانيّ، ومنبع الشعب المنبثة في أقطار البدن الإنسانيّ، بل في سائر الحيوانات التامّة الخلقة، ومنه تصل الحياة والفيض إلى الأعضاء على السوية بمقتضى العدل، وله إيفاء كل ذي حقّ حقّه."

الفصل الثاني:

طرق اكتساب المعرفة في القرآن الكريم

تتعاون في عمليّة اكتساب المعرفة وسائل الحس الظاهرة والباطنة، وموازين العقل الفطرية والمكتسبة، ومعارفه التي اكتسبها بنفسه أو تلقّاها من غيره؛ يضاف إلى ذلك ما يوحي به الله تعالى لأنبيائه من معارف تكون يقينيّة. وأول طرق اكتساب المعارف هو الإدراك الحسيّ، فالحواس هي بمثابة منافذ تطلّ منها كل القوى المدركة، فهي الناقل لما تحسه نحو منطقة الإدراك، بعدها يتمّ التسجيل، ثمّ تبدأ العمليات الإدراكيّة. والإدراك هو وصول مثال حقيقة المدرَك إلى المدرِك. ولوصول العلم إلى النفس المدركة مراتب، فالإحساس للحواس الظاهرة، كما أنّ الإدراك للحس المشترك أو العقل، والحسّ المشترك هو الحواس الباطنة وهو الخيال والواهمة والحافظة والمتخيّلة.

أولاً: الإحساس:

١ - مفهوم الإحساس:

الإحساس: أول مراحل وصول العلم إلى النفس المدركة، وهو إدراك الشيء بإحدى الحواس، وهو إدراك للشيء مكتنفاً بالعوارض، واللواحق الماديّة؛ ونسبة خاصّة بينهما وبين المدرَك. ويكون الإحساس للحواس الظاهرة، وللعقل، فهو كمال يحصل به مزيد كشف على ما يحصل في النفس من الشيء المعلوم؛ من جهة التعقّل بالبرهان أو الخبر.

ولدىٰ الإحساس مجالٌ معرفيٌّ خاصٌّ به؛ حيث يكون أول مرحلة تدخل فيها المعرفة إلىٰ النفس، وأول انفعال تتأثر فيه، وهذا يعني أنّه أول عنصر وجدانيّ، ومن ثمّة كان الإحساس طريق معرفتنا بالعالم الخارجي، والحواس أبواب المعرفة. تقول شممت الشيء ولم أدرك ريحه، فمجرد الاتصال الحسيّ لا يعدّ إدراكاً؛ بل لا بُدَّ من انضمام العقل إليه. من ذلك قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨]؛ فالنظر تحديق العين نحو المنظور إليه، وهذا إحساس العين؛ حيث تستقبل العين صورة المرئي. ويرىٰ المشركون النبيّ ﷺ رأي عين؛ ولكنّهم لا يبصرون بصر إدراك واعتبار وتوسم.

فالنظر تقليب للحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته؛ والرؤية من توابع النظر، ثمّ البصر، ثمّ البصيرة وهي حركة القوّة المدركة لطلب العلم. لكنّ عمليّة الإحساس أي الرؤية، لم تتعرض لآفة أو تعطيل، فالخلاف في معنىٰ المنقول عبر حاسة العين؛ ومحل النزاع في العملية الإدراكيّة، لا في عمليّة الإحساس. وإلا لِانتفىٰ الخطاب؛ لأنّه موجّه ليستقبل بحاسة العين. وليس ثمّة ما يمكن أن يقال هذا إدراك؛ ما لم يكن ثمّة حكم علىٰ المحسوس، ويشترك الحكم والعقل والحسّ في إصداره في ما يتعلّق بالمحسوسات. لذا نجد أنّ الحواس إذا عرضت في مقام ذكر أبواب العلم لا بُدَّ أن تقرن بالفؤاد أو القلب، وتعطيلها تعطيل للعقل؛ فالإحساس مرحلة أولىٰ للمعرفة، لكن من غير إدراك، فهو أداء وظيفيّ غرائزيّ بهيميّ لا أكثر، ومن غير محلّ الإدراك؛ يكون مجرد تأثر بمثيرات خارجيّة والتفاعل معها غرائزيّاً.

٢- تكون الإحساس:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨] فيه دلالة واضحة على أنّ الإنسان خلق لا علم له بشيء من المعقولات، ولا المحسوسات البتّة. فهي إشارة إلى مبادئ العلم الذي أنعم الله بها على الإنسان، فمبدأ التصوّر هو الحسّ، والعمدة فيه السمع والبصر، وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشمّ فأهميّتها معرفيّاً دونهما. فأول ما يخلق في الإنسان حاسّة اللمس؛ فيدرك بها أجناساً من الموجودات، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات، ثمّ يخلق البصر فيدرك به الألوان والأشكال وغير ذلك، ثمّ ينفتح له السمع فيسمع الأصوات، ثمّ يترقّى في مدارك هذه الحاسّة على التدرّج، ثمّ يخلق الذوق فيدرك به تفاضل الطعم؛ وكذلك الشمّ وهو أكمله. ثمّ يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده؛ ثمّ يترقّى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل؛ وأنّ حكم الشيء حكم مثله، ولا يجتمع الضدّ مع ضدّه، وإذا صدق أحد النقيضين كذب الآخر، ونحو ذلك من العلوم الضرورية، ثمّ يتطور إلى طور يستنتج العلوم النظريّة من الضروريّة، ثمّ يترقّى في مراتب الإدراك.

٣- دور الإحساس وقيمته المعرفيّة:

لا تعد الحواس وحدها إلى المعرفة، فالإحساس أحد طرق تحصيل المعرفة الإنسانيّة؛ فدور العقل الاعتبار والقياس والتعميم؛ فلا بُدَّ أن يعتمد على المبادئ الحسيّة، وكذلك الخبر لا بُدَّ له في أصله الإخبار عن قيمة حسيّة،

فالإحساس باب للعقل نحو المعرفة في القرآن الكريم؛ حيث كانت المعجزات الكونيّة مبصرة والقرآن مسموع. وتقسيم الأمور الخارجيّة إلى قضايا محسوسة وأخرى معقولة؛ لا تدرك إلا بالعقل غير صحيح البتّة. وما أخبرت به الرسل من الأمور الغيبيّة من وجود الجنّة والنار والملائكة والجنّ هي قضايا محسوسة، وكذلك ما يتنعّم به أهل الجنّة، ويعذّب به أهل النار أمور حسيّة؛ وليست أموراً عقليّة؛ صوّرتها الرسل على أنّها حسيّة: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٧]. فالروح وحتى ذات الله تعالى يمكن رؤيتها بالأبصار ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فنفي الإحاطة يلزم إثبات الرؤيّة، لكن لما كانت هذه الأمور وما هو في عالمنا غائباً سمّيت غيباً؛ في مقابل عالم الشهادة المشاهد والمعين. والعقل يكتسب معلوماته من الواقع؛ بوسائل اتصاله بالعالم الخارجيّ، وهي الحواسّ التي يتركّب منها الإحساس؛ أي القوّة الكامنة في الحواس.

فالإحساس يختص بطريق الحواس بما هو خارج الإنسان، ويستوعب كل المسموعات والمرئيّات والروائح والأذواق والملموسات. وهناك حسّ باطن يثبته الكثير؛ وهو ما يجد الواحد فينا من ألم ولذّة وحبّ وبغض، وهذه أثبتت للقلب في القرآن الكريم. وآيات الكون الواردة في القرآن الكريم؛ الاعتبار بها لا يكون إلا بالبصر والسمع، ثمّ يلي القياس والاعتبار بعد فهم ما يراد والتفكّر ثمّ التذكير. لذا كان مدار العلم على الإحساس والإدراك ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعالم الشهادة هو المشاهد المحسوس؛ فكان هو مجال الإحساس في هذه الدنيا؛ بما فيها من آيات مخلوقة ومتلوّة. ودور العقل الارتقاء بما ورد عن طريق الإحساس لفهمه والقياس عليه، فينشأ من ذلك علوم نظريّة عقليّة خالصة؛ إذ خلق الإنسان أول ما خرج من رحم أمّه للدنيا في مبدأ الفطرة خالياً من المعارف والمعلومات لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]؛ فالنكرة سياق في النفي تفيد العموم؛ أي أنّ الطفل يخرج من بطن أمّه صفحة بيضاء معرفيّاً، ثمّ يخلق الله له الإحساس (القوّة)؛ ليستفيد بها المعارف والعلوم مع (الإدراك). فالتصوّرات والتصديقات إما أن تكون كسبيّة أو بدهيّة، والكسبيّة لا يمكن حصولها إلا بواسطة تركيبات بدهيّة، فلا بُدَّ من سبق البدهيّات؛ فكانت النفس خالية من جميع العلوم، إلا أنّه تعالىٰ خلق السمع والبصر؛ فإذا أبصر الطفل شيئاً أو سمعه مرة بعد أخرىٰ، ارتسم في مخيّلته ماهيّة ذلك المبصر أو المسموع، وكذلك سائر الحواس، فيصير حصول الحواس سببٌ لحصول ماهيّة المحسوسات في النفس والعقل.

والحاصل أنّ العلوم الكسبيّة إنّما يمكن اكتسابها بواسطة البديهة؛ وحدوث البديهة يكون عند حدوث تصوّر موضوعاتها ومحمولاتها، وحدوث التصوّرات إنّما كان بسبب إعانة هذه الحواس علىٰ إحداثها، فظهر أنّ السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول؛ هو أنّه تعالىٰ أعطانا هذه الحواس، فأصبحت سبباً لانتقال نفوسنا من عدم العلم بشيء قط؛ إلىٰ مراحل من العلم المتفاوت بين الناس".

٤ - مجال الإحساس:

تمكّننا حواسّنا من الإحساس بما حولنا من أشياء، وفحصها، وتميّزها عن غيرها، بحيث يتسنى لنا تطبيق معطياتها في استعمالاتنا، على أنحاء شتى لمواجهة مقتضيات هذه الحياة، ولو تغيّرت حواسّنا؛ لتغيّرت إحساساتنا، ولتغيّرت مظاهر الأشياء، ونظمها الخارجيّة في نظرنا تغيراً تامّاً. فلو كانت حاسة السمع أقوى مئة مرة لسمعنا أصواتاً هائلة ومتعددة وضجيجاً شديد الإزعاج، ولو كانت العين أحَدّ لأبصرنا عوالم أكثر حولنا بل لضاقت بنا الحياة لما تحوي من مرئيّات. فأهمّ خصائص الإحساس اتصاله بالمادة، وعالمه هو عالم الشهادة كما ورد في القرآن الكريم، وهذا إثبات لواقعيّة العالم الخارجيّ؛ مع تأكيد عدم استقلال الإحساس وحده، وإنّما الحكم للقوّة المدركة وهي العقل، والعقل لا يحكم من غير أن ينقل له الإحساس. فمجال الحواس هو الإحساس بما ورد في عالم الشهادة من غير عالم الغيب، وما لا تصل إليه الحواس لا يكون له وجود في عالم الشهادة، ومجاله إمّا أن يكون ذهنيّاً أو غيبيّاً. وما لا يمكن الإحساس به مطلقاً؛ هو ما كان ذهنيّاً لا يوجد إلا بالعقل، وما قَصُر وجوده في العقل حصر به، فلا وجود له في غيره، وما كان غيباً فهو محسوس، إلا أنّ مجال الحواس في الدنيا هو الشهادة فقط. فالإحساس خادم للعقل، والخادم لا يكون بديلاً عن سيده بل معيناً له، فهو يمثّل جزءاً من العمليّات المعرفيّة، بل بدايتها. وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى ما هو كونيٌّ من عالم الشهادة كي يعتبر الناس بما خلق الله تعالى ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ [الحاقّة: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]؛ أي يوم الحساب يرىٰ ما لم يكن يؤمن به، ويرىٰ ما لا طاقة له برؤيته يوم الشهادة، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وهنا يكون النظر إمّا بالرؤية، أو بسماع الأخبار والنظر إلىٰ الآثار، وكل ذلك لفهم سنن القيام والسقوط؛ ونشأة الحضارات والأمم والقوىٰ واندثارها.

ثانياً: الإدراك

هو تمثّل حقيقة الشيء عند المدرِك؛ يشاهد بها ما يدرك به، فهو كمال حاصل في النفس؛ يحدث بسببه مزيد من كشف ما يحصل في النفس من الشيء المعلوم من جهة التعقّل بالبرهان أو الخبر، وهذا الكمال الزائد علىٰ ما حصل في النفس بكل واحدة من الحواس هو المسمّىٰ إدراكاً. ثمّ هذه الإدراكات ليست بخروج شيء من الآلة المدركة إلىٰ الشيء المدرَك؛ ولا بانطباع صورة المدرك فيها، وإنّما هي معنىٰ يخلقه الله تعالىٰ في تلك النفس المدركة أي "معنىٰ قائم بالعالم."

وطور الإدراك هو طور بعد الإحساس، يتزايد ويتناقص بقدر تفاوت قدرات الناس، وأول أطوار الإدراك التمييز وهو مراتب؛ وفيه يدرك أموراً زائدة علىٰ الإحساس، لم تكن حصلت له من قبل، ثمّ يترقّىٰ إلىٰ طور آخر يستنبط فيه العلوم النظريّة؛ من تلك الضروريّة التي تقدّم علمه بها، ثمّ يترقّىٰ في هذا الطور من أمر إلىٰ أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ما قبله إليه كنسبة

الحسّ إلى العقل، ثمّ وراء ذلك كلّه طور آخر؛ نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، فينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمور" العقل معزولة عنها كعزل الحسّ عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوّة."

والإدراك على معنيين؛ الأول: وهو مرتبة من مراتب العلم؛ أي وصول مثال المعلوم إلى النفس المدركة، والمعنى الثاني: هو مطلق الإدراك أي كلّ عمليّات وصول العلم ومراتبه. فالأول هو الإدراك المطلق وقد شرح في بداية المطلب، والثاني هو مطلق الإدراك؛ وهذا يمثّل ما نعبّر عنه بالقوّة العالمة أو العارفة في الإنسان. ولوصول العلم في الإنسان مراتب فصّلناها سابقاً نكرر ذكرها من الأدنى إلى الأعلى وهي: أولها الإحساس ثمّ على التوالي: الشعور، والإدراك، والحفظ، والتذكّر، والذكر، والفهم، والفقه، والدرايّة، واليقين، والذهن، والفكر، والحدس، والذكاء، والفطنة، والكيس، والرأي، والتبيّن، والاستبصار، والإحاطة، والظن، ثمّ العقل. ويعبّر عنها في مراجع كثيرة بالعمليّات التفكيريّة، أو الإدراك العقليّ أو العقل، وننبّه إلى أنّ بعضهم يجعل العقل هو محلّ الإدراك؛ ومراتب الإدراك هي قوى العقل، وهذا خلل في الاصطلاح خاصّة في حال دراسة نظريّة المعرفة. فمن المعلوم عند أهل الاختصاص في المعرفة أنّ العقل قوّة إدراكيّة والمراتب الأخرى قوى إدراكيّة مثله؛ فليس هو محلّ لها، فإذا كان هو محلّ لها فأين محلّه؟ خاصّة مع إقرارهم بأنّه صفة قائمة بعين، وليست قائمة بنفسها.

١ - محلّ الإدراك:

صرّح كثير من العلماء والفقهاء والباحثين أنّ الحواس آلات لإدراك الجزئيّات، أمّا "المدرك فهو النفس". وهذا مبنيّ على تقسيم الإنسان من حيث الخلق إلى مادة وروح، فالمادّة قطعاً هي ما يركّب الأعضاء كلّها، أمّا الإدراك فهو خاصّ بالنفس والروح، بدليل أنّ الجثث لا تدرك شيئاً. وعبّر عن محلّ الإدراك كثير من العلماء، منهم أبو حامد الغزاليّ "باللطيفة الروحانيّة" التي لا يعلم بحقيقتها أحد غيره تعالى، وهي جزء من عالم الغيب، دورها تلقّي العلوم وحفظها والنظر فيها للاستنباط منها، فإذا تتبّعنا آيات القرآن وجدنا أنّ المحلّ الذي وصف بالإدراك ونسبت له عمليّات إدراكيّة هو (القلب)، "ووفق هذا المعنى فإنّ القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، حيث يعتمد على مخاطبة العقل في معظم رسالاته، فقلب كل شيء خالصه، وهو أعظم شيء موصوف بالسعة وهو معدن الروح الحيوانيّ المتعلّق بالنفس الإنسانيّ، ويسمّيه بعضهم بالنفس الناطقة والروح الباطن، والقلب هو محلّ اللطيفة الروحانيّة المدركة.

فالقلب هو محل العلم والعقل والفكر والإدراك، أما كون ما يحصل في النفس "علم" فلا إشكال، فعندنا هنا محلّ العلم هو القلب، وهو الموضوع المعلوم. وانتقال مثال أو صورة أو حقيقة الموضوع المعلوم إلى محلّ العلم يكون في المادّيات بالإحساس، لكنّ إدراك حقيقته أو صورته بما يتمّ؛ أي ما هي القوّة المدركة في القلب هل هي العقل؟ لم يرد قط في القرآن بصيغة المصدر، بل بصيغة الفعل مما يثبت أنّه عرض؛ أي صفة قائمة بذات وهي

جوهره، وهذه الذات هي القلب. ووصف القلب بأنّه يعقِل ويتدبّر ويتفكّر وينظر ويبصر ويسمع، فهل كلّ هذه قوىٰ إدراكيّة أم عمليّات لقوىٰ أخرىٰ؟ عندنا مثلاً قوّة عمليّة التذكّر الذاكرة، وعندنا العقل وهو القوّة العاقلة والعمليّة هي التعقّل.

إذا رجعنا إلىٰ القرآن الكريم لا نجد أوصاف القلب الإدراكيّة إلا بصيغ الفعل، فإن قلنا بما جرت عليه العادة: إنّ العقل هو قوّة الإدراك الكامنة بالقلب؛ أي هو العاقل المفكّر المتدبّر، فهل الذاكرة والحافظة والذكاء من العقل؟ أم هي قوىٰ أخرىٰ خارجة عنه؛ لا منه؟

لكي نفهم المسألة نرجع لتعريف "العلم" الذي أقررنا بأنّ محلّه "القلب" -وهنا لا نفرّق بين العلم والمعرفة والإدراك؛ إذ المراد مطلق ذلك كله- يطلق علىٰ ثلاثة معان بالاشتراك. أولها: يطلق علىٰ نفس الإدراك. وثانيها: علىٰ الملكة المسمّاة بالعقل في الحقيقة. وهذا باعتبار أنّه سبب للإدراك، فيكون من إطلاق السبب علىٰ المسبب. وثالثها: علىٰ نفس المعلومات. أمّا تعريف العقل فكان: القوّة المهيّأة، والملكة الحافظة والمستحضرة للمعلومات. فهو بمعنىٰ قوّة خاصّة لها علميّات خاصّة، تتكامل مع غيرها لكن تفارقها. وبمعنىٰ يطلق علىٰ جميع النشاطات الإدراكيّة والفكريّة.

٢- مفهوم القوّة المدركة:

ورد في القرآن الكريم أنّ القوّة المدركة هي القلب؛ أي اللطيفة الروحانيّة، ومن عمليّاتها التعقّل والتدبّر والتفكّر والنظر، وكلّها موجودة في

القلب الجسميّ. لذا نجد العلماء يعرّفون العقل بأنّه: القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويُطلق على العلم الذي يستفيده الإنسان عن طريق العقل "عقل".

فالقرآن ذكر فعل العقل بصيغة "تعقلون، يعقلون، نعقل"، ولا بدّ للفعل من فاعل وهو محلّ التعقّل، وقد نصّ على أنّه القلب؛ فكان القلب هو المتعقّل والعاقل والمفكّر والناظر والبصير. وهذه كلّها قوى الإدراك والعلم، ولهذه القوى أفعال إدراكيّة؛ سمّيت بحسب طرائق تحصيل العلم في النفس، فنجد أنّ تعريف الفكر هو: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكّر جولان تلك القوّة. فالقوّة المدركة واحدة ولها حركات أو أفعال، وبحسب حركاته يتسمّى الفعل؛ وذاك مرتب على العلاقة بين المعلوم؛ وما ينتج عنه؛ وطرائق البحث فيه. فالعلم يحصل بعد ترٍو وانتظار وفكر، لأنّ العلم يحصل بعد فرك للمعلومات وبصيرة، لأنّها يقين لدرجة الإبصار والمعاينة؛ أي تبصّر ما غاب عن الحواس، وسمّيت إدراكاً لأنّها تلحق بالمطلوب وتدركه؛ أي تصل إليه. ومن خلال الاطلاع على الكثير من المراجع؛ تواردت مصطلحات معرفيّة حاولنا ضبطها لفهم العمليّات المعرفيّة، فقد أطلق على القلب بأنّ فيه لطيفة ونور وقوّة وغريزة وملكة وهيئة واستعداد وطاقة وقدرة.

ولكي تتضح الصورة لا بدّ من تحديد المصطلحات أكثر، وذاك لشدّة التداخل المعجميّ بينها، غير أنّ لكل واحد استعمالاً يتميّز بمراعاة صفات ومعانٍ زائدة عن غيرها، ولأنّ بعضها قد بُيِّن قبلاً، فسنحاول جمعها وبيان بعض الفروق: قولهم القلب مع إرادة الجانب الروحانيّ فيه، غالب من عرفه لم يخرج عن كونه هو المدرك. فالقلب اللطيفة الروحانيّة العالمة المدركة، هي

النفس المدركة والروح العالمة وهي الفؤاد واللبّ والحجر والنهىٰ والبصيرة. وهذا كلّه يمثّل محلّ مطلق الإدراك، ولمحلّ الإدراك أسماء أخرىٰ وهي الذهن والنفس، فيكون القلب هو الذهن وهو النفس بمعنىٰ واحد، إلا أنّ النفس سمّيت بذلك لكونها متصرّفة أي فاعلة، والذهن لكونه مستعداً للإدراك. أمّا العقل فعرّف علىٰ أنّه قوّة متهيّئة لقبول العلم، وللعلم المستفاد بتلك القوّة. والفهم: هو هيئة تتحقّق بها معاني الخطاب. فالحاصل أنّ هناك معلوماً يُتصل به بالحواس إن كان خارجياً، وبقوىٰ إدراكيّة إن كان داخلياً؛ وهي قوىٰ استرجاع ما كان محفوظاً ومخزناً، ثمّ أفعال تستنبط مما هو مخزن، وأخرىٰ تعي وتستوعب، وهي تلي الإحساس مثل الشعور والإدراك والفهم. بعدها يكون التخزين، وبعدها الفحص والبحث للإنتاج، فتنشأ علوم زائدة عما نقل عبر الحواس من أخبار أو إحساس مباشر. وبعدها تطبيق تلك العلوم وضبطها، وهذه خلاصة وصول العلم كما بيّنا في مراتب العلم.

هنالك "محلّ" للعلم والمعرفة: له قابليّة للإدراك واستيعاب العلوم والمعلومات، وهذه القابليّة هي استعداده وتهيّؤه لذلك فسمّي المحلّ (ذهناً). وهذا المحلّ هو الوسيلة والأداة والآلة ومحلّ الفاعل، ولها متعلّق بالجارحة وهي القلب بطبقاته من فؤاد ولبّ وصدر. والمحلّ فيه "قوّة": وهي الملكة والغريزة، وهي المتهيّئة للفعل والعمل والنشاط والحركة، تصدر عنها صفات ذاتية فعندنا (فاعل)، و(مفعول)، والعلاقة بينها حال وقوعها تسمّىٰ (فعل)، وكي يقع (الفعل) من (الفاعل) علىٰ (المفعول به) يلزم قوّة. وهي كامنة في (الفاعل) المستعدّ للفعل ولكن لا يوجد فعله بعد. و"القوّة"؛ هي كون الشيء

مستعداً لأن يوجد أو لا يوجد، هذه القوّة هي العقل والفكر الفهم والنظر والفطنة. و"الفعل"؛ كون الشيء خارجاً من الاستعداد إلى الوجود. قال الجرجانيّ عن العقل: هو قوّة للنفس الناطقة، والقوّة العاقلة غير النفس الناطقة، والفاعل في التحقيق هو النفس. وقيل سمّيت النفس عقلاً لكونها مدركة، وذهناً لكونها مستعدّة للإدراك. فالنفس هي عقل باعتبار "الفعل"، وهي ذهن باعتبار"القوّة"؛ أي القابليّة الصادر منها ذلك الفعل.

في معجم دقائق اللغة: استعداد النفس لاكتساب العلم يسمّى (ذهناً)، وقوّة ذلك الاستعداد تسمّى (فطنة). (والحافظة) هي القوّة التي تحفظ ما تدركه القوّة الوهميّة من المعاني، و(الذاكرة) هي القوّة التي تستحضر المعاني التي وعتها (الحافظة). وفي تفسير ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] قال أحد المفسّرين: يراد بالقلوب هنا القوى الداخليّة في الإنسان، المخلوقة للفهم وللحفظ وللتذكّر، بتخزين صور الأشياء وقضايا المعرفة كليّاتها وجزئيّاتها، ولتخيّل صور ومركبات غير مشهودة، للإبداع والابتكار، ولإدراك المعاني والبحث عن حقائق الأشياء.

وفي هذه القوى الداخليّة المعرفيّة والإدراكيّة موازين فكرية؛ مؤهلة بالتكوين الربانيّ؛ الذي فطر الله عليه للتمييز بين الحقّ والباطل، والخير والشر، ولقياس الأشباه والنظائر، والحكم على الغائب منها بمثل المشهود منها، وللاعتبار والاستدلال، والفهم والموازنة والحكم، حتى لا تسقط الإرادة فريسة الأهواء والشهوات. فهذه "القوّة" هي غريزة لصدور صفات ذاتيّة منها، وهي الملكة لاستحكامها؛ وإن لم تستحكم بعض القوى كانت عبارة عن

"حالة"، وبهذه القوّة طاقة وقدرة على النشاط والحركة والعمل والفعل.

فالعقل قوّة فعلها التعقّل، وبعد حصول التعقّل يقال "عقل"، وهذه "هيئة" للعاقل، فلا يوصف بها إلا بعد حدوث المثال بالنفس. فالمدرِك هو القلب الذي فيه يحلّ مثال حقائق الأشياء، ويتمثّل المدرَك في حقائق الأشياء، والإدراك هو حصول المثال في المحلّ، فوصول مثال المدرك إلى القلب يسمّى إدراكاً، وقد كانت الحقيقة موجودة، والقلب موجوداً، ولم يكن الإدراك حاصلاً، لأنّ الإدراك وصول الحقيقة إلى القلب. ونسمّي هذا الحصول أو الوصول "الهيئة".

نخلص إلى جمع ما سلف عندنا حول الإدراك "الجارحة" "الآلة"؛ وهي القلب بمعناه الماديّ. ثمّ "المحلّ" (اللطيفة الربانيّة المدركة) وهو بالقلب، ثمّ "قابليّة المحلّ" (الذهن) وهي استعداد النفس القادرة المدركة، ثمّ "القوّة" لذلك الاستعداد، ثمّ "الفعل" (التعقّل، التفكّر)، وهو نشاطات العقل، والعمليّات الإدراكيّة، ومراتب وصول العلم، وحالة وصول العلم تسمّى "هيئة" (عاقل، مفكّر) وهي تحقق العلم وبالنفس، فالفاعل هو النفس وبالذات (القلب)، والقابليّة للفعل (الذهن)، والقوّة على الفعل (العقل)، والفعل (التعقّل)، والمفعول به (المعقول)، والهيئة (العاقل).

٣- العمليّات الإدراكيّة في القرآن الكريم:

نبحث هنا في قوى الإدراك وأفعالها، مع بيان الفروق في ما بينها في القرآن الكريم، ولأنّ ما ورد فيه كان بصيغة الفعل فقط؛ فالبحث سيكون في

الأفعال؛ أي النشاطات الإدراكيّة، أو أعمال القلب الإدراكيّة. أولها التعقّل: وهو وظيفة وفعل لقوّة هي (العقل)، ولفظ "العقل" ليس له وجود في القرآن، وإنما يوجد ما تصرف منه نحو "يعقلون، وتعقلون"، كقوله تعالى ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: ١٧]، وقد ورد من مادّته بصيغة الفعل في تسعة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، وأكثر ما ورد "أفلا تعقلون" في ثلاثة عشر موضعاً، بمعنى أليس لكم ذهن تفطنون به لقبائح أفعالكم وأقوالكم.

والعقل مصدر، وإن كان سيبويه يعدّه صفة؛ لأنّ المصدر لا يأتي على وزن مفعول. وسمّي العقل عقلاً لأنّه يعقّل صاحبه عن التورّط في المهالك؛ أي يحبسه. ونتيجة لذكر القلب في القرآن بوصفه اسم جنس مفرداً ومجموعاً، بخلاف العقل الذي ورد مفرداً مشتقاً من اسم جنس، استخلص بعض الباحثين أنّه لا يوجد شيء مجسّم في جسم الإنسان لذات اسمها (العقل)، أمّا القلب فإنّ هناك شيئاً لذات اسمها (القلب)؛ وهو تلك المضغة القائمة في الصدر، الأمر الذي يدعونا للفصل بين كل من جملة تلك المعاني (العقل) و(القلب)، لنصل إلى أنّ القلب من الألفاظ المشتركة؛ ومن جملة معانيها (العقل). والخطاب موجّه إليه لتقوم به الحجّة، فلا يعرف بحال من الأحوال إلا بأفعاله، والله يبيّن لعباده ما يعقلوه بقلوبهم. ويقال العقل للهيئة، والقوّة الكامن في النفس بالقلب، و لنور القلب وبصيرته، يبدأ طريقه من حيث ينتهي طريق الإحساس، وهو المعني بقولهم غريزة يلزمها العلم بالضروريّات عند سلامة الآلات، وبه يكون التمييز والإدراك والتأمّل والفكر.

والتعقّل فهو تفعّل من العقل، وقد ورد بصيغ هي: تعقلون، ويعقلون، وعقلوه، ونعقل، على النحو الآتي: عقلوه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]. وتعقلون ويعقلون: في ستة وأربعين موضعاً؛ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. ونعقل: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]. ويعقلها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وباستقراء مواضع "التعقّل" نلاحظ ما يأتي: وروده بصيغة (أفلا يعقلون)؛ (أفلا تعقلون) ثلاث عشرة مرة، وهي أسلوب استفهام استنكاريّ، حيث ترد كلما خالف الناس واقعهم وناقضوا أنفسهم، والاستفهام للتوبيخ، بمعنى أليس لكم ذهن عاقل؛ فتفطنون به لأفعالكم، وتفهمون به الخطاب، وتعملون بما أمرتم، وتنتهون عما منعتم؛ أي: أليس لكم ذهن فتفطنون لقبح أفعالكم وأقوالكم، مثاله ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

وروده بصيغة (لعلّكم تعقلون) ثماني مرات، وهي تفيد الفعل؛ أي بمعنى لتعقلوا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. ووردت هذه الصيغة دائماً بعد لفظ (بيان)، أو تبيين من الله تعالى لأحكامه

وحدوده. مثال لذلك في آية البقرة سبقها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ثمّ أحكام الحيض والطلاق؛ بعدها ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤١ - ٢٤٢]؛ أي يبيّن حدوده وأحكامه؛ كيما يُعرف المقصود؛ ويعمل بالمطلوب.

والمراد بالتعقّل في جميع المواضع معنيان هما: عقل الخطاب؛ أي استيعابه بعد بيانه، والانعقال به؛ أي حبس النفس على أوامر الخطاب ونواهيه. فكان التمييز والمنع، والتمييز بالبيان الذي جعله الله تعالى في آياته، والامتناع هو المطلوب، والإنسان مخيّر فيه، فإن لم ينعقل فلا عقل له؛ أي أنّه لا يميّز النافع من الضار، والخير من الشر.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]؛ هنا كان الخطاب ثمّ سماعه ثمّ عقله ثمّ تحريفه عن علم، فأثبت لهم التعقّل قبل العمل بالخطاب؛ بل وبعد تحريفه، لكن علّقه بالخطاب وفقط؛ فلم يثبت لهم مطلق التعقّل، (عقلوه)؛ أي فهموه، ووعوا المقصود، وأدركوا المطلوب منهم، ثمّ عصوا عن قصد وتعمّد، فلم يوصفوا بأنّهم عقلاء مدحاً، بل وصفوا بأنّ لهم القدرة على عقل الخطاب، مع عدم الانعقال به؛ أي عدم الالتزام، لذا انتفى عنهم وصف "العقلاء" لاقتضاء العلم للعمل دائماً في الكريم.

ونفي العقل عن الكفار والعصاة ليس نفياً للقوّة العقليّة؛ لأنّها مناط التكليف، بل نفي للعمل بمقتضى ما تعقله من علم وصلاح، ونفي لكمال

العقل. بل إن كل موضع نفي فيه العقل؛ فالمراد العقل بمعنى العلم المستفاد بالقوّة المدركة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ وكل موضع رفع فيه التكليف فالمراد القوّة المدركة وهي العقل. فالعقل على ثلاثة معان: أولها القوّة المتهيّئة لقبول العلم؛ وهي ما يفارق بها غيره من الحيوان. وثانيها: العلم المستفاد من تلك القوّة، أو ما وضع في الفطرة والطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وثالثها القوّة الغريزيّة، المانعة والحابسة للنفس عن اتباع كل شهواتها ورغباتها، فهي المتحكّمة بالمنع أو الإذن.

وكل موضع ذمّ فيه العقل لوقوعه في خطيئة؛ فإنّما الذمّ للقوّة الغريزيّة المانعة؛ فالعقل علم وعمل، والعلم القوّة المتهيّئة للعلم، والمستفاد من تلك القوّة، وما فطر عليه العقل، أمّا العمل فهو القوّة الغريزيّة التي تمنعه عن الشر والقبائح والباطل، وتسمح بالخير والحقّ والصلاح. فأثبت الله تعالى لكلّ الناس العقل، ونفاه عن الكفار، ونفاه عن العصاة، وعن الجهّال؛ وهذا يقع على أحد معاني العقل كل واحد بحسب السياق. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فأثبت العقل للعلماء دون غيرهم، فالتعقّل هنا بمعنى الفهم والتدبّر للأمثال، مع تطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب.

في آيات الصيام ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٢]، بعدها كان تفصيل مسائل الصيام، ثمّ ختم ذلك كله بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالغاية من فرض الصيام حصول التقوى، وبيان أحكامه لتحقيق الغرض بتمامه وكماله، فالبيان للحقّ من دواعي فهمه وزيادة في حجّيته وإعانة عليه. وكذلك فإنّه يقيم الحجّة عليهم؛ بأن يتّقوا العقاب حال المخالفة، فكان بيان الحقّ وتفصيله للعمل على اتّقاء الأخطاء والمعاصي والشرّ الناجم عنها.

بعد الآية كان السياق كالآتي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثمّ مسائل الجهاد والحجّ بعد ذلك ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ثمّ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، بعدها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثمّ ختمت بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ أي بيان الدلالات على أحقيّة الحقّ، ومحصّلات العلم النافع، والفرقان بين الخير والشرّ، والصدق والكذب، والحقّ والباطل، وكل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ أي تستعملون فكركم في فرك هذه الأمور، والبحث فيها بحركة وجولان للقوّة الإدراكيّة؛ من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب، والغاية من ذلك إدراك الأسرار، وتحصيل علم زائد عن العلم الحاصل من فهم الخطاب أولاً. بعدها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ختمت الإجابة ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ أي يستحضرون ما أمروا به، فيعملوا اتّقاء للعقاب، ثمّ يتفكّروا اتّقاءً لأحكام الله، ثمّ يبيّن لهم كي يتذكّروا ما علموه أولاً. وبعدها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، بعد الإجابة كان

تفصيل أحكام الطلاق ثمّ ختمت ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فجعل الله بيان حدوده خاصاً بأهل العلم بأحكامه، لأنّه يحب من يتعلّم حدوده، ومن يعلمها هو من يفهم وجه الحكمة منها، وهذا حاصله زيادة علم، وهداية من الله تعالىٰ بعد التذكّر. بعدها أحكام المطلقة والأرملة، ثمّ ختمت ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]؛ أي عقل حدوده بفهمها، ومعرفة المقصود، والعمل بمقتضاها.

فالترتيب في مستويات من كان غرض التبيين للآيات موجّهاً لهم كان كالآتي: المتّقون، المتفكّرون، المتذكّرون، العالمون ثمّ العاقلون، مثلها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]، بعدها ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣]؛ وهذا هو مبدأ الحجاج؛ أي الكون مسخّر ليتفكّر به فيؤمن بذلك الإنسان. قال السعديّ: قسّم تعالىٰ الناس بالنسبة إلىٰ انتفاعهم بآياته إلىٰ قسمين: قسم يستدلّون بها ويتفكّرون بها وينتفعون، وهم "المؤمنون" بالله إيماناً وصل إلىٰ درجة "اليقين"، فزكّىٰ منهم العقول، وازدادت معارفهم، وقسم يستكبرون، ويسمعون آيات الله ثمّ يُعرضون.

فالتعقّل في القرآن الكريم هو أعلىٰ درجات وصول العلم، لأنّ بعده العمل؛ وهو مقترن به، فالنفس أو القلب تصل إليها الخواطر والأحاسيس والشعور، ثمّ يكون الفكر بتقليب المعلومات والنظر فيها وتأمّلها، بعدها

يكون فهمها وفقه المراد، ثمّ عقلها بأن تحبس في النفس المدركة وتنتقل إلى الإرادة لتعقّلها عن العصيان وتلزمها بالطاعة، قال ابن تيميّة: "العلم والعمل الاختياريّ أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصوّر المراد، فلا بُدَّ أن يكون القلب متصوّراً"، والعقل في القرآن الكريم لا يرد ممدوحاً؛ إلا في مقام العمل بعد العلم، وإلا مجرد العلم من غير القيام بمقتضاه يعد نقصاً في العقل. والغاية من العلم ليس الترف المعرفيّ بل التطبيق العمليّ. فكان كلّما أمر وبيّن الله آياته وصف عباده حسب درجة الاستفادة من البيان؛ وكان أعلاها عقل ما بَيَّنَه، وذلك باستيعابه وتمييزه، ثمّ عقل النفس حسب مقتضى البيان؛ فتمنع عن مخالفة الأوامر؛ وتمنع عن ارتكاب النواهي.

كلما ذكر الله تعالى التعقل بصيغة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كان العقل إما: لحدود الله تعالى وأحكامه؛ بوعيها والعمل بمقتضاها، أو لِمِنَنِهِ وما سخّر لعباده من أمور مختلفة ومتنوّعة. فكان لا بُدَّ من مقابلة الخير النازل من الله تعالى؛ بمنع النفس عن العصيان، وإلزامها بالطاعة لمن يرزقها ويحسن إليها. فكل سياقاته ورد فيها ذكر مسخّرات الأرض والسماء، من طعام، وحيوان، ووسائل نقل ومزروعات، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢]. أمّا إذا ذكر التفكّر فيوجَّه نحو الحركة والاختلاف والتنوع، بينما يذكر العقل في مقام الامتنان على العاقل؛ ليُلزَم طاعة من سخّر له ما في الأرض لخدمته. وبيْن التعقّل وغيره فروق؛ تلاحظ في سياق الآيات التي تتابع، فغالباً يبدأ بالإيمان،

ثمّ السماع، ثمّ التقوى ثمّ التفكّر ثمّ التذكّر ثمّ العلم ثمّ التعقّل.

وظيفة التعقّل -كما يبين القرآن- هو القياس والتعميم، لذا كان ضرب الأمثال للعقلاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣]؛ والتعقّل دوره لاحق بعد الاتصال بالواقع الذي يتمّ عبر الحواس، فإذا تعطّل الإحساس تعطّل التعقّل قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ تعطّل لكل طرق الإحساس فكانت النتيجة ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. أما التفكّر فهو: تفعّل من الفكر؛ وهوكل ما وقع في خلد الإنسان وقلبه، فالاسم الفِكْر والفكرة، والمصدر الفَكْر-بالفتح-، والفعل التفكّر؛ وهو تفعّل الفكر مع تأمّل. وقيل هو تردد القلب في الشيء حتى يستقر؛ أي قوّة مهيّأة للعلم، تؤدّي إلى الوقوف على المعاني المقتضية للسكون؛ فهي جولان القوّة المدركة بحسب النظر، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال فكر إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب؛ فهو تصرّف للقلب بالنظر في الدلائل، فيما يمكن أن يحصل له صورة فيه. ولم يرد لفظ المصدر منه في القرآن، بل ما تصرّف من أفعاله في ثمانية عشر موضعاً. فالتفكّر وظيفة للجهة المدركة في الإنسان؛ بالتركيز على التفكّر في أمور لتحصيل المعرفة، ولكنه يتميز بالدقة، ويحتاج إلى التدرّج في استنتاج العلم، ويحتاج إلى الحواس واليقظة في الفطرة للعلم الضروريّ، ويحتاج كذلك إلى التذكّر، فهو عمليّة عقليّة بحتة تستلزم البحث والدرس والتقصي.

ولا يكون الفكر إلا إذا استحكمت اليقظة؛ فتوجّب الفكر بتحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له؛ أي التماس العقل المطلوب بالتفتيش

عليه. قال ابن القيّم: الفكر فكرتان: فكرة تتعلّق بالعلم والمعرفة؛ وفكرة تتعلّق بالطلب والإرادة. فالتي تتعلّق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحقّ والباطل، وبين الثابت والمنفيّ. والتي تتعلّق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تميز بين النفع والضار. ثمّ يترتّب عليها فكرة أخرىٰ في الطريق إلىٰ حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلىٰ ما يضرّها فيتركها. فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء.

فالتفكير هو طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم؛ من أمر هو حاصل منها: هذه هي حقيقته، فإن لم يكن ثمّة مواد تكون موارد للفكر؛ استحال الفكر، لأنّ الفكر بغير متعلّق متفكّر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكّر فيه. فإذا عُرف ذلك؛ فينتقل المتفكّر من المقدمات والمبادئ التي عنده؛ إلىٰ المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصّل له تذكّر به، وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، والتذكّر هو مقصود التفكّر وثمرته.

وجاء الأمر في التفكّر في كتاب الله بصيغ مختلفة وهي: يتفكّرون، تتفكّرون، تتفكّروا، يتفكّروا وفكر. باستقراء الآيات التي ورد فيها تلك الصيغ نلاحظ ما يأتي: جاءت الدعوىٰ إلىٰ التفكّر في آيات الله الكونيّة في عدّة مواضع منها ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وجاءت الدعوىٰ إلىٰ التفكير في حال النبي ﷺ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وفي الأنفس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وفي من مضىٰ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]،

وفي الأمثال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١] وجاءت بالدعوى إلى ضرورة التثبّت والاستفادة من الآيات البيّنة لمعرفة العواقب وفهم النتائج والتمييز بين النافع والضار. وتدعو أغلبها إلى التفكّر في ميدان الأنفس والآفاق؛ أي الآيات الكونيّة؛ وتشمل أسرار الأنفس، والسنن الاجتماعيّة، وتاريخ الأمم وقصصهم، مثال ذلك ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] فهي آية لمن ينتفع بها، ويتفكّر فيما ينشأ بين الزوجين من علاقة لا تكون مع غيرهما.

فالتدبّر: وهو تصرّف القلب بالنظر في الدلائل، مثل التأمّل وهو استعمال الفكر مع تمهّل. فالتدبّر في الأمر: أن تنظر إلى ما يؤول إليه في عاقبته. وقد ورد التدبّر في القرآن الكريم بصيغة الفعل "يتدبّرون" يدبّروا"، كلها التدبّر في الآيات المتلوّة؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: ٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. قال الزمخشريّ: تدبُّر الأمر تأمّلُه، والنظرُ في أدباره؛ وما يؤول إليه في عاقبته، ومنتهاه، ثمّ استعمل في كل تأمّل، فمعنى تدبّر القرآن تأمّل معانيه وما فيه. فهو وظيفة للجهة المدركة في الإنسان؛ ولكنه تفكير عميق مع ما يتبعه من تعقّب لأدبار الأمور ونتائجه، وثمرته التذكّر وبلوغ مرتبة أولي الألباب؛ بذلك يكون التدبّر درجة أعلى من التفكّر وأدنى من التذكّر.

والتفقه: من الفقه وهو الفهم بالعلم والحذق في الصنعة اللفظيّة؛ والبيان. وهو العلم بمقتضى الكلام مع تأمّله؛ لذا أطلق على فهم الخطاب الشرعيّ "الوحي"؛ ومعرفة مقتضاه عن تأمّل (علم الفقه). قال ابن دريد: رجل فقيه: عالم، وكل عالم بشيء فهو فقيه، وغلب الفقه على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، وتخصّص بعلم الفروع في الشريعة. وقد ورد في القرآن الفعل لا المصدر، وكانت دلالاته على أنّه أخصّ من الفهم ومن العلم ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨]؛ فهو توصّل إلى علم غائب بعلم شاهد. وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨].

والتفقه أعلى من الفهم، لأنّ الفهم شرط في قيام الحجّة غير أنّ الفقه ليس شرطاً، فكان عدم فقه الكفّار والمعاندين كلام أنبيائه ليس دليلاً على سقوط التكليف عنهم ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، فقوم شعيب فهموا خطاب نبيّهم عليه السلام بدليل قولهم له قبل ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]، فقولهم ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي لا نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة. فهم لم يقتنعوا بوجه الحجّة، ولم ينفذوا بفكرهم إلى علّة صحّة ما يقول؛ مع فهمهم كلامه وقوّة حجته، وذلك كان على وجه التضجّر من نصائحه ومواعظه، وعدم فقههم؛ لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه." وكان الحاجز النفسيّ مانعاً للانتقال من درجة الفهم إلى درجة الفقه؛ أي الوقوف على المعنى الخفيّ

المتعلق به الحكم، بتعقّل وعثور يعقب الإحساس والشعور.

ورد فعل التفقه على تصاريف وهي: تفقهون، نفقه، يفقهوا، يفقهون، يفقهوه، يتفقهوا، باستقراء الآيات نلاحظ: أن التفقه يكون للكلام والقول والحديث ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]. والتفقه من أعمال القلب ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ونتيجة الطبع على قلب الكافر والمعاند هي عدم الفقه ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة: ٨٧]؛ فخصّ القرآن الطبع بعدم التفقّه. ومثله الأكنّة ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، و﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وفي الكهف ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]؛ والأكنّة هي الأغطية.

ووظيفة التفقّه أعمق من الفهم والإدراك كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد ورد التفقه على أنّه وظيفة تحصيل؛ أكثر منها وظيفة نظر وتفكّر؛ أي هو هيئة حاصلة للإنسان بعد نشاط فكريّ، وخصّ بالدين في القرآن الكريم ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فالتفقه هنا التخصّص في تعلّم الدين. وهنا لا فرق بين الفقهين الأكبر والأصغر، قال السعديّ: "وفي هذه الآية دليل وإرشاد لفائدة مهمة، وهي أنّ المسلمين ينبغي لهم أن يعدّوا لكل مصلحة من

مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفّر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت لغيرها لتقوم مصالحهم وتتمّ منافعهم. قال الغزاليّ: "كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال.. وكان لفظ الفقيه لا يطلق قديماً إلا على من كانت لديه ملكة تساعده عليها فطرته وممارسته، فيستطيع بها أن يستنبط الأحكام الشرعيّة في الأمور العمليّة من أدلّة الشرع وأمارات الأحكام، فكان لفظ الفقيه يساوي لفظ المجتهد، ثمّ على كل من اشتغل في الفقه؛ وحفظ الفروع."

أما التبصّر فهو من البصيرة؛ وهي فطنة تمنع الإنسان من الغفلة، وبصر المتعدّي بالباء يؤدي معنى عليم. فالبصيرة هي قوّة مدركة في القلب وجمعها بصائر. فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب؛ يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل؛ كأنه يشاهده رأي العين: فيتحقق انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم؛ وهذا معنى قول بعض العارفين: "البصيرة" تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به. وقال بعضهم: "البصيرة ما خلصت من الحيرة إما بإيمان؛ وإما بعيان. وهي على ثلاث درجات: الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يُخاف عواقبها، فترى من حقه أن تؤديه يقينا؛ وتغضب له غيره. والثانية: أن تشهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العدل، وفي تلون أقسامه رعاية البر، وتعاين في جذبه حبل الوصل. والثالثة: بصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة. وهذه تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب، ولم يقل "تفجر العلم"؛ لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم، ونسبتها نسبة الروح إلى العلم، فهي روح العلم ولبه.

والبصيرة تكون للآيات المشاهدة ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦-٨]؛ فالتبصرة آلة البصر، والعبد إذا أناب بقلبه إلى ربه؛ أبصر مواقع الآيات، ثمّ يبصر القلبُ الحقَّ بقواه الإدراكية، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، والعبرة لا تكون إلا لمن يبصر محلها؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٣]؛ فأولو الألباب نصيبهم التذكر، وأولو الأبصار نصيبهم الاعتبار "﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

والنظر: نظر في الأمر بالبصيرة والقلب على سبيل التفكر؛ والإحاطة به حفظاً؛ وإظهاراً لصوابه؛ بالمناظرة والرأي والحسن. وهو كقوّة إدراكية؛ هو ترتيب أمور معلومة؛ على وجه يؤدي إلى استعلام ما ليس بمعلوم. فقيل: النظر عبارة عن حركة القلب لطلب علم من علم. وفي مراتب وصول العلم إلى النفس نجد: الفهم وهو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والإفهام إيصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع.

والفكر: حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب. والنظر: ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة، فالنظر إقبال على الشيء بالبصر، وعلى الأمر بالقلب؛ والرؤية إدراك المرئي، وإمهالُ النظرِ تأملٌ ورويةٌ. وأكثر ما جاء من مادّته في القرآن كان عن البصر أو البصيرة، لأنهما من مداخل التفكير، والنظر بالبصر المراد منه الملاحظة بالعين والتفكر بالقلب، فليس الأمر بالنظر في القرآن لتسلية الأعين بل لتذكير القلب

وتفكره. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة وغالب، وفي البصيرة أكثر عند العلماء.

وما جاء في القرآن الكريم كان في الغالب حض على إعمال الفكر في مواطن كثيرة وبصيغ مختلفة؛ منها: نظر: جاء بصيغة الماضي في قوله تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المدثر: ٢١]؛ وننظر، بصيغة المضارع في قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: ٢٧]، جيء به لدلالة التثبت من الخبر قبل إصدار الحكم. وجاء بلفظ: فلينظر، بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥]، وفي كيفيّة الخلق ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٢٤-٢٧]. وبصيغة انظر: في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ ومثله (انظروا). وينظروا: بصيغة المضارع، في الحض على التأمّل والتفكّر في المخلوقات؛ وآيات الله الكونيّة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وفي آيات الأنفس من أحوال الأمم الخالية العاتية في الدنيا؛ وما كانوا عليه من القوّة والسلطان، ثمّ ما أصابهم من العذاب في الدنيا لعصيانهم؛ وما يلحقهم من العذاب في الآخرة ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

والرأي: قال ابن القيّم: تفرّق العرب بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالّها... "فالرؤيا" في النوم... و"الرؤية" في الإبصار، والرأي لما يعلم بالقلب ولا يرىٰ بالعين. ولم يأتِ الرأي بمعنىٰ الإبصار؛ إلا حال اقترانه بقرينة دالة علىٰ ذلك ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ورأىٰ إذا عُدي إلىٰ مفعولين اقتضىٰ معنىٰ العلم، والرأي اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن. وقال بعضهم: الرأي هو إحالة الخاطر في المقدمات التي يرجىٰ منها إنتاج المطلوب. وقد يقال للقضيّة المستنتجة من الرأي رأيٌ، ويقال لكل قضية فرضها فارض رأي أيضاً. وهو أعلىٰ درجة من الفكر وأدنىٰ من الاستبصار.

جاء الرأي في القرآن الكريم بصيغة الإفراد والجمع في حال المخاطبة والغيبة، وبيانه كالآتي: (تر): وهي صيغة خاصّة في القرآن، خاطب بها الله تعالىٰ نبيه في مواضع عدّة، وهي تشمل كل من تبعه من أمته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، بمعنىٰ ألم تخبر، وبلفظ: (ير): جاءت بصيغة الغائب؛ تنبيهاً للتأمّل في ما حول الإنسان من آيات مرئية تستشعره وتثيره للتفكير فيها، ليعتبر بما يرىٰ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]. و(يروا) و(يرون): كلّها للحض علىٰ إعمال الفكر في آيات الآفاق والأنفس، من أجرام سماوية وآفاق أرضية، والقياس بما يرىٰ ويعاين علىٰ الغائب؛ فكلّها أمثال وصور جُعِلت ليعي الإنسان أنّ ما غاب عنه حقيقة مثل ما هو معاين عنده. قال ابن القيّم:

الرأي في الأصل مصدر رأىٰ الشيء يراه رأياً، ثمّ غلب استعماله علىٰ المرئيّ نفسه، من باب استعمال المصدر في المفعول، كالهوىٰ في الأصل مصدر هوية يهواه هوىٰ؛ ثمّ استعمل في الشيء الذي يهوىٰ، فيقال: هذا هوىٰ فلان. وتفرّق العرب بين مصادر فعل (الرؤية) بحسب محلّها، فتقول: رأىٰ كذا في النوم رؤيا، ورآه في اليقظة رؤية، ورأىٰ كذا -لما يعلم بالقلب ولا يرىٰ بالعين- رأياً، ولكنّهم خصّوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصواب؛ مما تتعارض فيه الأمارات. فلا يقال لمن رأىٰ بقلبه أمراً غائباً عنه؛ مما يحسّ به: إنّه رأىٰ. ولا يقال أيضاً للأمر المعقول الذي لا تختلف فيه العقول ولا تتعارض فيه الأمارت أنّه رأىٰ، وإن احتاج إلىٰ فكر وتأمّل كدقائق الحساب ونحوها.

والرأي ثلاث أقسام: رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح بلا ريب، والثالث هو موضع الاشتباه: التذكّر والذكر: الذكر في معناه العام الحفظ للشيء، ومنه الشيء يجري علىٰ اللسان، ويكون الذكر باللسان والقلب، ومن معانيه الصيت والثناء وكتاب الدِّين، والقرآن لشرفه. فالذكر هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أنّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر اعتباراً باستحضاره؛ أكان بالتدبّر أم بالنطق أم بالحديث علىٰ هيئة الحكاية. ويقال لحضور الشيء في القلب أو القول ذكر باللسان؛ وكلّ واحد منهما ضربان؛ ذكر عن نسيان، وذكر عن إدامة حفظ لا عن نسيان. وسمّي العلم تذكراً لقوّة الدلائل وظهورها؛ كأنّ ذلك العلم كان حاصلاً؛ وإن بعد حين بما يستعمله من التدبّر والنظر. "فالحافظة" هي

القوّة التي تحفظ ما تدركه القوّة الوهميّة من المعاني، و"الذاكرة" هي القوّة التي تستحضر المعاني التي وَعَتْها الحافظة وتتذكرها.

ويأتي الذكر في عدّة تصاريف، على ستة عشر وجهاً في التفسير، وذلك لضرورة تخصيص الدَّلالة تأديةً للمعنى المراد، ولكنّ كلّ هذه الوجوه فيها استحضار وتدبّر، فقد جاء الذكر دالاً على الطاعة والعفة، والقرآن، والبيان، والخير، والذكر باللسان وبالقلب، والوحي، والعلم، والحفظ والدراسة. والتذكرة ما يتذكر به الشيء؛ وهو أعمّ من الدَّلالة والأمارة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧٣]. فالتذكر وظيفة إدراكيّة لتحصيل المعرفة، ولكنّه يكون باسترجاع المعاني سواء منها: التذكر للمعاني الفطريّة، أو المعلومات السابقة التي تقرّ بها الفطر جميعاً، ويتناساها الناس في غمرة التحدّي والإعراض والانحراف؛ أو التذكر للمعاني من خلال النظر في الآيات الكونيّة والمتلوّة، والسنن الاجتماعيّة، أو من النظر باسترجاع المعاني، وأخذ العبرة من قصص الماضين. فهو نشاط إدراكي ما بعد التفكّر والتدبّر، ولا يكون إلا للخلَّص وأولي العقول الزاكية.

ويتبيّن أنّ التذكر ورد بصيغ عدّة باستقراء آيات القرآن، وفي سياقات متنوّعة وهي: فقد يرد مع أداتي الحض (أفلا) و(فلولا)؛ في سياق الاستفهام الإنكاريّ للتوبيخ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]. وإذا ورد اللفظ مسبوقاً بـ"لعلّكم" أو"لعلّهم"؛ فهو للتحقيق وبيان العلّة، كما في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ

ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]. وقد يسبق التذكير البيان والتفصيل ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠]، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦].

والتذكر خاص بأولي الألباب دون غيرهم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، فالتذكّر فعل اللبّ وهو خالص العقل. ويكون في آيات الله الكونيّة والمتلوّة ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢]. وفي الآيات المتلوّة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وكل متذكّر هو متفكّر أو متدبّر ضمناً، ولا يلزم أن يكون كلّ متفكّر أو متدبّر متذكراً؛ لحصر التذكّر بأولي الألباب فقط دون غيرهم. فالتذكّر قرين الإنابة ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: ١٣]، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]. والتذكّر مع التفكّر يثمران أنواعاً من المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. ولا يزال العارف يعود بتفكّره على تذكّره، وبتذكّره على تفكّره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتّاح العليم، قال الحسن البصريّ: "ما زال أهل العلم يعودون بالتذكّر على التفكّر، وبالتفكّر على التذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت."

والتذكر تفعّل من الذكر، وهو ضدّ النسيان أي حضور صورة المذكور العلميّة في القلب، واختير له بناء التفعّل، لحصوله بعد مهلة وتدرّج، كالتبصّر والتفهمّ والتعلّم. فاختصّ التذكير بأولي الألباب؛ وهم من آتاهم

الله تعالى الحكمة، واختصّ بأهل الإنابة، كما سبق التذكّر التفكّر والتبصّر في الآيات المشهودة؛ والتدبّر لكلام الله تعالى، فيكتسب العبد المنيب التائب إلى الله تعالى صفاء البصيرة، فيبصر مواقع العبر في الآيات المخلوقة والمتلوّة، لأنّ التبصرة آلة البصيرة، والتذكرة آلة التذكر، فيترتّب عن التفكّر والتدبّر التبصرة، ويترتّب عنها التذكّر؛ فتحصل الهداية، فتزيل الإنابة عنه الغفلة فيبصر؛ وتوجب البصيرة حضور الصور الدلاليّة بالقلب؛ فتزول عنه الغفلة فيتذكر. قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣]. والمراد بالتذكّر الأثر النفسيّ والسلوكيّ؛ الذي يثيره أو يحدثه التذكّر لقضية ما من قضايا المعرفة. والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة الدينيّة؛ التي أوحى الله بها إلى رسوله، وهو ما جاء بيانه في صدر الآية. والتذكّر هنا هو استحضار المعلومات من الذاكرة، باستخراجها من مخازن المعرفة وإحضارها إلى ساحة التصوّر الحاضر. والناس عند حصولهم على المعارف بطرائقها الفكريّة أو التجريبيّة أو الخبريّة، قسمان: القسم الأول تمر عليه الفكرة، فلا يعتني بها ولا يكترث لها، ويدعها تمر عابرة من غير أن يهتم بنقلها إلى مخازن الذاكرة في نفسه، بسبب إهماله وعدم اهتمامه. وهذا القسم من الناس مسؤول عن إهماله وتقصيره ومؤاخذ عليه.

أما القسم الثاني فيحافظ على المعارف، ويخزّنها بنفسه، وأصحاب هذا القسم صنفان: الصف الأول يستدعي الأول المعلومات من مخازن الذاكرة إلى ساحة التصوّر الحاضر عند المناسبة التي تقتضيها، وهذا هو التذكّر؛ والصنف الثاني يهمل هذه المخازن؛ حتى تكون في زوايا المتروكات

والمهملات أو نوادر الاستدعاء أو في غياهب النسيان.

فاشتغال النفس بما أمرها الله تعالىٰ من تكاليف، وتقيد النفس بأوامر الله تعالىٰ ونواهيه، لا بدّ أن يسبقه عمل القلب وفعله؛ وضمناً هنالك تفكّر وتدبّر وإيمان قبلها، والمداومة علىٰ الطاعة إنّما هي للمداوم علىٰ التذكّر، فهو محرّك القلب؛ والقلب سيّد الأعضاء ورئيسها، وصلاحه صلاح لها لزاماً، فكلّما كان المدرَك أكثر حضوراً في النفس بالتذكّر؛ كان أكثر تأثيراً فيها وأشدّ في تحريكها نحو الفعل. فمن شغل ذهنه بالآخرة وما يحقّق السعادة الأبديّة؛ كانت جوانب نفسه كلّها مستثارة لتحقيق مطالب الآخرة، والسعيّ إلىٰ إصلاح أعمال النفس ونواياها، حتىٰ تصفىٰ نفوسهم من كلّ غاية غير الآخر وطريق الوصول إليها. وهذا حال الأنبياء، وهو ما خاطب به الله تعالىٰ آخر أنبيائه محمّداً عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٥، ٤٧]؛ فالخصلة الخالصة من الشوائب التي اصطفاهم الله بها، وجعلهم بها من المصطفين الأخيار؛ هي أنّ ساحة تذكرّهم دوماً هي الدار الآخرة، وكلّ ما يوصلهم لها من أعمال في الدنيا. فكلّ حركاتهم ونواياهم موجّهة لغاية واحدة، وكلّ أعمالهم للقربىٰ من الله تعالىٰ، حتىٰ بنومهم وقيامهم.

وإنّما يكون التذكر النافع الموجّه للإدارة من المؤمنين المتّقين الحكماء، وهم أولو الألباب، فخلاصة الفكر التذكّر، وخلاصة أهل الفكر أولي الألباب، وخلاصة العقل اللبّ، وخلاصة العقلاء أولي الألباب، قال تعالىٰ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ

إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٤ – مجال الإدراك العقليّ في القرآن الكريم:

تبعاً لدور القوّة المدركة في تحصيل المعرفة؛ نجد أنّ التفكّر والنظر أهمّ ما يميّز الكينونة الإنسانيّة المدركة؛ يتعامل مع الكون الذي يعيش فيه، وهو مزوّد بالحواس التي تفتح له آفاق المعرفة لعالم الشهادة، والفكر وهو يتقدم إلى معرفة ما في الكون من محسوسات؛ لا يكتفي بالإدراك الظاهريّ لها؛ وإنما يحكم بوجودها ونهايتها، فتحصل المعرفة بالقوّة الإدراكيّة ونشاطاتها فتعتمد على الحواس، وما ينبني من تراكم معرفيّ، وقوانين تصبح بدهيّة، لفهم ما هو معاين وإدراكه؛ والقياس عليه لإدراك وجود ما لا يعاين في الحال، وهذا ما يصطلح عليه قرآنياً بمجال الشهادة والغيب. فعالم الشهادة عالم فسيح للفكر؛ من خلال ما يتميّز به من معرفة ضروريّة، وقوانين منظّمة لما تسعفه به الحواس، فكلّ ما في العالم مجال للفكر؛ من سموات وما بها من طبقات وكواكب ونجوم، ومن أراضي وما بها من جبال وسهول وبحار وأنهار، والإنسان هو عالم مصغر، فكلّ هذا ميدان للفكر، وهو مسخّر لخدمة الإنسان، ومسخر لفهمه والتفكّر فيه ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

ووجّه الإنسان للتدبّر في آيات الله المتلوّة، وهي مصدر لمعرفة عالم الغيب، وفهمه مع ضبط الفكر، بأن لا يقتحم إلا ما قدر عليه، لذا وجّه الإنسان نحو ما ينفعه، وما هو أهل للبحث فيه، أمّا ما لا طاقة له به؛ فقد بيّن له ما يقدر عقله على استيعابه، وحجب عنه ما لا يؤثّر علمه في المطلوب منه،

ولا يضرّ الجهل به بالمهمة التي خلق لأجلها. فعالم الغيب كقضيّة في مجال الإدراك من حيث المبدأ؛ يعترف بها العقل والفطرة، أمّا تفصيل هذا العالم فليس له طاقة ولا قدرة ولا وسيلة غير الوحي، بينما سخّر له ما يمكنه من التسليم بوجوده. وجاء ليعرض بعض تفصيلاته من غير الخوض في "الكيفيّات" أو محاولة البحث في الماهيات؛ لأنّ القدرات الإدراكيّة في الدنيا غير مؤهّلة لذلك، بل لا حاجة لها بها.

فخصائص العقل: القياس والاعتبار والتعميم والضرورة، وكلّها تبنى إمّا على ما تنقله الحواس أو ما تراكم من معارف ونتائج عمّا نقل تتابعاً عن الحواس. فعدم تحديد المجال الذي يرتاده العقل ويبحث فيه؛ هو أكبر خطأ منهجيّ يرتكبه الباحث في اعتماده على هذه القوّة المعرفيّة، وتحديد المجال الذي ينبغي أن يعمل فيه العقل؛ متوقف على النظر في حدود طاقته وإمكاناته؛ حتى لا يخوض في بحث يخرج عن إطار طاقته ويفوق إمكاناته.

فطاقة العقل وقدرته الذهنيّة محدودة، ولا يستطيع أن يتعقّل جميع الأشياء، أو يبحث في جميع القضايا، وكذلك إمكاناته ووسائله محدودة، إذ لا تستوعب قوّتا السمع والبصر مثلاً جميع المسموعات والمرئيات، فعملهما يبقى محدوداً في إطار المسموع والمشهود، والعقل يحكم في القضايا التي يتصوّرها تصوّراً محدوداً في إطار المسموع والمشهود، ويحكم في القضايا التي يتصوّرها تصوّراً تامّاً؛ إذ الحكم على الشيء هو فرع عن تصوّره، وأمّا القضايا التي لم يتصوّرها البتّة، أو كان تصوّره لها ناقصاً؛ فلا يجوز له الحكم عليها لا بالنفي ولا بالإيجاب.

فأهمّ ما يحد من قيمة الحجّاج العقليّ؛ هو قدرته الكبيرة على إقامة الأدلّة لما يعتقده حقّاً وصواباً "إذ لا يعجزه أن يجد الحجج المفحمة المقنعة؛ لإثبات وجهة نظره، وإن لم تكن صحيحة في الأمر نفسه، فهو خصيم شديد العدواة والجدال، مبيّن لأوجه الخلاف والمعارضة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

فلا غرو أن تتفاوت المعارف العقليّة بين الناس؛ لاختلاف القدرات الذهنيّة والإرادات الباعثة على اكتساب المعارف، فمن المعلومات ما هو مشترك بين عامّة الناس وهي قليلة؛ ويرجع غالبها إلى الحسّ المشترك أو الحسّ العام، ومنها ما يكون مشتركاً بين فئات معيّنة، ومنها ما يختصّ بأشخاص معيّنين. وتنقسم هذه المعلومات إلى بدهيّة ونظريّة، ويفتقر النظريّ إلى البدهيّ، ولا يكون البدهيّ من غير إعانة الحواس، كما يستقرّ على التسليم نتيجة التكرار وثبات الحكم دوماً؛ أي أنّ تسليم العقل أنّ "أ" هو "أ"؛ لن يكون إلا بعد تكرار تلقيه لمثال "أ" دائماً هو"أ"؛ فيسلم أنّ "أ" هو "أ" دائماً وأبداً، فيصبح [بدهياً] ومسلماً به دائماً وأبداً، مما يقتضي قانوناً ثابتاً هو" مبدأ الهويّة".

"وكون العلم بدهيّاً أو نظرياً؛ هو من الأمور النسبيّة الإضافية، مثل كون القضية يقينيّة أو ظنيّة، إذ قد يتيقن زيد ما يظنّه عمرو، وقد يبدي زيداً من المعاني ما لا يعرفه غيره إلا بالنظريّ، وقد يكون حسياً لزيد من العلوم؛ ما هو خبري عند عمرو، وإن كان كثير من الناس يحسب أن كون العلم المعيّن ضرورياً أو كسبياً أو [بدهياً] أو نظرياً؛ هو من الأمور اللازمة له

بحيث يشترك في ذلك جميع الناس، وهذا غلط عظيم، وهو مخالف للواقع، فإنّ من رأى الأمور الموجودة في مكانه وزمانه؛ كانت عنده من الحسّيات المشاهدات، وهي عند من علمها بالتواتر من الأخبار المتواترة، وقد يكون بعض الناس إنّما علمها بخبر ظنيّ؛ فتكون عنده من باب الظنيات، فإن لم يسمعها فهي عنده من باب المجهولات، وكذلك العقليّات؛ فإنّ الناس متفاوتون في الإدراك، وللبعض من العلم [البدهيّ] عنده والضروريّ ما ينفيه غيره أو يشك فيه."

فليس هناك قضايا أوليّة عند كل أحد، أو مشهورة عند كل أحد، وإنّما ذلك أمر نسبيّ بحسب أحوال الناس وقوّة التصوّر، فإذا كان تصوّر الشيء تاماً كان يقينياً؛ وإذا كان ناقصاً اعتبر مظنوناً.

فنسبيّة العقول أحد أكبر الأدلّة في تحديد قدرات العقل، وأنّ له مجالاً لا يخرج عنه؛ إذ إنّه عالم الشهادة المخلوق، فلا يدرك العقل إلا ما تنقله الحواس؛ إمّا من الكون المشهود أو من الوحي. وما كان وجوده ذهنيّاً محضاً فلا وجود له بالخارج. وافتراضات العقل مبنيّة على أساس أنه لا بدّ أن يكون محسوساً.

الفصل الثالث:

مصادر المعرفة في القرآن الكريم

يعد موضوع مصادر المعرفة حجر البناء لأي نسق معرفي، إذ منه تُستقى الأدلة والمعارف، وله اتصال مباشر في فكر الأمة الإسلامية وتوجهها الحضاريّ، من أجل إعادة بناء ما هدم، وترميم ما اهترأ، وإبداع ما يساير العصر انطلاقاً من الأصول الإسلاميّة؛ نحو الريادة وفق منهج ربانيّ.

غير أنّ مفهوم المصدر يشوبه بعض الغموض في تحديده، وفيه آراء عدّة وتصوّرات مختلفة.

أولاً: مفهوم المصدر المعرفيّ

إذا تتبعنا طرح مصطلح "مصادر المعرفة" في الكثير من البحوث؛ نجد اختلافاً بل اضطراباً في استعماله اللغويّ، وتداخلاً مع مفاهيم أخرى، ممّا يوقع في إشكالات فكريّة للمدقّق، وتصوّرات خاطئة للمطالع، ومن هنا ينبغي أن نفصّل في البحث بين الأصل والمصدر، فالأصل هو الخالق لها ولأسبابها، والمصدر هو علّة حدوثها، فالله تعالى أبدع الكون على نظام متناسق، ولا يكون التناسق من غير ثبات، والثبات لبُّ القانون، والقوانين ممّا يسّر الله للإنسان إدراكها؛ بل أرشده للبحث عنها، وهي من العالم المباشر الظاهر، وبنى الشرع الأحكام بين الناس على الظاهر، فيكون التطرّق إلى الأسباب المشهودة من العالم المدرك؛ لا إلى الأسباب المغيبة التي تلي عالم الشهادة؛ فالإيمان بالله تعالى يقود إلى تلمس سنن الله في خلقه، ولا تبديل

لسنّته تعالىٰ في الآفاق والأنفس، فما وعد جلّ وعلا بأن يُري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم؛ إلا وقد مكّنهم من رؤيتها، ولا تستقيم الرؤية من غير فهم العلل والأسباب، وكلٌّ يدرك شيئاً من ذلك بقدر ما أوتي من علم وقدرة وإرادة.

١ - المفهوم الدلالي:

يشكّل موضوع المصادر أهميّة خاصّة بالنسبة إلىٰ التربية (المعرفيّة) الإسلاميّة، لأنّه يتّصل ببناء فكر الأمّة، وتوجّهها الحضاريّ من أجل إعادة بنائها أفراداً وجماعات، لانطلاقها من الجذور الأصليّة والاتّجاهات والقيم التي كان لها كبير الأثر في تاريخنا.

إن مصطلح "مصادر المعرفة" في المفهوم الفلسفيّ؛ ليس هو المراد بطرائقها عندنا في تصوّرنا الدقيق، ذلك أنّ مصدر الشيء أصله، وأصل المعرفة عندنا ربانيّ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥]. وإن استعمالنا لأدوات المعرفة من عقل وحسّ إنّما هو بإقدار الله عزّ وجلّ وتمكينه، وإذ تتّبعنا مصطلح "مصدر المعرفة" في كثير من البحوث نجد اختلافاً بل اضطراباً في استعماله، حيث جعله بعض الباحثين وسيلة الوصول إلىٰ المعرفة، وقد تبيّن أنّها الأداة وهي الحواس والقلب. وجعله آخرون منبع المعرفة وثمرته من الأصل، فقد تكوّنت مصطلحات وهي: "أداة المعرفة"؛ وهي الجوارح من حواس وقلب، و"محلّ الإدراك" وهو القلب، و"محلّ الإحساس" وهي الحواس، و"القوّة المدركة" الكامنة بالمحلّ، و"فعل القوّة المدركة" وهو نشاطها وعمليّاتها الإدراكيّة، و"الهيئة" وهي حصول الإدراك

داخل النفس المدركة. ويطلق على المعلومات الكامنة في النفس (التراكم المعرفيّ): عقلاً، وعلى عمليّة استرجاعها والاستنباط منها: عقلاً، وعمليّة تحصيلها أو عدمها: عقلاً. فالإشكال هو: هل المصدر هو المُحَصِّل للمعرفة، أم عمليّة التحصيل، أم المُحَصَّل منه؟

والحاصل: أنّ العلوم تكتسب بواسطة العلوم البدهيّة، وحدوث البدهيّات بتصوّر موضوعاتها ومحمولاتها، وكانت التصوّرات بإعانة الحواس على جزئياتها، فظهر أنّ السبب الأول لحدوث المعارف في العقل هو هذه الحواس. فالحاصل لدينا: نفس خالية من المعارف، وأدوات ناقلة للمعارف، فتتمّ عمليّة النقل بين وسطين، هما العالم الداخليّ (النفس المدركة)؛ والعالم الخارجيّ؛ وهو كل ما خرج عن محلّ الإدراك (القلب)، فلا يكون الاتصال بالعالم الخارجيّ إلا بالحواس، التي تنقل ما يصبح بدهياً إذا تكرر؛ لأنّ صورته وماهيّته لم تتغير؛ فيجزم الذهن بثباته أو نفيه، ويصنع هذا الجزم القانون (قانون العقل)، ويبني لنا تراكم القوانين البدهيّات والمسلّمات؛ وهي العلم الضروريّ الذي نكتسب منه العلوم النظريّة الكسبيّة الحاصلة لاحقاً.

ولا بدّ أن يصدر عن المصدر شيء نحو مُتلقٍ، فإذا قلنا مصدر العلم؛ فسيصدر عنه (معلوم)، نحو متلقٍ له القابليّة على استقباله؛ وهو محلّ العلم (المتعلم)، وحال تمكّنه منه يكون (عالماً به)، فهنا الحواس ناقلة بإجماع العقلاء؛ فلا تكون مصدراً للمعارف لأنّها خالية أصالة منها. فالمصدر هو العالم الخارجي؛ وهو المنبّه والمؤثّر والباعث للصور والأصوات والمؤثّرات التي

تتلقاها وتستقبلها الحواس ثمّ تصل بها إلى مركز الإدراك. ويدخل المثال مادّة أولية إلى القلب "محلّ الإدراك"، وهو كمصنع به نشاطات إدراكيّة عدّة، تتصاعد وتتفاوت من فرد إلى آخر، فكلّ عقل يخرج من تلك المعرفة الأوليّة معارف عدّة حسب قدراته مؤهّلاته. فيكون المصدر الأصلي (العالم الخارجيّ)، والمصدر التابع هو (الحافظة أو الذاكرة)، فيستحضر العقل ما تراكم في الذاكرة من معارف ومعلومات؛ ويبني عليها لينشأ معلومات ومعارف أخرى، بعدها تخزّن هذه المعارف لتكون (مادّة أوليّة) لمعارف وعلوم أخرى بعدها. ومن معاني العقل أنّه قوّة التمييز، وأنّه المعلومات المخزّنة؛ لذا نجد الغزاليّ يقول: "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه" فهذا على اعتباره مرادفاً للقلب؛ وإنّ ما في القلب من علوم يسمّى عقلاً، حيث قال في معاني العقل الأربعة: "قد يطلق ويراد ما بمحلّ الإدراك أي المدرَك (العلوم)."

فالحواس نواقل للمعارف كما بيّن الرازيّ وغيره، ولا بدّ للمستقبل من ناقل ومصدر، ولا بدّ أن يكون الناقل بين أمرين؛ من وإلى، فإذا كان المتقّي هو القلب (محلّ العلم) أو العقل، و(الناقل) إلى محلّ العلم هو الحواس؛ فالجانب الآخر الذي تتّصل به الحواس لزاماً هو (المصدر) المُتلَقى عنه عبرها. ومصدر المعرفة هو الحاوي لحقيقة الأشياء أو ماهيّتها أو مثالها؛ أي هو الأشياء عينها؛ أي مصدر المعرفة هو (الموضوع المدرَك)؛ فعندنا نفس مدركة، وعمليّة إدراكيّة، وموضوع مدرَك. النفس المدركة هي "محلّ العلم" القلب، والعلميّة الإدراكيّة هي "العقل"، والإدراك حصول العلم، والموضوع المدرَك هو العالم الخارجيّ؛ أو ما في الحافظة والذاكرة ممّا نقل عن

العالم الخارجيّ أصلاً، وتطوّر ونشأت عنه معارف وصور قد لا يكون لها وجود بالعالم الخارجيّ. وإذا رجعنا إلى كتب التفسير والأصول والفقه واللغة نجد أنّ التعامل مع مصطلح "مصدر" بالدَّلالة نفسها التي بَيَّناها؛ حتى عند علماء الكلام حال تصنيفهم للعقل أنّه من مصادر المعرفة وإيرادهم مصطلح "المعرفة العقليّة" على أنه مصدر، يريدون مصدراً تابعاً؛ أي التراكم المعرفيّ بالحافظة.

٢- تصنيف المصادر:

المعرفة في النظام المعرفيّ القرآنيّ لها مصدران متكاملان هما: الوحي (الآيات المتلوّة، وسنة الأنبياء، والرؤيا، والإلهام، والحدس)، والكون (الآيات المخلوقة، الآفاق، الأنفس، أخبار التاريخ والحاضر). وطرائق اكتساب المعرفة من كليهما هي العقل والإحساس، والعقل (قوّة إدراكيّة)، يتوصّل بها إلى المعرفة والعلم من الوحي والكون. ويمثّل الوحي دائرة المعارف الإسلاميّة، أمّا الكون فإنّه يمثّل المعجم والمختبر الذي يحتوي على مفردات هذه الدائرة، وقد أمر الله بالقراءة، وجعل التكليف مناطاً بوجود العقل وبلوغه مرحلة التمييز وتعقّل الخطاب. ولم يعيّن المقروء ليشمل كل ما يقدر عليه الإنسان؛ مع التزام المنهج الربانيّ في توجيه ما يقرؤه، فكان له الكتاب المسطور (الوحي)، والكتاب المنظور (الكون). قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالرؤية هنا رؤية قلبيّة؛ أي عمليّة إدراكيّة، والآيات لُغَةً هي العلامات الدالّة الواضحة؛ أي هي حقيقة الأشياء، والأشياء هنا هي "الآفاق

والأنفس"، فعلامات الآفاق والأنفس آياتها وحقائقها؛ وهي المعلومات المأخوذة منها، و"التبيّن" هو حصول العلم بالنفس؛ بوصول العلم إلى محلّه القلب، وبلغ العلم هنا درجة اليقين "الحقّ"؛ وهو أعلى من الحقيقة؛ لكونه دوماً الخير والصلاح والصدق.

فمصدر الحق أو مصدر بيانه هو آيات الآفاق والأنفس؛ أي العلم النابع من الكون، فالكون مصدر للمعرفة والعلم الذي يحاجج الله تعالى به عباده. وتتّصل الحواس بجهة واحدة؛ وهي الكون، وتنقل ما تتلقاه إلى العقل ليتبيّن ويستوعب فيميّز الحقّ من الباطل، و"الآيات" هنا هي العلامات الأوضح في الدَّلالة؛ فهي المعلوم الخالي من اللبس والإشكال.

فالوحي خطاب إلهيّ لقوانين العقل وبدهيّاته المفطورة عليها، ولا تصادمه علومه النظريّة. فإن عجز عن فهم حجيّة الوحي، أحيل إلى مرحلة ما قبل البدهيّ وهي الإحساس. ويمثّل الكونُ والوحيُ مصدرين أصليّين للمعرفة، ثمّ يليهما مصادر تابعة هي ناتجة عنهما، مثل (التراكم المعرفيّ)؛ إمّا الداخليّ بالذاكرة، أو الخارجيّ (العلوم المدوّنة والأخبار المتناقلة). فيكون الأول بالتذكّر، والثاني بالتلقين إمّا بالقراءة أو السماع، وأصلهما المصدر الأصليّ.

ويمكن دمج المصادر التابعة ضمن عالم الأنفس، غير أنّ الفصل يكون أجود في بيان الوسائل والطرائق والمصادر؛ إذ إنّ الأمر بالنظر إلى الأنفس هو من جهة دلالتها المعرفيّة والعلميّة بكونها مصدراً؛ أي موضوعاً للدراسة والتأمّل. وفي المصادر التابعة حصيلة معرفيّة متراكمة من المصادر الأصليّة،

لكن لا وجود لها بالمصدرين الأساسين بصورتها بالمصدر التابع، فمن الأمور الناتجة في الذهن ما لا وجود له بالأنفس ولا بالآفاق، كما لا وجود لها بالوحي، وهنا الأنفس بمفهوم الجسم والروح. فالعقل والنفس مشتركان في الدَّلالة على شيء واحد هو اللطيفة المدركة بالإنسان، فيرجع بذلك المصدر العقليّ إلى مصدر الأنفس؛ أي الكون. فقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ فالله هو العالم، والمعلوم هو ما في الأنفس من اعتقادات وإرادات؛ أي من إدراكات، فكانت النفس هي الموضوع الذي أخذ منه العلم؛ أي هي مصدر العلم الذي يعلمه الله تعالى، ويحاكم به الناس، وهذا في الآية تحذير بأنّ الله يعلم كما نعلم نحن ما بأنفسنا. وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ قد يكون ما يحصل من علوم داخل النفس، وهي القوانين العقليّة والمبادئ الأوليّة الفطريّة، وهي بذلك حجّة على من وقعت في نفسه بعد تراكم المعرفة به، فعلمه بالدليل، وفهمه لوجه الاستدلال؛ آية بيّنة، مبيّنة له أنّ ما جاء من عند الله حقّ، فيكون ذلك حجّة عليه، وقد يكون الجهل عذراً؛ فكان العلم لكي لا يكون للناس حجّة على الله، فالمصدر المعرفيّ الذي سيرى فيه الإنسان آيات الله هو المعارف الكامنة فيه.

ثانياً: الكون (المخلوقات) مصدراً للمعرفة في القرآن الكريم

يمثّل الكون الموضوع الأكثر ذكراً في القرآن، بالإرشاد إليه لتلقي المعرفة، وإعمال العمليّات الإدراكيّة فيه؛ ليستقي منه ما يهتدي به لصالح المعاش وخير المعاد.

١ - مفهوم الكون مصدراً للمعرفة:

الكون المشهود يجمع بين قسمين، اصطلح سماهما القرآن الكريم بالآفاق والأنفس؛ إذ هما العالم المشاهد الواقع تحت الإحساس، وتصل إليه الحواس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالكون عالم الشهادة أي هو كل أمر نستطيع أن نتوصّل إلى شهوده بالوسائل الحسيّة، أو هو الوجود الماديّ الواقع تحت الإدراك الحسيّ للإنسان، ومن خصائصه أنّه معقول الذات وقابل للوجود الإنسانيّ إذا توفّرت أسباب الشهود، وكذلك الأمور التي لا نصل إليها بالحسّ من عالم الجنّ والشياطين والجنّة والنار والملائكة هي كذلك أمور محسوسة، لكن لا قدرة للحواس على الوصول إليها الآن، لوجود المانع والحاجز. لكنّنا نصل إليها في الآخرة، بل حتى في الدنيا فقد رأى الأنبياء الملائكة مثلاً، والاصطلاح القرآنيّ البديل لمصطلح عالم المعقولات والمحسوسات هو "الغيب والشهادة"، فما غاب عن الحواس في العالم الخارجيّ هو غيبيّ، وما وصلت إليه هو مشهود، وهذا هو الكون بشقيه الآفاق والأنفس.

والعلاقة بين المجالين بارزة من حيث كثرة جمعهما في القرآن الكريم كما في ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ٥١]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، والأمثلة كثيرة، فمجال الإدارك؛ أي المصدر الذي تستقى منه الآيات، والعلامات والمعارف والمعلومات، هو الكون

بصوره الآفاقيّة والنفسيّة. والعلم في أحد الأقوال في اشتقاقاته أنّه من العلامة؛ وهي أحد معاني "آية"، التي يبيّنها الله تعالىٰ لعباده كي يعقلوا ويتفكّروا ليؤمنوا بأنّه الله لا إله إلا هو. وقد وردت الآية في القرآن علىٰ معنيين لا ثالث لهما، الآيات المتلوّة وهي كلام الله وقرآنه ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، والآيات المخلوقة؛ وهي الكون بما فيه، وهي الأكثر، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: ٦٥]. فالأمر الذي يتعقّل ويتفكّر ويسمع ويتذكر ويؤمن به هو الآيات؛ التي كان تفصيلها سابق للسياق؛ وكلّها من الكون بقسميه الآفاقيّ والنفسيّ.

ولمّا كانت السنن الإلهية هي فعل الله تعالىٰ في الكون والإنسان والحياة، فإنّ القرآن تناولها بإفاضة، وتحدّث عن الحياة والموت وحكمة الله في ذلك، وتحدّث عن سنّته في خلق الإنسان ومعاشه، وغير ذلك كثير من مظاهر سنن الله في الكون والإنسان والحياة. قال تعالىٰ: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٣٧]؛ هي الآيات المعجزة التي تطالعنا في صفحة الكون والحياة، والله وعد بأنّه سيبيّن لنا آيات وهي مستقبليّة بالنسبة إلىٰ كلّ من لم يرها بعد، وهي علىٰ نوعين: أسرار الآفاق، وأسرار الإنسان روحاً وجسداً، فالحقّ المبيّن بالآيات الآفاقيّة والنفسيّة هو صدق القرآن وما حوىٰ.

وعمليّة التفكر حركية حيث تقتضي التنقل بين المصدر والقوّة المدركة؛ لاستنباط العلم، وذاك شرط قيام العمران والتمكين في الأرض، فأسماؤها تدلّ علىٰ أصناف أربعة في النظام المعرفيّ في القرآن، وهي: الظواهر الإنسانيّة

النفسيّة والاجتماعيّة، والظواهر الكونية الآفاقية، والأقوام والأمم، والبهائم والحشرات والنبات.

٢- الآفاق:

الآفاق آحاده أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض، وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها. وفي تفسيرها قولان: الأول: أنّ المراد الآيات الفلكيّة والكوكبيّة، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإظلال والظلمات، وعالم العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة، وقد أكثر الله منها في القرآن، والله يطلعهم على تلك العجائب زماناً بعد زمان. والقول الثاني: إنّها الفتوحات. وفي فتح القدير: قال ابن زيد ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣] آيات السماء.. وقال قتادة والضحاك: "وقائع الله في الأمم.. وقال عطاء: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ يعني أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق، والنبات والأشجار، والجبال والبحار وغير ذلك. وقال ابن عباس: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ منازل الأمم الخالية، وقال قتادة: وقائع الله في الأمم الخالية.

فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان هي طريقة عقليّة صحيحة وشرعية دلّ القرآن عليها، وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، فإنّ نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً من نطفة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول؛ بل يعلمه الناس، سواء أخبر به أم لم يخبر، والآيات نوعان في دلالة الأنفس ودلالة الآفاق.

فالآيات علامات يحصل منها بيان في القلب؛ أي هي حقائق الأشياء، وحصول البيان في النفس المدركة (العقل)؛ هو حصولٌ للعلم، فالآية دليل على مدلول هو الكون، والمدلول هو مصدر الدليل، فهو مصدر حصول البيان في العقل؛ أي حصول العلم، فالمتأمّل في آيات الآفاق في القرآن؛ يرى فيها الختم ببيان الحكمة من الخلق، والتنبيه لتلك المخلوقات، وتارّة أخرى لا تذكر الحكمة من ذلك، وذاك لأمور منها: التشويق لمتابعة القراءة، ومنها قياس الحكم على غيره، ومنها إثارة الذهن لاكتشاف الحكمة والربط بين الأحداث ومسبّباتها، ومنها للابتلاء والاختبار في قوّة التمييز واليقين والإيمان، فمن ينيب يكون أكثر إبصاراً للعلل والحكم. قال تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢]، وفيه قولان: الأول: أنّه تعالى بين الآيات الدالّة على إلهيته وعلمه وحكمته. والثاني: أنّ الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان: أحدهما: الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب.. والثاني: الموجودات الحادثة الصغيرة، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والهرم بعد الصحة، وكون الأحمق في أهنأ العيش؛ والعاقل الذكي في أشدّ الأحوال.. فيفّصل الآيات إشارة إلى أنّه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفضيل. ثم قال بعدها في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد: ٣].

والكون مصدر لعلاقتنا بربوبيّة الله، والوحي مصدر علاقتنا بألوهيّته؛ أي أنّنا نستدلّ بالكون على وجود الخالق القادر الربّ، ونستدلّ بالوحي على كيفيّة وصحة عبادتنا له، فالكون مصدر علم لتوحيد أفعال الربّ، والوحي مصدر علم لتوحيد أفعالنا نحو الإله. وإن العلم الحاصل من ميدان الآفاق،

هو معلومات ومعارف متناقلة؛ عبر الألسن أو الكتب أو الصور اصطلح عليها بالأخبار، ولا تدرك إلا بالسمع والبصر. فاتصال الإنسان بالآفاق لا يكون إلا بالحواس، وهي الناقلة لما في العالم الخارجيّ إلى العقل؛ العالم الداخليّ لكل فرد، وما تنقله الحواس أمران: إحساس وإخبار. فالإحساس هو المعلومات التي يباشرها كل فرد بنفسه نحو الأشياء؛ لإدراك ماهيتها أو حقائقها أو صورها، بعدها تخزّن هذه داخل الحافظة؛ بعد أن تشكّل في الذهن بعض القوانين والمبادئ والبدهيّات الضروريّة والمسلمات.

فالنتيجة أن الطرق طريقان لا ثلاثاً، والمصادر مصدر واحد من عالم الشهادة أصليّ، ومصدر تابع، وهو نوعان: داخليّ (عقل كل فرد)، وخارجيّ (عقول كل الأفراد)، والنوعان تراكم معرفيّ عن المصدر الأصليّ (الكون).

٣- الأنفس:

جاء ذكرها بعد الحديث عن الآفاق، وهي جزء من الكون بكونها مصدراً للمعرفة، فعالم الأنفس يمثل الشق الآخر من عالم الشهادة؛ بوصفه يتناول الإنسان روحاً وجسداً، بل لا تطلق النفس لغةً إلا إذا خالطت الروح الجسد، وإن انفصلت سمّيت روحاً. وجُعِلت النفس هنا مصدراً للعلم، قال تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي إنّ آياته وأدلّته على صدق القرآن، وأنّه مصدر هداية؛ ستكون موجودة في الأنفس، والأنفس هي نفسها دليل ومصدر هداية، قال عنها: "حتى يتبيّن لهم"؛ فالبيان سيحصل في الأنفس، فيحتمل -والله أعلم- أن يكون حصول البيان في النفوس-أي حصول العلم- هو نفسه من آيات الله تعالى في الأنفس، بل هو أعظم؛ لوجهين: الأول أنّ وقوع

العلم في النفس آية وحجة على من علم، فوَعْد الله بالبيان أجلى؛ بحصول " ملكة العلم " داخل النفس، والثاني أنّ في قوله تعالى "في الآفاق" أي ما تحوي؛ ومما تحويه آثار البشر وعمرانهم وهم بذواتهم، فتصبح الأنفس (البشر) من الآفاق كائنات حيّة نامية؛ وأفعالاً مبدعة للخير ومبتدعة للش، وقد وردت النفس في القرآن، ونسب لها كل أفعال الإنسان وطباعه وأحواله وإدراكاته، غير أنّ بحثنا ليس في النفس وما فيها؛ إنّما في كونها مصدراً للعلم، لذا سنقتصر على إيراد الآيات التي أحيل العقل فيه للتأمّل في النفس تصريحاً، وإن كان كل ذكر للنفس فإنّما تذكير وتنبيه لما فيها من آيات وقدرات، من ذلك ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: ١٤]. وقال: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]؛ التفكير لم يرد إلا في الكون وآياته؛ من سموات وأراضين وما فيهما، فكان أحد مصادر التفكر التي يجول فيها الإدراك (الأنفس)، والآخر (الآفاق). فأحيل الفكر في القرآن كلّه إلى المخلوقات من آفاق وأنفس، وأحياناً الوحي. ولم يحل إلى غير هذا قط، فكان لزاماً أنّها مصادر الفكر؛ أي هي التي يتفكّر فيها ويفرك مسائلها ليعقلها.

كما نبّه إلى النظر إلى خلق الإنسان، وأطوار تطوره، والنعم الممنوحة له، وقواه التي استطاع بها السير والإعمار في الأرض، وذكر أحواله وسلوكاته؛ من إيمان وكفر وجحود وإقرار وجدال، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

وورد لفظ الأنفس وحدهُ مائتين وخمس وتسعين مرة بصيغه من غير المواضع التي يتكلم فيها عن خلق الإنسان وصفاتهم وعددها ثلاثاً وثمانين مرة، وكذلك ما قص الله تعالىٰ عن أحوال الأمم، وإنزال البركات والعقوبات عليهم، فتاريخ الإنسان هو أفعاله وأفكاره؛ وما قدم من حضارة وعمران وعلوم. فهنا تكون أحوال الأنفس وأفعالها وعلومها مصدراً للمعرفة خاضعاً لعمليّة الإدراك. ومن تتبعنا للمصادر حصل أنّ المصدر يفارق الميدان، فالمصدر هو ما يستقىٰ منه العلم، أمّا الميدان فهو مجال العلم؛ أي مجال الحواس والعقل الذي يمكنها العمل فيه. وأكثر توضيحاً، المصدر مصدران: خالق ومخلوق، والميدان ميدانان: ميدان الشهادة، وميدان الغيب، والميدان هنا هو (المجال) القابل للإدراك. فالمخلوق مصدر من نوعين آفاق وأنفس، والأنفس علوم وأفعال. ويشمل المخلوق ميدان الشهادة والغيب، فما تصل إليه الحواس هو ميدان الشهادة، وهو الموجود في العالم الخارجيّ المحسوس، وما غاب عن الحواس هو ميدان الغيب؛ فلا تصل إليه الحواس ولكنّه محسوس، وما لا تصل الحواس إلىٰ (أصله)؛ لا يمكن للعقل إدراكه لأنّها منفذه الوحيد للعلم والقياس والتعميم. وتصنيف المصادر هو تصنيف للعلوم، لأنّ العلوم تستقىٰ من مصادرها، ولها اعتبارات في تقسيمها، وأحد هذه الاعتبارات مصادرها أو طرائقها أو وسائلها. وأكثر التصانيف اشتهاراً واعترافاً من العلماء؛ هو تصنيفها إلىٰ علوم عقلية وعلوم نقلية: فالعلوم العقليّة: ما تقتضي بها غريزة العقل، ولا توجد بتقليد أو سماع. والعلوم النقلية أو الدينيّة أو الشرعيّة أو الوحييّة أو السمعيّة، وهي مأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء، بتعلم الكتاب وفهم معانيها

بعد السماع. فيقينها بثبات اليقين في صدق نسبتها إلى الأصل؛ وهو الله تعالى، ثمّ تصبح مصدراً للمعرفة؛ أي أصلاً ومعياراً لعلم، وهو المستفاد منها، فالتقليد في نقلها؛ أمّا فهمها فهو يقسمها إلى عقليّة وضروريّة ومكتسبة.

فرجع كل ذلك إلى أنّ مصدر العلم هو الكون المخلوق، ومجاله وهو عالم الشهادة. فالعقل في أحد معانيه العلم بالأمور الدنيويّة والأخرويّة، والحقائق العقليّة، وهذه الأمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكليّة الضروريّة من خواصّ العقل، إذ يحكم الإنسان بأنّ الشخص الواحد لا يتصوّر أن يكون في مكانين في حالة واحدة، هذا حكم منه على كل شخص؛ ومعلوم أنّه لم يدرك بواسطة الحس إلا بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه بالحسّ، وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروريّ فهو في سائر النظريات أظهر.

وبعد، فإن النفس تنفعل وتتفاعل، وتعتمد النفس في هذه الحالة وفي جميع صورها على وظائف الجسم الحيّ ومن هذه الوظائف"؛ وظائف الحواس، فتدرك الحواس بالالتجاء إلى الوقائع المباشرة، ولكن لا مندوحة عن الدليل وإقامة البرهان.

ثالثاً: الله تعالى (الخالق) مصدراً للمعرفة في القرآن الكريم

الكون أهم المصادر التي يأخذ الإنسان المعارف منها؛ فيستدلّ منه وبه على خالقه؛ كي يُقرّ بربوبيّة خالق الكون، فيكون ذلك إلزاماً بألوهيّته سبحانه. فإن كان الكون مصدر الإقرار بالربوبيّة، فما مصدر الإلزام

بالألوهيّة؟ أي إذا آمن الناس بأنّ لهذا الكون خالقاً؛ من تفكّرهم في الكون ذاته، فأنّى لهم معرفة ما يريده ويرضاه الله منهم؟ ومعرفة ما لا يرضاه؟ وما هو مصدر الإلزام بالألوهيّة؟ أي إذا أقرّ الناس بأنّ الله هو الخالق الرازق القادر السيّد الملك الربّ لهذا الكون من تفكّرهم في الكون ذاته، فكيف يعلمون طريقة عبادة الله؟ وكيف يدركون ما يرضي ربهم وخالقهم عليهم؟ وما يُحِلّ غضبه وعقابه عليهم؛ ولا يرضاه منهم؟

لا بدّ من مصدر آخر يكون ممن تُوجّه له العبادة والتوحيد؛ وهو الله تعالى، ويُبلّغ الله هذا العلم بكلامه؛ وهو الوحي عبر ملائكته ورسله وأنبياءه، فلا تصل العقول إلى عالم الغيب، وعلى رأسه ذات الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فكان لا بدّ من واسطة إلى مصدر العلم (الله تعالى)؛ وهي الرسل من أنبياء وملائكة؛ لنقل ما هو غائب عن الحواس إلى مجال الشهادة، كيما تصل إليه فيدركه العقل بعد ذاك ويتدبّره. فإن النظر في آيات الله؛ والاستدلال بها على وجوده سبحانه، هو الذي جاء به القرآن وبينته الرسل، فيستدلّ الله في كتابه كثيراً بخلقه السموات والأرض، وبما يحدثه في العالم من السحاب والمطر، والنبات والحيوان، وحركة الكواكب، واختلاف الليل والنهار؛ باعتبارها آية عليه، وكل شيء له فيه آية تدلّ على أنّه الواحد.. وأبرز دليل على كون المخلوقات آية دالّة عليه هو افتقارها إليه.

١ - كيف نفهم أن الخالق مصدر المعرفة:

والمعرفة الإنسانيّة الحاصلة من المخلوقات قابلة للإدراك من كلّ العقول، مع تفاوت درجات الإدراك في ما حول الإنسان، "والتي يظهر فيها

انفعال الإنسان بما حوله في عالم الشهادة، وما لهذا العالم من تأثير في تشكيل المعرفة لدى الإنسان، والإنسان في هذين النوعين من المعرفة -الحسيّة والعقليّة- يتعامل مع الكون؛ مما هو داخل مجال حواسه وعقله، وكلّه ثقة بهذين الطريقين، بما رزقه الله تعالى من ضمان بأن جعلهما طريقين للمعرفة، وميّزه بالفكر حصيلة للفعل الإيجابيّ للحواس والعقل؛ في تعامله مع المحسوسات والمعقولات، وربما هيّأ له ميادين لهذا الفكر، ومن ثمّ فإنّ المعرفة لا تنحصر في معرفة عالم الشهادة؛ بما أوتي الإنسان فيها من طرائق للمعرفة من حسّ وعقل، وإنّما تمتدّ هذه المعرفة لتضم إلى عالم الغيب؛ والذي يطلبه العقل الإنساني ويسلّم بوجود، ولكنّ هذا العقل بما أوتي من فعاليّة من خلال طبيعته وتكوينه، ولا يستطيع من خلال تعامله في عالم الشهادة أن يقدم شيئاً تفصيلياً للمعرفة في عالم الغيب".

ولا بدّ للطريق إلى الغيب من مبدأ ومنتهى، ولا بدّ أن يكون مبدؤه غيبياً، ولا بدّ أن يكون منتهاه مشهوداً ليتمّ التواصل معه، فكان المبدأ ربانياً؛ وهو كلام الله تعالى -صفته الذاتيّة الثبوتيّة- يصل إلى المرسل إليه؛ عبر الملائكة (عالم الغيب)، وتأخذ الأنبياء عن الملائكة؛ بعد أن يصطفيها الله من بين البشر؛ بخاصّية الاتصال بعالم الغيب (النبوّة)، وترتقي حواس وعقول الأنبياء لذلك؛ وهم من (عالم الشهادة)، ثمّ ينقل الأنبياء تلك العلوم (الغيبيّة)، إلى عقول الناس عبر (السماع)؛ أي الحواس وهذا من (الشهادة). وكون الطريق هذا ثابتاً أصلاً يحتاج إلى أدلّة؛ وكون (الرسول) متّصلاً بعالم الغيب يحتاج إلى أدلّة؛ وكون (علم الرسول) (علماً غيبياً) متّصلاً بعالم الغيب

يحتاج إلى أدلّة، والعصمة من الخطأ؛ أي (اليقين) في هذا المصدر يحتاج إلى أدلّة؛ والأخذ من المصدر الثاني بعد الكون (المخلوق)، واستقاء العلم منه لا يكون إلا عبر كلام الله تعالى الذي يبيّن ويهدي ويمنح العلم اللازم لعباده، كي يحققوا الغاية من خلق (الكون).

والوحي قسمان: عام؛ وهو الكلام العام فيشمل الأنواع الثلاثة، وخاص وهو الإلقاء في الروع. فالعام "يقال للكلمة الإلهيّة التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وذلك أضرب"، والخاص أحد أضرب العام: إلقاء في الروع، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]؛ " ويكون على أحد هذه الأوجه: إمّا أن يكلّمه الله وحياً بأن يلقي الوحي في قلبه من غير إرسال ملك ولا مخاطبته منه. أو أن يكلّمه لكن ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أو يكلّمه الله بواسطة الرسول الملكيّ، كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن ربه لا بمجرد هواه." بعد الآية قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وهو هذا القرآن.

٢- مفهوم الوحي:

أ- المعنى اللغويّ للوحي:

الوحي يدلّ على معان منها: الإشارة والإيماء والكتابة والسرعة والصوت، والإلقاء في الروع إلهاماً؛ وبسرعة وبشدّة، ليبقى أثره في النفس. وأصله: إعلام في خفاء، وله صور عدّة، وتتمّ كلّها في خفاء، فهو الإشارة السريعة. ولتضمنه السرعة قيل أمرٌ وحيٌ للكلام على سبيل الرمز.

ب- المعنى الاصطلاحيّ للوحي:

الوحي في الاصطلاح معناه أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة خفيّة غير معتادة للبشر، ويكون على أنواع شتى، فمنه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، ومنه ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجهٍ من العلم الضروريّ لا يستطيع له دفعاً، ولا يجد فيه شكاً، ومنه ما يكون مناماً صادقاً كفلق الصبح في تبلّجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، ووحي القرآن كلّه من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليّ.

ت- المعنى الشرعيّ (القرآنيّ):

جاء لفظ الوحي وما تصرف منه في القرآن في ثمانية وسبعين موضعاً. ونجد بالاستقراء استعمال لفظ الوحي دلالة على الإعلام الخفيّ السريع. والوحي كاسم معناه الكتاب، ومصدره "وحى"، وفعل " أوحى" مصدر "إيحاء"، غير أنّ للوحي وجوهاً دلاليّة؛ يتطلّبها السياق في القرآن على نحو مخصوص. فالنبوّة المأخوذة من النبأ؛ بمعنى الخبر، وهو وصول خبر الله تعالى بطريق الوحي؛ إلى من اختاره من عباده لتلقي ذلك. وللوحي سبعة أوجه، وهي: الإرسال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ [النساء: ١٦٣]، والإشارة: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: ١١]، والإلهام: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، والأمر: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ

رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٤، ٥]. والكلام المباشر ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]. والإعلام: بالإلقاء في الروع؛ وهو خاص بالأنبياء ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]. والوسوسة: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. فمن معاني الوحي العامة أنّه الإعلام الخفيّ السريع؛ الخاصّ بمن يوجّه إليه، بحيث يخفى عن غيره، ومنه الإلهام الغريزيّ كالوحي إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة؛ كالوحي إلى أم موسى، ومنه وحي الناس لبعضهم البعض، ووحي الشياطين ويسمّى بالوسوسة. والرؤيا والحدس والإلهام والتحديث والفراسة كلها صور للوحي، تتفاوت حسب وقوعها، غير أنّ النبوّة خاصة بالوحي الخاصّ بأضربه الثلاثة. وقد وردت كلمة "الوحي" في ستة مواضع، كلّها في العهد المكي، وهذا يبيّن أثر هذه القضيّة، واعتبارها أساس ما يدور عليه العهد المكيّ، من صراع في قضايا يتميّز بها هذا الدين الجديد..

٣- ضرورة الوحي:

إذا قلنا بضرورة الوحي، فيعني ضرورة وجود صلة بين الشهادة والغيب، وضرورة معرفتنا لكلام الخالق، وذاك متمثّل في النبوّة والرسالة والوحي والشرع والكتب. فالوحي قضيّة رئيسة لتصنيف الناس إلى مسلم ومؤمن، وكافر ومشرك ومنافق. وما يتعلّق بهذا التصنيف من معاملات، وتعامل بين الناس فيما بينهم وبين كل صنف وبين خالقهم. وهو قضيّة مهمّة لتوجيه المنهج، ومعرفة الطريق الغيبيّ.

والخلاف بين المشركين في كلّ العصور؛ لم يكن في مَن الخالق، أو عظمته وصفاته، بل في ضرورة اتخاذ وحيه مصدراً للعلم، ومنهاجاً للحياة، بالتحاكم إليه في كلّ نواحي الحياة؛ صغيرها وكبيرها؛ أي هل هذا مصدر للحق أم معه غيره، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤]؛ فحصل في جميع العصور أنّ الإنسان اتخذ مصدرين للعلم والمعرفة؛ الأول ماديّ (الكون)؛ والثاني روحانيّ له صور عدّة؛ من روحانيّات الصالحين إلى روحانيّة الكواكب، واتخذ للروحانيّ الغيبي أشكالاً، وهي رموز مشهودة كي يكون المصدر (محسوساً) من أصنام وأوثان وأرباب وآلهة، وهذا دليل تاريخيّ وفطريّ، بأنّه لم يخلُ عصر لإنسان من اتخاذ آلهة بشتى أنواع المعبودات، وهذا لحاجته النفسية الفطرية، وهي غريزة فيه، يحتاج إلى إشباعها وتلبية حاجاتها، ولو في أبسط صورها بأن يعبد هواه؛ ويتّخذه إلهاً هو في ذاته، وهؤلاء هم من جعلوا العقول مستغنية عن علوم الوحي ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ۖ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقد كان الصراع ومحلّ النزاع عبر العصور في الحاجة إلى الوحي؛ بكونه مصدراً للعلم (الهداية إلى الحقّ)، وكونه الوحيد الهادي إلى الحقّ؛ أي هو مصدر الغيب وحده، ثمّ انتقل الخلاف إلى إثبات عصمة النبي، وربانيّة القرآن؛ أي أنّه وحي من الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام، وهذه مرحلة بعد الاعتراف بضرورة الوحي؛ بكونه مصدراً وحيداً للمعرفة والعلم ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ [يونس: ٣٧]. فإن أقرّ بذلك؛ كان لا بدّ أن يقام دليل على انفراد الخالق بكونه مصدراً لذلك العلم وحده، والدليل مبني على دليل الافتقار له أصلاً؛ في الخلق لأدوات المعرفة وقواها؛ وخلق مصدر المعرفة المادي (الكون)، مع يقين الإنسان أنّ قدراته لا تصل إلى المصدر (الخالق)؛ يلزمه بالإقرار بطريق آخر غير الحواس؛ لكنّه قابل للحسّ؛ وهو الوحي، ولا يدرك الوحي إلا بالنبوّة، وهي ما يمكن للحواس أن تصل إليه، فالنبوّة قوّة إدراكيّة تمثّل طوراً فوق العقل، فهي واسطة بين ما هو إلهيّ وما هو بشريّ، وهي الناقلة للكلام الإلهيّ والعلم الربانيّ من مصدره (الخالق) إلى القوّة الإدراكيّة البشريّة (المخلوقة).

واعتماد النبوّة طريقاً للمصدر الربانيّ، هو كون الطريق الأول من الحواس لا يمكنه الوصول إلى ذلك المصدر إلا بواسطة وهي (النبوّة)، وقد كان الاستدلال على صحّة ويقينيّة المصدر الربانيّ، ووجود الوحي والنبوّة في القرآن دائماً من ميدان الشهادة، ومجاليّ الآفاق والأنفس، وبدهيّ ومسلّم أنّ العقل لا يملك نواقل يتّصل بها بعالم الغيب، ولا هو قادر في الخوض في ذلك المجال، فلزمه نواقل غير الحواس، لكن تصل إليها الحواس، وهي (الخبر، والسماع، والسمع، والنقل). "فالنبوّة إحدى الضروريّات التي تؤيّدها العقول، ويثبتها الواقع الاستقرائيّ للمجتمعات الإنسانيّة، وذلك من خلال إجماع البشريّة على عظمة هؤلاء الأنبياء، وما تميّزت به دعوتهم من التوحيد، وتوضيح العلاقة بين الخالق والمخلوق."

من هنا فإن الغاية من الوحي والنبوّة في نصوص كثيرة، إمّا مفصّلة أو مجملة: وهي البشارة والنذارة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]. وإخراج الناس من ظلمات الجهل والغواية والضلال إلى نور الهداية ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١]. والفصل في الخلاف، ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل: ٦٤]؛ وتأتي أهمية الوحي بوجه عام لبيان علاقة العباد بربّهم، وكيف ويختصّونه بالعبادة والطاعة كما يريد، وكيف يتعاملون فيما بينهم ومع غيرهم.

٤ - طريق الوحي:

مما هو معلوم أن الوحي لا ينزل إلا على نبي، فالنبوّة هي الطريق إلى معرفة الوحي الصادر عن الله تعالى، وذلك بأن يصطفي الله من يشاء من عباده نبياً ينزّل إليه وحيه ويبلّغه كلامه، ليكون واسطة بينه وبين خلقه في التبليغ. وهي ربانيّة واختيار إلهيّ. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٧٨]، فثبوت النبوّة قائم بدليل التواتر في كل العصور من لدن آدم عليه السلام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]؛ وقد خصّ الله تعالى الأنبياء بمعجزات موجّهة لهم هم أولاً؛ كي يوقنوا أنّهم أنبياء، وأنّ الوحي ينزّل عليهم دون غيرهم. فإذا أيقنوا ذلك جهروا بنبوّتهم وبلّغوا ما أمروا، وأعلنوا أنّ لهم اتصالاً بالوحي. فتكون المعجزات دليلاً للنبيّ، ثمّ دليلاً لغيره، بأنّ ما يجد في نفسه من علم إنّما هو وحي ألقي إليه، قال تعالى عن قصة موسى: ﴿وَمَا تِلۡكَ

بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٧-٢٣]؛ فالآيات المعجزات كانت موجّهة له هو ﴿لِنُرِيَكَ﴾؛ كي يتيقن من أنّه نبيّ، وأنّ الكلام الذي يسمعه هو كلام الله تعالىٰ. ثمّ قال عنه: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]؛ وهذا حصول العلم الضروريّ اليقينيّ؛ الذي لا يمكن للبشر الحصول عليه بقدراتهم، من اطلاع الغيب الماضي من غير دراسة، ولا خبر متواتر من الناس، ولا شهود لذلك الماضي.

ويمتاز النبيّ مع كونه بشراً، أنّه رجل عاقل مصطفىٰ مختار من الله تعالىٰ لإبلاغ الوحي، يتكلّم بلغة قومه، ويثبت نبوّته بمعجزات يقرّون بأنّها ليست من فعل البشر، لتكون دليلاً علىٰ نبوّته وعصمته، فهنا يثبت للطريق (النبيّ) المصدريّة، وعصمته (اليقين)، وصلته بالمصدر (الوحي)، وقدراته الإدراكيّة الخاصّة، التي هي فوق طور عقول البشر العاديّة (النبوّة).

والناس منقسمون بعد عرض النبي لما معه من الوحي وإعلانه بنبوّته، فمنهم من سمع بوجود الأنبياء وتواترهم؛ ومنهم من لم يسمع ولا يؤمن بوجود النبوّة، فهو بحاجة لدليلين علىٰ مرتبتين: الأولىٰ: إثبات إمكان النبوّة، ونزول الوحي، وضرورته وأهميّته. والثانية: إثبات أنّه نبيّ مبلّغ بالوحي من مصدره. وهذان القسمان أصناف؛ فمنهم المؤمن والكافر، والكافر منهم أهل الكتاب والمشرك والملحد والمنافق. ويُرسل النبي بآيتين؛ متلوة ومخلوقة،

فالأولى هي الوحي والكتاب والحكمة والفرقان والسلطان المبين، والثانية هي خوارق من إحياء الموتى، وشفاء من لا يبرأ أصل، وعلامات كثيرة لا يقدر عليها غيرهم لإذن الله تعالى لهم وحدهم، والاصطلاح على الآيات باسم "المعجزات".

٥- كيفية الوحي:

لا تعلم كيفيّة الوحي إلا بالنص الثابت عمّن أوحي إليه، وقد ورد لفظ الوحي ثماني وسبعين مرة؛ بتصاريفه في القرآن الكريم، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وعبّر عنه بالكتاب، والذكر، والفرقان، وأسماء الكتب، والآيات، والسور. وذكرت كيفيّات الوحي في القرآن الكريم مفصّلة في آيات عدّة، وذكرت مجتمعة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فالوحي قسيم التكليم العام، وفي قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ أمّا كيفيّات الوحي، فهي: الكيفيّة الأولى: الوحي الخاصّ، وهو إعلام في خفاء بإلقاء الكلام في الروح؛ أي يقذف العلم في قلب النبيّ؛ فيجده عن غير جهد، ولا نشاط فكريّ، بل يكون حصولاً ضروريّاً، ويشعر بأنّه طارئ بعد أن لم يكن، فيكون بيِّنةً له على أنّه يتلّقى من مصدر خارجيّ عن نفسه؛ وعن قدراته العقليّة. والكيفيّة الثانية: أن يكلّم الله تعالى النبيّ من وراء حجاب مباشرة من غير وساطة، ويسمع النبيّ كلام الله تعالى من غير أن يراه، قال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي

وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] والكيفيّة الثالثة: أو يرسل رسولاً كجبريل عليه السلام، فيوحى الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله، وهذه الصورة هي غالب ما أنزل من القرآن على النبيّ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٤، ٥].

٦- مجال النبوّة:

يختلف مجال النبوة عن مجال الشهادة، فالحواس تصل إلى ما هو في مجالها، ولا تصل إلى مجال الغيب، فالإيحاء غيبيّ وما يوحى به "الوحي" هو مشهود مسموع ومقروء، والوحي وسط بين مجال الغيب وما فيه؛ وبين مجال الشهادة، غير أنّ الموحى به ليس كل ما في مجال الغيب، بل جزء منه، فهو من عالم الغيب، ومتوجّه إلى عالم الشهادة، وغايته هداية الإنسان في الأرض لعبوديّة الله تعالى، ومجال المعرفة التي ينزل بها الوحي، إنّما هو نوعها ومجالها وعالم الشهادة وعالم الغيب. فالعقيدة والعبادة ليستا من نتاج العقول البشريّة، بل لا بدّ لها من نصوص وحي تبيّن أنّ هذا واجب وجائز وهذا ليس بجائز. ومجال الوحي يشمل العلاقات الاجتماعيّة والأسريّة بين الأفراد والمجتمعات، وعلاقة الراعي بالرعيّة، والدول مع بعضها، والشعوب مع غيرها.

فالوحي جاء ليشمل كلّ نواحي مجال الشهادة، فكان التكامل بين ما هو غيبيّ وما هو مشهود. فمن الغيب مجال أذن به الله تعالى؛ فأطلع عليه ملائكته فقط، وآخر أطلع عليه ملائكته ورسله فقط، وآخر اطّلع عليه الناس عبر الرسل، ومجال هو مفاتيح الغيب اختصّ بها تعالى ولا يطّلع عليها أحد. والوحي هو جزء من مجال الغيب في المصدر الإلهيّ، والكون بوصفه

مصدراً للمعرفة مجالاته مشهودة ومغيبة، ومجالات الغيب فيه نسبيّة وإضافيّة. أمّا الخالق بكونه مصدراً للمعرفة فمن مجالاته ما هو مشهود لملائكته، ومنها ما هو مشهود لرسله، ومنها ما يصل بالخبر للناس، والباقي إمّا غيب نسبيّ يطّلع عليه من يشاء وقت ما شاء، أو غيب مطلق لا يطّلع عليه أحد إلا هو. وروعي هذا التقسيم في الدنيا والآخرة، فكان الأولى تقسيم المصادر إلى مصدر مخلوق ومصدر خالق. ومن هنا ينبغي أن يعلم أنّ الوحي هو (موضوع مدرك)؛ أي يفهم ويدرس ويتدبّر فيه؛ ليستنبط منه، وأنّ أجل الأدلّة العقليّة وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول، فإنّ من الناس من يذهل عن هذا ويقدح في الدلائل العقليّة مطلقاً؛ لأنّه صار في ذهنه أنّها هي الكلام المبتدع.

٧- خصائص الوحي المعرفيّة

أ- ربانيّة المصدر:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، فالعلم الموحى به محفوظ من التحريف والتبديل، مؤتمن الطريق ليصل إلى الناس، وقد تكفّل الله تعالى بعصمة رسله، والنص الموحى مقدس، وهذا يعطي التأكيد على ربانيّة المصدر، ويكسّبه مركز الثقة ومحور اليقين؛ فيكون معياراً لغيره في الخطأ والصواب، والكذب والصدق، والحقّ والباطل، ولا تلغي هذه المصدريّة الفكر البشريّ، بل تكسبه ثقة ويقيناً أكثر في وضع معيار لتقويم أفكاره، وعقائده وما أخذه عن عالم الشهادة، وتمنحه دور الفهم المعلم المأخوذ من

المصدر الربانيّ وجعله قاعدة للتحاكم، لأنه يتلّقى موازينه ومقرّراته من هذا التصوّر ذاته، فهو الميزان الذي يرجع إليه بكافة ما يعني له من قيم وتصوّرات في مجرى حياته الواقعيّة.

ب- المجال الغيبيّ:

هناك جوانب لا يدركها العقل، ولا تصل إليها الحواس ويختصّ بنقلها الوحي، كالذات الإلهيّة وأسمائها وصفاتها وأفعالها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والمشيئة الإلهيّة ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ففي الآية إرشاد إلى توجيه الطاقة الفكريّة إلى المجالات القابلة للإدراك، كي تحقق العمارة والخلافة، والتمكين في الأرض، وتبتعد عمّا لا طاقة لها به، ولا طائل من وراء الخوض فيه، وفي هذا توفير للجهد وعدم إهدار للوقت في بحوث لا نهائية.

ت- الكمال والخلود:

المعرفة في الإسلام شاملة لكلّ ما اختلف فيه الذين أنزل عليهم الكتاب، فنزل الوحي بالحقّ الكامل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٦]، هداية للناس ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية: ٢٠]؛ ولا يكون الجواب عن هذا كاملاً إلا في الوحي ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وهداية الوحي خالدة، وشاملة لكلّ زمان ومكان؛ لأنّه من عند من يعلم ويحيط بكلّ شيء مكاناً وزماناً ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فهي شاملة لحقائق الألوهيّة والربوبيّة، والكون المخلوق،

ولحقائق الإنسان... وهي شاملة للكينونة الإنسانيّة بكلّ ما فيها، ولما وراء هذه الكينونة الإنسانيّة، وشاملة كذلك لمبدأ خلقه ومنتهاه، وشاملة لتفسير الوجود والمعرفة والقيم.

ث- التوازن والثبات:

العلم المتلقىٰ من الوحي صادر عن الله تعالىٰ في أصله، لذاك هو منزّه عن التأثّر بالعوارض، فأصوله ثابتة تساير المتغيّرات، وهذا الثبات يكسبه التوازن في إصدار الأحكام، والمصدريّة لليقين والحقّ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨] فهو معيار ثابت غير مضطرب ولا متغيّر، ولا يتقلّب ولا يرجع إلىٰ أهواء الناس؛ لأنّها لا قرار لها، وما لا مستقر له لا يُقَعد عليه. غير أنّ الأصول وهي العقائد ثابتة، لكن ما بعد نزول القرآن فكلّها أمّة واحدة تشملها شريعة وعقيدة واحدة؛ قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

ج- العمليّة والإيجابيّة:

يزوّد الوحي الإنسان بمعرفة موضوعيّة ذات حقائق بالوجود وصور الخلافة فيه والسير في الأرض، وكلّ علم انتفىٰ عنه العمل فهو مذموم في الوحي، فَسُوِّيَ بين وجود وسائل المعرفة وعدمها حال لم يبادر صاحبها إلىٰ

العمل بمقتضىٰ العلم الحاصل معه، قال تعالىٰ عمّن تركوا العمل بما علموا ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ فنفيهم للتعقّل والسماع هو نفي للاستجابة لمقتضىٰ العلم الحاصل من الوحي. ويرشد الوحي إلىٰ الكون بوصفه مصدراً للمعرفة، ويجعله محور استخلافٍ الوحي منهاجه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. فالمنهج الربانيّ يرفع الإنسان من حال الترف الفكريّ إلىٰ العمل الإيجابيّ القلبيّ، ليتحقّق التوازن والشموليّة المعرفيّة الإدراكيّة للإنسان، لأنّها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]؛ ومخالفة فطرة الله هي علّة كلّ اضطراب فكريّ أو نفسيّ أو عمليّ.

حـ- خصوصيّة الطريق:

فالوحي علم لآحاد الناس الذين اصطفاهم الله تعالىٰ وعصمهم وهيّأهم لحمل الرسالة، وليست للعامّة، والخصوصيّة هنا في الطريق والموضوع المدرك، أمّا الخطاب فهو للناس كافة، فهم لا يصلون إلىٰ مصدر الوحي، ولا ترتقي عقولهم إلىٰ إدراكه عن الملائكة، أو عن الله تعالىٰ لعلوه، لكن تصل إلىٰ الخطاب النبويّ؛ فتأخذ العقول العلم الموحىٰ به من سماع كلام الأنبياء؛ فالإيحاء خاصّ، والنبوّة خاصّة والتكليف عام ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

خـ- خصوصيّة الغاية:

القرآن الكريم ذكر مفهومين يوضحان أنّ الغاية الرئيسة: هي معرفة الله والتقرب إليه، ثم إقامة العدل والقسط في المجتمع البشري. فالوحي

أنزل ليُعَرف بالمصدر الإلهيّ، ويعرف بطرائق إقامة العدل، والقسط في كل شيء، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

صدر حديثاً

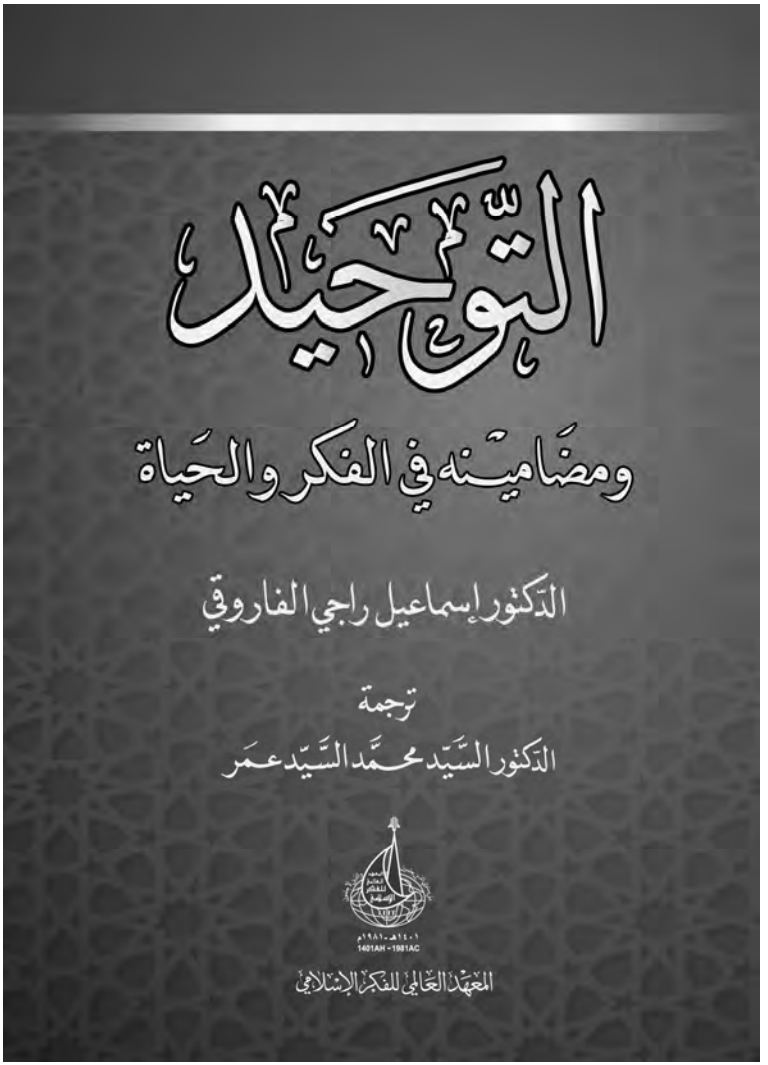
التوحيد
ومضامينه في الفكر والحياة
الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي
ترجمة
الدكتور السيد محمد السيد عمر
١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

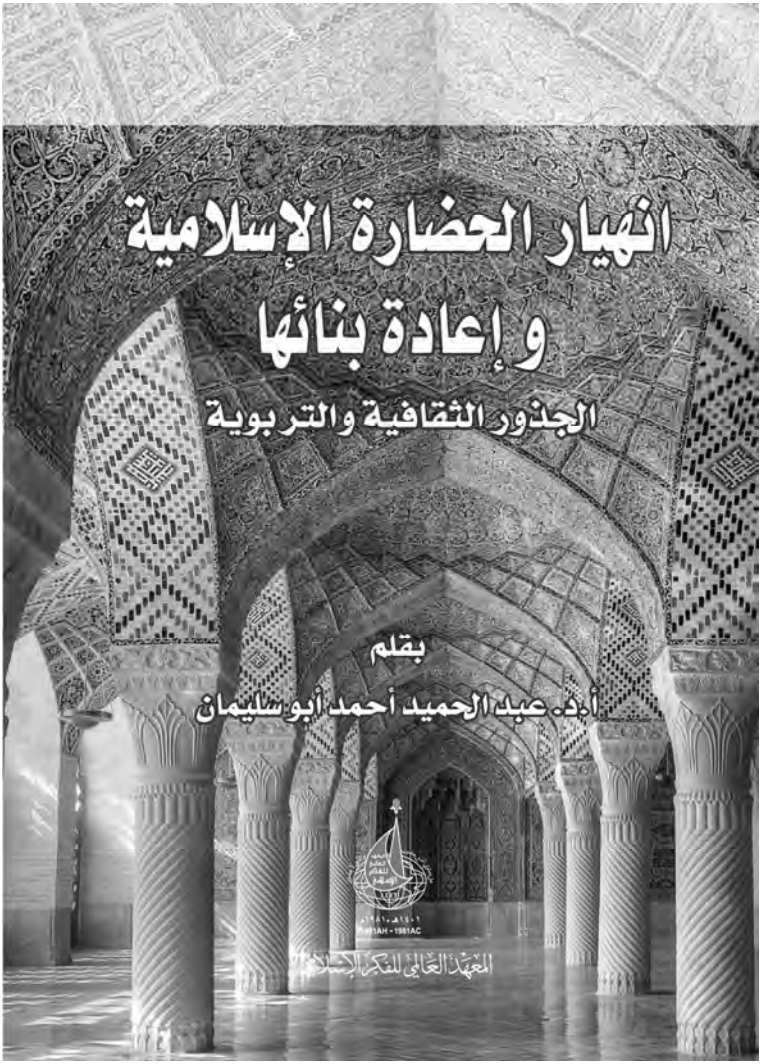
انهيار الحضارة الإسلامية
و إعادة بنائها
الجذور الثقافية والتربوية
بقلم
أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

إعادة اكتشاف الصلاة

مختصر إدارة الصلاة

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

مختصر
الإجتهاد والتجديد
في الفكر الإسلامي المعاصر
دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية
الاجتهاد والتجديد
في الفكر الإسلامي المعاصر
سعيد شبّار
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد
العالمي
للفكر
الإسلامي

هذا الكتاب

تحدد مكانة أية أمة من الأمم بالدائرة الحضارية التي تنتسب إليها، وبالنظام العام الذي ينبثق عن هذه الدائرة، ويتمثل في أنظمة فرعية أهمها نظام الاعتقاد، ونظام المعرفة، ونظام القيم. وقد ابتليت الأمة الإسلامية في هذا الزمان بصور من الفوضى الفكرية التي رافقها خلل في نظامها المعرفي، ظهر في اختلاط الدلالات الأساسية للألفاظ والمفاهيم المعرفية ومصادرها وأدواتها. فالمفهوم الواضح ينطوي على معان جليّة، وقيم واضحة تعين في ربط ذلك المفهوم مع المفاهيم الأخرى، بصورة تسهم في تقدم المعرفة وتيسر سبل البحث وتوظيف نتائجه في البناء الثقافي والحضاري للأمة.

وهذا الكتاب جهد مقدر، صنّف فيه المؤلفُ المفاهيمَ القرآنية في خمس مجموعات متقاربة معرفياً هي: المعرفة، والعلم، والوحي، والعقل، والحس. ثم عرض كل مفهوم من المفاهيم التابعة لكل مجموعة في دراسة معجمية واستعمالية وتأويلية، وذلك ضمن المرجعية القرآنية العامة، مما يعد خطوة مهمة في سبيل إنشاء معجم للمفاهيم المعرفية القرآنية. وأكد الكتاب أهمية التعامل مع المفاهيم القرآنية وفق قواعد محددة، تتضمن ملاحظة الخصوصية الحضارية واللغوية للمفهوم وتحليل بنيته، وتتبع تشكّله وتطوُّره الدلالي.

الدكتور عبد الكريم بليل

من مواليد تغنيف ولاية معسكر، الجزائر عام ١٩٨٢م. حاصل على دكتوراه علوم في قسم العقيدة ومقارنة الأديان، بكلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية عام ٢٠١٣م. وعلى الماجستير في العقيدة ومقارنة الأديان من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عام ٢٠٠٩م. وعلى الليسانس في العقيدة ومقارنة الأديان؛ من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عام ٢٠٠٤م. له العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة في مجلتي: المعيار، و إسلامية المعرفة، منها: «أسلمة المعرفة إعادة صياغة مصطلح»، و كتاب بالاشتراك بعنوان "دوحة القرءان". وله أكثر من مائة و عشرون مقالاً نُشِرت في موقع «الألوكة الشرعية»، "شبكة الضياء للمؤتمرات"، و أكثر من عشرة مواقع أخرى. البريد الإلكتروني: bellil.krimo@yahoo.fr.

ISBN 978-1-56564-641-4